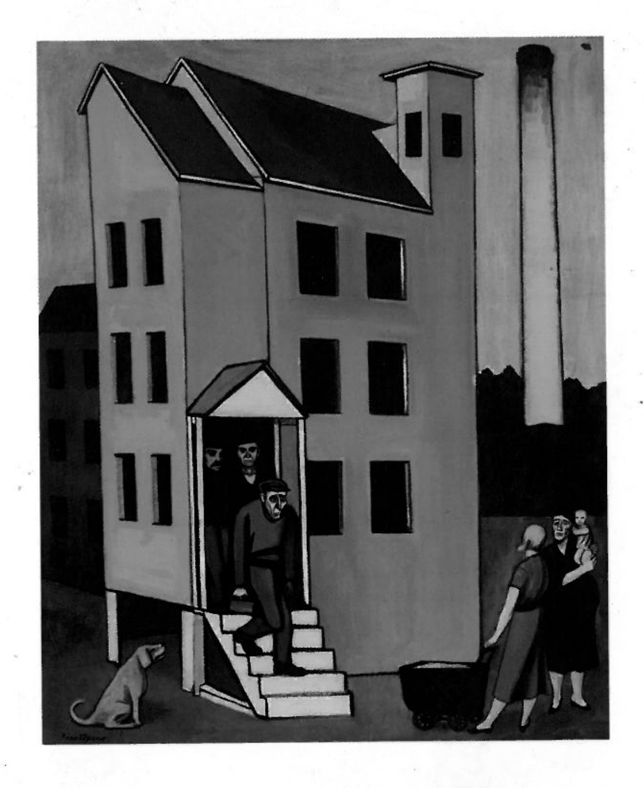
د. عبد الرحمن المالكي

مدرسة شيكاغو

ونشأة سوسيولوجيا التحضر والهجرة



أفريقيا الشرق

المؤلف : د.عبد الرحمن المالكي

عنوان الكتاب : مدرسة شيكاغو
ونشأة سوسيولوجيا التحضر والهجرة

رقم الإيداع القانوني : 2015 MO 3849
ردمك : 978-9954-656-61-7

أفريقيا الشرق– المغرب
159 مكرر، شارع يعقوب المنصور – الدار البيضاء
• المطبعة : الهاتف : 04 95 25 0522 / 13 98 25 22 05
الفاكس : 20 29 25 0522
• النشر والتصفيف : 39، زنقة علي بن أبي طالب – الدار البيضاء
الهاتف : 53 67 29 0522 / 54 67 29 0522
الفاكس : 72 38 48 0522
البريد الإلكتروني : E.mail : africorient@yahoo.fr
www.afrique-orient.com

د. عبد الرحمن المالكي

مدرسة شيكاغو

ونشأة سوسيولوجيا التحضر والهجرة

أفريقيا الشرق

مقدمة

«أعلن بكل صدق اقتناعي التام بأن العلم الاجتماعي يشكل أحد أقدس وأغلى ما يمكن أن يفتح أمام الإنسان».

ألبيون سمول

مؤسس قسم علم الاجتماع والأنتربولوجيا
بجامعة شيكاغو (1892)

لقد نشأت السوسيولوجيا كعلم مستقل بأوروبا في القرن التاسع عشر، ولكن هذا العلم سيشهد نشأة جديدة في الولايات المتحدة الأمريكية، ذلك أن النهضة الشاملة التي عرفتها هذه الولايات ستقوم في الأول على ما راكمته أوروبا من اكتشافات وإنجازات فكرية وعلمية، ولكنها ستنطلق من كل ذلك الإرث الأوروبي لتطوره وتخلق له المختبرات والمعاهد والجامعات لينمو ويزدهر بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ الإنساني. وهذا الأمر لا يصدق فقط بالنسبة للعلوم الطبيعية بل ينسحب على العلوم الإنسانية كذلك، ومنها علم الاجتماع ومختلف فروعه ونظرياته[1].

1- يقول ميشيل برطلو بهذا الصدد: «إذا ما استثنينا «البنيوية» التي انتقلت للولايات المتحدة الأمريكية من خلال أعمال كلود ليفي ستروس، و«الوظيفية» التي طورها كل من مالينوفسكي ورادكليف براون داخل المدرسة الأنجليزية للأنتربولوجيا، فإن جميع الاتجاهات السوسيولوجية الأخرى سترى النور في هذه الولايات»:

- M. Berthelot, «La sociologie, histoire d'une discipline» in: *La sociologie (Textes essentiels)* (Sous la direction de Karl M. Van Meter) Ed; Larousse, Paris, 1994 p .22

وعلم الاجتماع الحضري مثال ساطع على ذلك، فمختلف مؤرخي السوسيولوجيا يجمعون على أن الفضل في نشأته يعود إلى مدرسة أمريكية اشتهرت ولاتزال باسم «مدرسة شيكاغو». سنحاول في هذا الكتاب تتبع نشأة وتطور هذه المدرسة وأهم المقاربات والنظريات التي انبثقت عنها، والتعريف بأبرز روادها وذلك من خلال بعض النصوص المترجمة لكل من وليام طوماس وروبرت بارك ولويس وورث.

وبالرغم من أصالة هذه «المدرسة» وانبثاقها في أحضان المؤسسة الجامعية الأمريكية الفتية فإنها مع ذلك لم تنشأ من فراغ، لأن أعمال روادها تحيل على الفكر السوسيولوجي الحضري الأوروبي وتعتبر امتدادا وتجديدا له في نفس الوقت. إن كل رائد من الرواد الأوائل لعلم الاجتماع (دوركهايم، فيبر، سيمل،) اهتم بظاهرة المدينة وحاول تناولها انطلاقا من زاوية النظر الخاصة به، ومن هذا التراث الفكري سينطلق رواد مدرسة شيكاغو الذين استفادوا بالإضافة إلى ذلك من ظروف فكرية واجتماعية خاصة جدا تمثلت بالأساس في كون مدينة شيكاغو ستعرف في نهاية القرن التاسع عشر ميلاد جامعة رائدة في كل مجالات العلم والمعرفة، وسيظهر في رحابها أول قسم لعلم الاجتماع والانتربلوجيا في العالم، وسيدعو «ألبيون سمول» أول رئيس لهذا القسم الأساتذة والطلبة للقيام بأبحاث ميدانية لرصد ودراسة مختلف التحولات الديموغرافية والاجتماعية والاقتصادية التي تعرفها مدينة استطاعت في ظرف خمسين سنة استقطاب أزيد من ثلاثة ملايين من المهاجرين القادمين من مختلف مناطق أمريكا ومن الخارج بالخصوص. إن التقاء هذا الكم البشري الهائل والذي ينتمي لجنسيات وثقافات

وتقاليد متباينة في نفس المجال، جعل المهتمين بالعلوم الإنسانية في أمريكا آنذاك يتساءلون: كيف يمكن أن يتحول كل هؤلاء «المهاجرين» الوافدين، إلى مواطنين، وكيف يمكن أن يندمجوا في المجتمع المستقبل ليصبحوا «أمريكيين».

إن الحظوة الكبرى التي تمتعت بها هذه المدرسة، وما تزال، تعود بالأساس لروادها الأوائل الذين كان لهم شرف الانتقال بعلم الاجتماع من الهواية إلى الاحتراف، ومن حالة النظر الانطباعي التأملي للظواهر والوقائع الاجتماعية إلى حالة النظر العلمي الاستكشافي، وذلك ما يتجلى في تأسيسهم لتقليد «البحث الميداني» في هذا العلم، وتمكنهم من ابتكار وتطبيق أهم التقنيات المنهجية التي لا زلنا نستعملها إلى اليوم، وبالخصوص تلك التي تنعت بالكيفية (دراسة الحالة، الملاحظة بالمشاركة وتحليل مضمون الوثائق الشخصية، وحكايا الحياة) (...). وبالإضافة إلى تأسيسها «للمنهجية الأمبريقية» في علم الاجتماع ستشتهر مدرسة شيكاغو كذلك بتدشينها للبحث النظري والميداني في مجالي التحضر والهجرة. ذلك أن رواد هذه المدرسة قد انجزوا «سلسلة مدهشة من الدراسات حول المشاكل التي كانت تعاني منها مدينة شيكاغو»، كما كرسوا بالأساس جزءً من أعمالهم لمشكلة سياسية واجتماعية هامة كانت كل المدن الأمريكية الكبرى معنية بها وتتجاوز إطار سوسيولوجيا المدينة وحدها: ألا وهي مشكلة الهجرة الوافدة، ومسألة انصهار واستيعاب المهاجرين الوافدين على المجتمع الأمريكي. ويعتبر البحث الذي أنجزه وليام إسحاق طوماس حول «الفلاح البولوني» (مونوغرافيا جماعة مهاجرة إلى أمريكا). حسب ج. م. برطلو

(J. M. Berthelot) بمثابة «شهادة ميلاد السوسيولوجيا الأمريكية الحديثة».

إن إرث مدرسة شيكاغو سيظل حاضرا في السوسيولوجيا عامة وفي سوسيولوجيا التحضر والهجرة خاصة، وذلك سواء على مستوى منهجية البحث، أو المفاهيم المستعملة أو النظريات المستلهمة. ولكن هذه السوسيولوجيا ستتجه شيئا فشيئا لتجعل من ظاهرة «التحضر» موضوعها المفضل، ذلك أن هذه الظاهرة في بعديها المجالي والثقافي تتجه تاريخيا لتصبح ظاهرة «كونية»، فكل المجتمعات الإنسانية سواء منها المتقدمة أو تلك «السائرة في طريق النمو» تعرف نموا حضريا مضطردا، بل إن الظاهرة القروية قد اندثرت في العديد من الدول، وهذا ما دعا ويدعو بعض علماء الاجتماع إلى التساؤل عن موضوع السوسيولوجيا الحضرية في خضم الادماج المجالي الهائل والمستمر الذي تعرفه مختلف بقاع العالم، لدرجة أصبح فيها «الموضوع الحضري» يتماهى مع «الموضوع الاجتماعي». ولهذا يرى بعض علماء الاجتماع أن التسمية الأنسب لهذا التخصص هي «سوسيولوجيا التحضر» على اعتبار ان موضوعها هو عملية الاندماج الاجتماعي في المجتمع الكلي الذي يتجه ليصبح حضريا بالكامل.

إن الغاية من هذا الكتاب هي بالأساس تعريف القارئ العربي بهذه المدرسة السوسيولوجية التي تعتبر من أهم المدارس التي عرفها علم الاجتماع الحديث والتي لازال صدى أعمال روادها يتردد في أذهان مختلف علماء الاجتماع وتحت أقلامهم. كما أن تقنيات ومناهج البحث الميداني التي أبدعوها ما تزال إلى اليوم من أهم وسائل المعرفة السوسيولوجية التي تتغيى سبر أغوار

الواقع الاجتماعي. ولذلك فإن هذه المدرسة التي ظهرت في بداية القرن العشرين مازالت دائمة الحضور في علم الاجتماع، وما أن يعتقد بعض منتقديها أنها انتهت أو تجووزت حتى تتبدى في حلة أو حلل جديدة، وحتى يظهر لها أتباع ورواد جدد. فبعد مدرسة شيكاغو الأولى (مع طوماس وبارك وبيرجيس وورث وماكنزي)(...) ستظهر ابتداء من منتصف الخمسينيات مدرسة شيكاغو الثانية (بيكر، كرنفينكل، وكوفمان، أ. ستروس)، (...) أما اليوم فكل التجديد السوسيولوجي مايزال ينطلق من هناك، من جامعة شيكاغو، ومن قسم علم الاجتماع بالذات، وكل التيارات الرائدة اليوم من قبيل: الإثنوميتودولوجيا، والتفاعلية الرمزية الجديدة، وسوسيولوجيا الحياة اليومية، والمقاربات المنهجية المبدعة، والأبحاث السوسيولوجية النموذجية، لازالت تمتح من معين لم ينضب بعد، معين مدرسة تواطأ مؤرخو علم الاجتماع على تسميتها «مدرسة شيكاغو»، ولكن روادها وأتباعها كانوا ولازالوا يفضلون اعتبارها «تيارا ميتودولوجيا» و«مدرسة للاشتغال والعمل» (école d'activité) بحسب تعبير هاورد بيكر (H. Becker) أكثر مما هي «تيارا نظريا» أو «مدرسة فكرية».

فاس: فاتح فبراير 2015

[illegible]

[illegible] (école d'activités) [illegible]

[illegible] (Becker [illegible]

2010 [illegible]

[illegible]

القسم الأول

الممهدون لمدرسة شيكاغو

دوركهايم، فيبر، سيمل

تقديم

لا يمكن تناول أو دراسة أو تعريف ظاهرة التحضر إلا انطلاقا من العلاقة التي كانت أو الكائنة أو الممكنة بين البادية والمدينة. إن تحليل ودراسة هذه العلاقة هو الذي برر في الماضي ويبرر في الحاضر الحديث عن الهجرة القرية (أي كل انتقال بشري من البادية إلى المدينة بقصد الإقامة والعمل) وعن التحضر (بالمعنى الذي نعطيه له هنا والذي يعني عملية الإنخراط التدريجي في الثقافة الحضرية).

إن جميع علماء الإجتماع وهم يتحدثون عن المدينة أو الظاهرة الحضرية ينطلقون إما صراحة أو ضمنا من مقارنتها مع البادية أو الظاهرة القروية. ومن البدهي أن كل واحد من طرفي هذه العلاقة يُعرف الآخر. والحديث عن أحدهما يستدعي الحديث عن الثاني. ولا وجود للمدينة إلا لأن هناك بادية، كما أنه لا وجود للبادية إلا لأن هناك مدينة. وانقراض احداهما أو سيادتها التامة سيعني انتفاء أي معنى للحديث عن الآخرى[2]. إن القطب الغالب هو دوما

2- في نفس هذا المعنى يقول ريمون لودريت: «إن الخاصية الأساسية المميزة للتحضر الذي تعرفه المجتمعات الصناعية الأكثر تطورا هو أن المدينة تتحدد فيها أقل فأقل بعلاقتها مع البادية وأكثر فأكثر بعلاقتها مع ذاتها. وبمعنى آخر فإن البادية تندثر، ولكن ما هي الحضارة المدينية لما تنمحي الثقافة القروية؟ إذا ماتت البادية هل ستبقى هناك مدن»؟

- R. Ledrut, *l'espace social de la ville*, ed. Anthropos, Paris, 1968. P. VII.

وعلى مر التاريخ قطب المدينة ومن ثم كانت فقوة جذبه أقوى. وذلك ما يذكرنا به ابن خلدون وهو يقول: «ولهذا نجد أن التمدن غاية للبدوي يجري إليها، وينتهي بسعيه إلى مقترحه منها، ومتى حصل على الرياش الذي يحصل له به أحوال الترف وعوائده عاج إلى الدعة وأمكن نفسه إلى قياد المدينة، وهكذا شأن القبائل المتبدية كلهم. والحضري لا يتشوف إلى أحوال البادية إلا لضرورة تدعوه إليها أو لتقصير عن أحوال أهل مدينته»[3]. بل يذهب ابن خلدون إلى اعتبار ظاهرة الإنتقال التدريجي والدائم من البادية إلى المدينة ظاهرة حتمية «لأن أهل البداوة إذا انتهت أحوالهم إلى غايتها من الرفه والكسب تدعو إلى الدعة والسكون الذي في طبيعة البشر فينزلون المدن والأمصار»[4] إن ما يشير إليه ابن خلدون أحيانا بتعبير التحضر وأخرى بتعبير التمدن هو ما يشكل جوهر اهتمامنا في هذا الكتاب، أي عملية الإنتقال البشري من البادية إلى المدينة وما تستدعيه عملية الإنتقال هذه من تحولات وتغيرات تطرأ على «البدوي» وهو في طريقه ليتحول إلى «حضري». ورغم أن هذا الإشكال ينقلنا إلى عمق الإشكالية التي يتمحور حولها موضوع هذا الكتاب فإننا نرى من المفيد أن نوطىء لتناولها في الفصول اللاحقة بعرض لآراء بعض رواد علماء الإجتماع ونظرتهم الخاصة للمدينة والتحضر والتي سيتبين لنا من خلالها الحضور الدائم لديهم لهاجس العلاقة بين البادية والمدينة كما كان الأمر تماما مع ابن خلدون.

3- عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، ص، 122.

4- نفس المرجع السابق، ص. 343.

الفصل الأول

المدينة، مجتمع التضامن العضوي: إميل دوركهايم

بالرغم من كون إميل دوركهايم (E. Durkheim) (1917 - 1858) هو المؤسس الفعلي لعلم الإجتماع الحديث، فإنه مع ذلك لم يخلف لنا نظرية عن المدينة أو تعريفا لها أو استراتيجية للعمل الفكري والعملي في مجال التحضر. ومساهمته الكبرى ستظل دائما هي وضعه ل: «قواعد المنهج في علم الإجتماع»، وترسيخه من خلاله للإتجاه الوضعي، ومن ثمة امتداد تأثيره إلى كل فروع هذا العلم، ومنها علم الإجتماع الحضري. ولكن ذلك لا يعني أن المدينة وظاهرة التحضر قد غابا عن اهتمام دوركهايم بشكل كلي، خصوصا وهو الذي قسم السوسيولوجيا إلى «مرفلوجيا اجتماعية» و«فيزيولوجيا اجتماعية»[1]. كما أن مسألة التغير الإجتماعي وعملية

1- إن هذا التقسيم المستوحى من «الإستاتيكا الإجتماعية» والديناميكا الإجتماعية» أساسي في كل السوسيولوجيا ويشبه إلى حد ما التمييز الذي وضعه ماركس بين «البنية التحتية» و«البنية الفوقية»، لأن المرفلوجيا الإجتماعية تُعنى عند دوركهايم وتلامذته بدراسة المجتمع باعتباره «ظاهرة مادية» أي دراسة الشكل المادي للمجتمعات من حيث عدد أفرادها وكيفية انتشارهم فيها وشكل سكنهم والهجرات والمهن، الخ، بينما تهتم الفيزيولوجيا الإجتماعية بدراسة المجتمع باعتباره «ظاهرة روحية» أي دراسة بنيته المتحركة، والمتجلية في أفعال الناس وتمثلاتهم ووعيهم الجمعي الخ. انظر:

- E. Durkheim, *La science sociale et l'action*, col. Sup., éd. PUF, Paris, 1970, p. 153.

الإنتقال التدريجي للمجتمعات على سلم النمو والتقدم قد شكلت الموضوع المحوري في أطروحته «**تقسيم العمل الإجتماعي**». وفي هذا الكتاب التقى دوركهايم بمسألة كيفية احتلال الإنسان للمجال وتغييره وسيررورة خلقه للمدينة، وذلك من خلال سعيه لتفسير عملية الإنتقال من مجتمعات التضامن الآلي إلى مجتمعات التضامن العضوي. هذا الإنتقال الذي يهيئ له ويتيحه الإرتفاع التدريجي لمستوى الكثافة المادية (الديموغرافية) في المجتمع، والتي تهيئ وتتيح بدورها ارتفاع الكثافة الروحية فيه، أي ظهور وتقدم الحضارة. إن دوركهايم كما سيتضح ذلك من خلال كتاباته كلها كان متشبعا كمعظم فلاسفة ومفكري عصره بفكرة «التقدم»، ومن هذا المنطلق حاول تفسير التغير الإجتماعي الذي يتم ما بين المجتمعات الدنيا (البادية) والمجتمعات العليا (المدينة).

إن أهم ما يميز المجتمعات الدنيا حسب دوركهايم هو أن الإجماع (Le consensus) أي تعايش الفرد والجماعة فيها يتحقق عن طريق سيادة التضامن الآلي المبني على التشابه على كافة المستويات (العقلية والمهنية). إن هذه المجتمعات لا تعرف تقسيما للعمل، أو تعرف التقسيم الطبيعي البسيط المبني على الجنس. ولا يتمتع الفرد فيها بأية شخصية مستقلة لإنه يتماهى ويتشابه مع الآخرين، ويتصرف وفقا للأعراف والعادات السائدة والمتوارثة. إنها المجتمعات التجزيئية أو مجتمعات التضامن الآلي. أما المجتمعات العليا فإن الإجماع يتحقق فيها عن طريق التباين، إن الأفراد لم يعودوا أشباه بعضهم البعض بل مختلفون وذلك لأن الفرد في هذه المجتمعات وبالرغم من كونه يصبح أكثر حرية على المستوى الشخصي، فإن ظاهرة تقسيم العمل الكثيفة فيه تجعله في

حاجة إلى الآخرين الذين يكونون في حاجة إليه بدورهم. ومن هنا فإن التضامن يتم عن طريق الإختلاف وذلك ما يسميه دوركهايم بالتضامن العضوي، (استلهاما لنموذج أعضاء الكائن الحي التي تختلف وتتباين ولكنها تتكامل وتتضامن)، ومثل هذا التضامن لايتطور ولا يبلغ درجاته الأعلى والأكمل إلا في المجتمع الحضري.

إن ما يهمنا من خلال هذا الإستعراض المقتضب لآراء دوركهايم بهذا الصدد هو الوصول إلى تبيان كيف أن هذين الشكلين من التضامن يعبران عن شكلين من التنظيم الإجتماعي، أي المجتمعات المسماة في الأنتربولوجيا التقليدية «بدائية» أو «عتيقة» والتي ينظمها التضامن الآلي، ثم المجتمعات التي تتطور فيها الكتابة وظاهرة تقسيم العمل والتي ينظمها التضامن العضوي. فكيف يتم هذا الإنتقال إذن؟ وهل هو دائما تعبير عن الإتجاه نحو الأفضل والأحسن، أي تقدما؟

لقد عمل دوركهايم في البداية على استلهام تفسير أوكست كونت الذي كان يرى أن السبب في التباين الإجتماعي واختلاف الناس من مرحلة تاريخية لأخرى هو بحثهم المستمر عن «السعادة» و«المتعة» أو الإستزادة منهما. ولكن هذا التفسير لا يصمد كثيرا أمام الإستمرار في تحليل الواقع. لذلك يتساءل دوركهايم هل أفراد المجتمعات الحديثة أكثر سعادة من أفراد المجتمعات القديمة؟[2]

وبحثا عن التفسير السوسيولوجي الملائم سينتهي دوركهايم إلى القول بأن تقسيم العمل لا يمكن أن يفسر لا بالسعي وراء

2- لقد استأنسنا واستفدنا في تلخيص هذه الآراء الدوركهايمية من المجهود الرفيع الذي قام به ريمون آرون لبسط وتوضيح سوسيولوجيا دوركهايم في كتابه «مراحل الفكر السوسيولوجي»:

-Raymond Aron, *Les étapes de la pensée sociologique*, éd. Gallimard, Paris, 1967. Pp. 319-330.

السعادة، ولا بالرغبة في الرفع من إنتاجية العمل الجماعي أو تحسين مستوى العيش. فكيف يتم إذن الانتقال من نوع معين من التضامن إلى آخر؟ إن الجواب الأقرب إلى الصحة في نظر دوركهايم هو ذاك الذي ينبغي أن يكون أكثر وفاء للقاعدة المنهجية التي تقول بأنه لا يمكن تفسير ظاهرة اجتماعية ما إلا بظاهرة اجتماعية أخرى. وهذه الظاهرة الإجتماعية الأخرى هي حجم المجتمع أو كثافته المادية (الديموغرافية). إن حجم المجتمع هو ببساطة عدد الأفراد المكونين له. ولكن هذا الحجم لوحده لا يفسر التمايز الإجتماعي. إن المجتمعات المرتفعة الكثافة المادية المشتتة فوق أرض شاسعة، كما هو الشأن بالنسبة للعديد من القبائل الكبيرة في الماضي، لاتتيح التمايز الضروري لبروز التضامن العضوي. ولكي يصبح حجم السكان أي عددهم المرتفع سببا في التمايز، لا بد من اعتبار الكثافة في بعديها المادي والروحي. تتجلى الكثافة المادية في عدد الأفراد الذين يعيشون على قطعة معينة من الأرض، بينما الكثافة الروحية فتتجلى في مدى قوة ووتيرة وكثافة التبادل والتواصل بين هؤلاء الأفراد. فكلما كانت العلاقات بينهم أقوى كلما كانوا على استعداد للعمل مع بعضهم البعض، وكلما كانت علاقة التبادل التجاري أو التنافسي قوية كلما ارتفعت كثافة علاقتهم الروحية. إن التمايز الإجتماعي المفسر للتقدم والمساعد عليه ينتج إذن من التقاء ارتفاع الكثافتين المادية والروحية معا. «إن الكثافة الروحية لا يمكن أن ترتفع إذن دون أن ترتفع الكثافة المادية في نفس الوقت، وهذه يمكن ان تفيد في قياس تلك. ومن غير المجدي البحث في مسألة أي منهما تحدد الأخرى، يكفي أن نسجل أنهما متلازمتان»[3]

3- E. Durkheim, *De la division du travail social*, éd. PUF, (10ème édition), Paris 1978, p. 238.

إن اعتماد هذا التفسير السوسيولوجي للتطور والتقدم الذي سيتبناه دوركهايم سيجعله يلتقي بالضرورة بالمدينة وبالظاهرة الحضرية وبالتحضر. ففي المدينة تتكدس أعداد كبيرة من الناس في رقعة أرضية صغيرة. إن الكثافة المادية الأكبر لا تتحقق إلا داخل المدن، لذلك فإن هذه الأخيرة تشكل التنظيم الإجتماعي الأرقى والأفضل والأكثر تعقيدا. إن التركز التدريجي للمجتمعات خلال تطورها التاريخي يتم-حسب دوركهايم وفق ثلاثة أشكال أساسية:[4]

1 - «بينما تمتد المجتمعات الدنيا على مساحات شاسعة بالنسبة لعدد الأفراد الذين يكونونها، فإن السكان في الشعوب الأكثر تقدما يتجهون نحو التركز أكثر فأكثر (...) ومجمل التغيرات التي طرأت تباعا على الحياة الصناعية تؤكد شمولية هذه البرهنة.»[5]

2 - «إن تكون المدن وتطورها يشكل مظهرا آخر، أكثر تميزا، لنفس الظاهرة. إن ارتفاع الكثافة المتوسطة فيها يمكن أن يعود فقط إلى الإرتفاع الكمي للولادات، ومن ثمة يمكن أن يتماشى مع تركز ضعيف، يعكس استمرار البقاء الجلي للنمط التجزيئي. ولكن المدن تنتج دائما من الحاجة التي تدفع الأفراد إلى البقاء دوما في اتصال حميمي مع بعضهم البعض (...). إن أعداد المدن عبارة عن النقط التي تتجمع فيها الكتلة الإجتماعية وتلتحم بشكل لا يتحقق بالشكل نفسه في مكان آخر. ومن ثمة فلا يمكنها أن تتضاعف وتمتد إلا إذا ارتفعت كثافتها الروحية. وسنرى لاحقا

4- Ibidem.

5- *Ibidem.*

أنها تتنامى عبر الهجرة الوافدة (Immigration) وهذا ما لا يمكن أن يتم إلا إذا كان انصهار الأجزاء الإجتماعية قد بلغ مستوى متقدما»[6]

«وما دام التنظيم الإجتماعي تجزيئيا فإن المدينة لن توجد. (...) إن اتجاه البوادي للتدفق في اتجاه المدن، بالشكل العام والشامل كما في عالمنا المتحضر، ليس إلا استمرارا لنفس الحركة، وهي حركة ليست بالجديدة، فقد سبق وأن شكلت مصدر انشغال لرجال الدولة منذ القرن السابع عشر. (...)»

«إن الوتيرة المستمرة والسريعة لهذه الحركة تبرهن على أنه بدلا من اعتبارها ظاهرة مرضية، فإنها على العكس من ذلك هي ظاهرة مستمدة وناتجة من طبيعة الأنواع الإجتماعية العليا».[7]

3 - «وأخيرا هناك عدد وسرعة طرق المواصلات والإتصال. فكلما تم محو أو تقليص الفراغات التي تفصل الأجزاء الإجتماعية، كلما ساعد ذلك على الرفع من كثافة المجتمع. ومن جهة اخرى لا داعي للبرهنة على أنها تكون أوفر وأحسن كلما كانت المجتمعات من النوع الأعلى.»[8]

إن تأثير دوركهايم سيكون مباشرا على تلامذته وبالخصوص على موريس هالفاكس (M. HALFAKSE)، كما يتجلى ذلك في كتابه «المورفلوجيا الإجتماعية». كما أن تحليلاته المتعلقة بظاهرة تقسيم العمل ودور المدينة فيها ومسألة الإنتقال من مجتمعات التضامن الآلي البسيطة إلى مجتمعات التضامن العضوي المعقدة

6- *Ibid*. P. 239.

7- *Ibid*. P. 241.

8- *Ibidem*.

ستشكل بالنسبة لعلماء الإجتماع الذين سيهتمون بالمجتمعين القروي والحضري الأساس الذي سينطلقون منه لوضع مختلف النظريات الثنائية التي تسمى عند بعض العلماء نظرية السمات وعند البعض الآخر نظرية المتصل الريفي-الحضري[9]. وعند استعراضنا لهذه النظريات نجد أنها جميعها تستلهم التحليل الدوركهايمي وإن كانت تعمد كلها إلى إغنائه وتطويره[10]. ومن الأكيد أيضا ان رواد مدرسة شيكاغو وبالخصوص لويس وورث قد شكلوا امتدادا للإتجاه الوضعي في الدراسات الحضرية. ولذلك يقول بول هنري شومبار دولوف (P. H. C. De Lauwe) «إن لويس وورث في دراسته التركيبية المتميزة (عن التحضر كنمط للعيش) ينخرط في خط فكري يربطه مباشرة بإميل دوركهايم وأوكست كونت»[11].

9- يذهب أصحاب هذاه النظرية إلى أن هناك امتداد من البادية إلى المدينة وأن جل السمات المميزة لكل تنظيم اجتماعي مشتركة بينهما، ولكن الفرق هو في درجة وضوح تلك السمات. إن الإنتقال يتم إذن مما يسمى عادة بالمجتمع المحلي الذي يعيش على الطبيعة الخالصة (والسمة الأساسية المميزة له هي انعدام أي تقسيم واضح للعمل) إلى المجتمع الحضري الذي يعيش على الثقافة الحضرية الخالصة (وحيث التقسيم الشديد للعمل يشكل إحدى أهم السمات المميزة له). ولقد طور كل من ريدفيلد (Redfield) وزيمرمان (Zimmerman) وسوروكين (Sorokin) هذا الإتجاه التفسيري النظري في علم الإجتماع الحضري والمعروف بنظرية المتصل الريفي الحضري (Rural-Urban Continium) انظر بهذا الخصوص:

- محمد عاطف غيث، علم الإجتماع الحضري (مدخل نظري)، دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية، 1993، ص 116.

10- د. محمد الجوهري، ود. علياء شكري، علم الإجتماع الريفي والحضري، دار المعارف، القاهرة، 1980.

يمكن الجوع بهذا الصدد بالخصوص إلى الفصل الخامس «الفروق الريفية الحضرية» للتعرف على مختلف النماذج الثنائية المعتمدة في تحليل العلاقة بين المجتمعين القروي والحضري.

11- P. H. Chombart De Lauwe, *Des hommes et des villes,* éd. Payot, Paris, 1965. p. 40.

ولكن الفرق الذي نجده بينهما في نظرتهما للمدينة والتحضر، هو أن دوركهايم كان يبجل المدينة ويرفعها إلى مقام المجتمع الأعلى النموذجي، حيث يتحقق التضامن العضوي المفضي إلى المزيد من التقدم والحرية والرخاء. بينما يركز وورث ورفاقه على الوجه البئيس للمدينة، وعلى مختلف الأمراض والإنحرافات الإجتماعية التي تجد فيها أرضيتها الخصبة، على النحو الذي سنوضحه من خلال الفصول التي سنخصصها لعرض وتحليل آراء مدرسة شيكاغو.

الفصل الثاني

النموذج المثالي للمدينة:
ماكس فيبر

مع ماكس فيبر (M. Weber) (1920 - 1864) ستدخل علاقة السوسيولوجيا بالمدينة طورا آخر. إذ ستتحول من موضوع عرضي في سياق دعم تحليل معين عن تطور المجتمع، إلى موضوع يحظى بمؤلف كامل ومستقل أسماه «المدينة»[1]. ورغم كون هذا الكتاب يؤرخ لبداية الإهتمام السوسيولوجي الفعلي بالمدينة، فإن مساهمته النوعية هذه تندرج في إطار السوسيولوجيا التاريخية، وربما لم تمهل الظروف أو المنون هذا العالم ليترك لنا مؤلفا سوسيولوجيا متكاملا عن المدينة الحديثة. فهذا أن هذا النص، واستنادا إلى رأي جوليان فروند (J. Freund) وهو للتذكير، أبرز من اهتم من علماء الإجتماع الفرنسيين بماكس فيبر - «ربما كان غير كامل، لأنه بإمكاننا أن نفترض أن فيبر كان يمكن أن يتبعه بتكملة. وبالفعل فإن التصنيف الذي وضعه فيبر للمدن في الفصل الأول جعله يشير إلى حالات بعض المدن الحديثة. كأرنهم (Arnhem)

1- من الجدير بالذكر هنا أن جل مؤلفات ماكس فيبر قد نشرت بعد وفاته، ونص «المدينة» أيضا،حيث تم نشره سنة 1921 أي عاما بعد وفاته وذلك في المجلة التي كان يديرها والتي كان عنوانها بالألمانية هو: «Archiv fur Sozialwissenshaft und Sozialpolitic». ثم سيدرج ضمن كتاب «الإقتصاد والمجتمع» فيما بعد وذلك بعناية من ماريان فيبر (Marianne Weber).

مدينة «الملاكين»، أو ويسبادن (Wiesbaden) مدينة المتقاعدين، أو دوسلدورف (Dusseldorf) مدينة البنكيين، أو مدن الإنتاج الصناعي ك: إيسن (Essen) وبوخوم (Bochum)، أو أخيرا مدنا حديثة تماما، وهي التي يسميها «المدن-الحواضر» (Villes-city). إن تحاليل ماكس فيبر في هذا النص تقف عمليا عند نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر»[2].

وإذا كانت تلك هي الملاحظة الأولى والأساسية عن هذا الكتاب، فإنها مع ذلك لا تنتقص من قيمته شيئا، ذلك أن صاحبه ظل وفيا لمشروعه الفكري الشامل إذ كان مهووسا في قسم كبير منه بالرد على ماركس والماركسية والتشكيك في صلاحية تفسيراتها السببية الأحادية والتحذير من التسليم غير النقدي بأطروحتها الرئيسية القائلة بأولوية التفسير الإقتصادي للظواهر الإجتماعية والتاريخية. وهذا الهاجس الأيديولوجي المبني على قناعات علمية سجله كل الدارسين للسوسيولوجيا الفيبيرية: «إن جزءً من أعمال فيبر يمكن أن ينظر إليها على أنها مجهود من أجل الخروج من المادية الإقتصادية لماركس من خلالها مادية سياسية وعسكرية[3]». والمنهجية التي اعتمدها فيبر في هذا الكتاب يمكن أن تعتبر نموذجية بهذا الصدد، لأنه يوضح من خلال وبجلاء ما يقصده بالتعدد السببي، فمن التعسف العلمي إرجاع تطور ما أو ظاهرة ما إلى عامل واحد أو سبب واحد، قد يكون هو السبب أو العامل الإقتصادي أو غيره. ومن الجدير بالملاحظة كذلك أن ماكس فيبر -كما يؤكد جوليان

2- Julien Freund, *Préface* de la traduction française, de *«La ville»* de Max Weber, éd. Aubier Montaigne, Paris, 1982, p. 8.

3- Jean Rémy & Liliane Voyé, *La ville et l'urbanisation*, *op. Cit.* p. 209.

فروند- كان مع ذلك من الجامعيين الألمان القلائل الذين اعترفوا لماركس كشفه لأهمية الظروف الاقتصادية وصراع الطبقات. وفي المقابل كان دائم الرفض لما أسماه ميتافيزيقا ماركس التي تتجلى في اعتبار العامل الإقتصادي هو العامل الحاسم في نهاية التحليل. إن التحليل الماركسي قد يغري بإنتاجه لمجموعة من «النماذج المثالية»، ولكن ضعفه الكبير يكمن في كون بناءه النظري الواحد والمحدود أغفل البعد التعددي للواقع من جهة، وأصر على تأويل كل التاريخ البشري في إطار استمرارية خطية وتقدمية. هذا في حين أن التاريخ البشري -والغربي منه بالخصوص- قد عرف قطائع وتراجعات بحسب المستوى الإقتصادي السائد، والديانة السائدة، والقانون السائد، والسلطة العسكرية السائدة. إن هذه العوامل وغيرها يمكن أن تكون عوامل تقدم وازدهار كما يمكن أن تكون عوامل تأخر وانهيار. وهذا الصعود أوالنزول يمكن قياسهما حسب، فيبر، استناداً إلى المستوى العقلاني المتقدم أو المتراجع[4].

وبالفعل فإن الدارس لسوسيولوجيا ماكس فيبر سيلاحظ أن جميع أعماله تستند لهذه الخلفية، بل إن كل مشروعه الفكري يقوم على مرتكزين أساسيين هما **العقلنة**[5] **والشرعنة** (Rationalisation et légitimation). والعقلنة كما يفهمها ويستعملها ماكس فيبر «هي نتيجة من نتائج التخصص العلمي والتمايز التقني الخاص

4- Julien Freund, «*La ville selon Max Weber*», article dans : *Espace et Société*, N°16, Novembre 1975.

5- يقول ج. هابرماس بهذا الصدد: «إن ماكس فيبر قد ترك نفسه ينقاد في أبحاثه التاريخية السوسيولوجية من طرف فكرة كانت قاسية بالنسبة لبنائه الفكري ولكل نظريته: إنها فكرة امتداد العقلنة إلى كل مجالات المجتمع.» ذكر في:

-J. Rémy & L. Voyé, *op, cit*, p. 211.

بالحضارة الغربية. إنها تكمن في تنظيم الحياة من خلال تقسيم وتنسيق مختلف الأنشطة، وذلك بناء على دراسة دقيقة للعلاقات بين الناس، وبين أدواتهم ووسطهم بغية بلوغ أكبر قدرمن الفعالية والمردودية[6]. »

يربط ماكس فيبر في دراسته للمدينة بين العقلنة والسلطة، بل إنه غالبا ما يتناول السلطة من منظور العقلنة. والسلطة بالمفهوم الذي يستعملها به فيبر لا تكون لادوما ولا بالضرورة من طبيعة اقتصادية كما يذهب إلى ذلك ماركس، فقد يحدث أن تقوم على سبيل المثال على أسس ثقافية معيارية. وكل سلطة تفترض مبدأ الشرعية والتي تقتضي بدورها وجود الإعتقاد في الشرعية حتى تكون ممكنة. وأخذا بعين الإعتبار للتصنيف الذي وضعه ماكس فير للسلطة والتي ميز فيها بين السلطة التقليدية التي ترتكز على الإيمان بالسلطة وإعادة إنتاجها انطلاقا من قداسة التقليد؛ ثم السلطة الشرعية البيروقراطية، القائمة على نظام شرعي بيروقراطي، أي المنبثق من العقلنة الغائية التي تحدد أنسب الوسائل لبلوغ أنسب الأهداف؛ ثم أخيرا هناك السلطة الكارزماتية القائمة على الإعتقاد في القدرات الخارقة لفرد معين. وهذا النوع الأخير من السلطة هو الأكثر ثورية في نظر فيبر لأنه يساعد على تحقيق غايات كثيرة في مدة زمنية قصيرة. وهنا مصدر خلاف آخر بينه وبين ماركس الذي يبني مبدأه في الثورية انطلاقا من جدلية صراع الطبقات.

إن التذكير بهذا التصنيف الثلاثي يمهد لنا السبيل لتناول موضوع المدينة عند فيبر. وهنا يجدر أن نذكر أن المادة الكاملة

6- Ibid, p. 210

تقريبا لكتابه «المدينة» ليست في الواقع -كما يذكر بذلك جوليان فروند وغيره- سوى فصل من الجزء الثاني من كتابه «**الإقتصاد والمجتمع**»[7]، وبناء على ذلك يعتبر فيبر أن المدينة الغربية شهدت تتابعا لسلسلة من السلط التقليدية، وأن السلطة الكارزماتية فيها غائبة، كما أن السلطة الشرعية البيروقراطية لما تولد فيها بعد. إن هذا الموقف هو الذي يفسر لنا لماذا وضع فيبر ما قاله عن المدينة في هذا الكتاب في الجزء الخاص عن «**السلطة غير الشرعية**».

إن هاته المبادئ التي قام عليها التحليل الفيبري للمدينة - والتي يمكن القول، هي نفسها التي تقوم عليها تحليلاته الأخرى- قد تم تدعيمها وإيجاد تطبيقات لها انطلاقا من رؤية تاريخية مقارنة، تبدأ من مدن مصر وما قبل الميلاد إلى المدينة اليونانية والرومانية والإسلامية والآسيوية والأوربية القرسطوية والروسية(...)، إن هذا البعد السوسيولوجي والتاريخي هو ما يغني أيضا مفهوم المدينة وطبيعتها عند ماكس فيبر على نحو ما سنحاول توضيحه[8].

7- يمكن الإشارة هنا إلى الترجمة العربية (عن الألمانية) التي قام بها رضوان السيد لقسم من الجزء الثاني من كتاب «الإقتصاد والمجتمع» الخاص بالمدينة، وعند المقارنة نجد أن ما ترجمه هذا الكاتب هو نفسه ما نجده في الفصل الأول من كتاب فيبر «المدينة»، انظر:
- د. رضوان السيد، «المدينة وشروط قيامها»(نص لفيبر مترجم عن الألمانية)، مجلة الفكر العربي، السنة الرابعة، العدد 29 ، نونبر 1982.
ورغم القيمة العلمية للمؤلف إلا أننا لم نتبنى ترجمته التي بدت لنا غير دقيقة لما قمنا بمقارنتها بالنص الفرنسي المترجم أيضا عن الألمانية.

8- يتضمن كتاب فيبر عن المدينة أربعة أقسام رئيسية:
أ- التعريف النموذجي المثالي للمدينة.
ب- تحديد أصالة المدينة الغربية من وجهة نظر العقلنة بالمقارنة مع باقي مدن العالم.
ج- مختلف أنماط العقلنة الحضرية في الغرب.
د- النتائج السياسية لهذه العقلنة.
وغاية قولنا هنا تجعلنا نهتم تحديدا بالآراء الواردة في الجزء الأول لأنه الأكثر سوسيولوجية.

1 - المدينة: التعاريف النموذجية

إن المسألة الأولى التي ينبغي التنبيه إليها هي «أن ماكس فيبر وهو يسعى إلى وضع النموذج المثالي للمدينة كان يعتبر أنه لاوجود للمدينة بالمعنى الذي يقدمه إلا في أوروبا الغربية[9]»، لأن المدينة الغربية هي قمة ما بلغته العقلنة الحضرية، والتي تتجسد في مختلف تنظيماتها. وسيتضح هذا الموقف أكثر عندما يخصص لهذه المدينة لهذه المدينة صفحات عديدة للإشادة بالديموقراطية المحلية التي نشأت وازدهرت فيها (المجالس السلطوية والقضائية والمالية المنتخبة، ووضع دستور خاص بكل مدينة).

في محاولته لتعريف المدينة يقر فيبر منذ الوهلة الأولى أنه «من وجهة النظر السوسيولوجية لا يوجد تعريف واحد للمدينة» ولذلك سينطلق منذ الفقرة الألى في محاولة لصياغة تعريف «نموذجي» للمدينة[10]. وسيقترح ومنذ الأسطر الأولى وبشكل كثيف وعميق مختلف أصناف التعاريف التي ستصاغ فيما بعد بشأن للمدينة. وبهذا المجهود سيدشن ماكس فيبر، ومنذئذ، النقاش الذي ما زال

9- J. Rémy & L. Voyé, *op, cit*, p: 214.

10-إن منهجية «النموذج المثالي» يعني في السوسيولوجيا الفيبيرية اللجوء إلى التركيز من جانب الباحث أو الدارس، على وجهة نظر أو وجهات نظر معينة، والإنتهاء إلى وضع «لوحة» تتضمن مجموعة من السمات أو الخصائص التي قد تكون فريدة أو متعددة، واعتبارها هي «المثال» الذي نقيس باقي الظواهر انطلاقا من درجة القرب أو البعد عنه. ولذلك فالنموذج المثالي ليس في نهاية الأمر سوى أداة منهجية مساعدة في التحليل. يقول فيبر: «إن النموذج المثالي، قد لا يوجد بالمرة في صفائه المفهومي في الواقع: إنه يوطوبيا، إن مهمة العمل التاريخي هي تحديد مدى قرب أو بعد كل حالة خاصة عن اللوحة المثالية». انظر:

- Max Weber, *Essai sur la théorie de la science*, (Traduit de l'Allemand par J. Freund) éd. Plon, Paris, 1965, pp.179-181.

مستمرا إلى اليوم بين أنصار التعاريف الكمية (معيارعددالسكان) وأنصار التعاريف الكيفية (معيار الثقافة). يقول فيبر:

«يمكننا أن نحاول تعريف «المدينة» بطرائق متعددة. وكل التعاريف تشترك في نقطة واحدة وهي أن المدينة لا تكمن في سكن واحد أو سكنات متعددة منتشرة بشكل مبعثر، تتشكل المدينة، على كل حال، من السكن المتجمع (ولو نسبيا) أي من «محلة» (Localité). وفي المدن (وليس فيها وحدها)، تبنى الدور بالقرب من بعضها البعض، والقاعدة العامة هي أن تبنى حائطا لحائط. إن التصور الشائع في الوقت الحاضر يربط المدينة بخصائص كمية محضة: إن المدينة هي المحلة الكبرى. والواقع أن هذا المعيار ليس خاطئا. ومن وجهة النظر السوسيولوجية فإن هذا يعني تجمعا لدور متلاصقة، و بشكل كثيف، تشكل معه تجمعا سكانيا من قطعة واحدة، تكون من الشساعة والكبر بحيث أن الإجتماع العادي والخاص بالجوار يصل حدا يصبح فيه التعارف الشخصي والمتبادل بين السكان متعذرا[11].»

يعتبر هذا التعريف أول محاولة لوضع تعريف سوسيولوجي للمدينة، أي التعريف الذي يهتم **بنوعية العلاقات الإجتماعية** الناجمة عن الكثافة السكانية المرتفعة في مجال ترابي ضيق. فإن ما يميز البادية عن المدينة حسب فيبر هو عدم قدرة سكان المدن على معرفة بعضهم البعض معرفة شخصية ومتبادلة. فمع بدء ظهور وانتشار حالات عدم التعارف بين الساكنة القاطنة في نفس المجال، وانغماس أو اختفاء كل واحد في هويته المجهولة (Anonymat)،

11- Max Weber, *La ville*, Traduit de l'Allemand par Philippe Fritsch, éd. Aubier Montaigne, Paris, 1982, p. 17-18.

فإن المحلة التي تستشري فيها هذه الظاهرة وتتضاعف، تتحول بالنسبة للسوسيولوجيا من «قرية» إلى «مدينة». إن هذا التعريف قد يوحي بأنه تعريف كمي أي تعريف يعطي الأولوية للحجم الديموغرافي للمدينة، ولهذا ينبه فيبر إلى أنه لا يبغي الإعتداد بالكم دائما ولا اعتبار «المحلات الكبرى هي وحدها التي يمكن أن تسمى مدنا. إذ لا بد من اعتبار الشروط والأوضاع الثقافية كذلك، فهناك العديد من المحلات الصغيرة الحجم في أوروبا الشرقية وروسيا التي تسمى مدنا نظرا لطابعها الثقافي المتميز «وعلى كل حال -يختم فيبر- **إن الحجم لوحده لا يشكل المعيار الحاسم**[12].»

ولا يكتفي فيبر بهذا التعريف السوسيولوجي النموذجي بل سينطلق منه مباشرة ليعطينا مجموعة من التصنيفات النظرية والنماذج المثالية الممكنة الأخرى حول المدينة، وانطلاقا كما العادة من هاجس العقلنة والشرعنة، وانطلاقا من الشواهد التاريخية التي استطاع التعرف عليها وهي كثيرة كما أشرنا. وهكذا يتابع فيبر محاولته لتحديد معنى وطبيعة المدينة بإعطائنا ما يشبه التعاريف الفرعية التكميلية للمدينة: التعريف الإقتصادي، التعريف السياسي، والتعريف الإداري/ القانوني...

1 - أ. المدينة: كيان اقتصادي

منذ العنوان الفرعي الأول في هذا الفصل نلتقي بما يشبه المصادرة، ذلك أن فيبر يضع كعنوان لمحاولاته التعريفية: «**الطبيعة الإقتصادية للمدينة: تجمع سكاني تجاري**» (Agglomération marchande). ولذلك فالوظيفة الأولى والأساسية للمدينة وظيفة

12- *Ibidem*.

اقتصادية، إنها أولا وقبل كل شيء «**سوق دائم**» (Un marché permanent). يقول: «لا يمكننا الحديث عن «المدينة» بالمعنى الإقتصادي، إلا في المكان الذي يستطيع فيه السكان المقيمون تلبية الجزء الهام من حاجياتهم اليومية من السوق المحلي، وذلك من خلال المنتوجات التي يصنعها السكان المحليون أو سكان الضواحي المباشرة، أو المنتوجات التي اقتنوها ليعيدوا بيعها في السوق»[13].

إن ما يميز البادية صراحة عن المدينة هو أن هذه الأخيرة مكان لتبادل السلع والمنتوجات بشكل دائم من جهة، وأن أغلب هذه البضائعمن جهة أخرى هي من صنع أهلها، الذين يتعاطون لحرف معينة لا يتم تعاطيها في البادية. وإلى جانب ذلك لا يمكن حسب فيبر تشكل واستمرار السوق إلا في ظل شروط أمنية مرضية. وهذا ما حدا به إلى التمييز داخل التعريف الإقتصادي للمدينة بين نمطين اقتصاديين فرعيين هما: مدينة الإستهلاك، ومدينة الإنتاج.

إن مدينة الإستهلاك (أو المستهلكين) يمكن أن تكون مدينة الموظفين كما هو الشأن مثلا بالنسبة لمدينة بيكين في الصين القديمة. أو الملاكين الذين يعيشون من الريع العقاري كما كان الأمر في موسكو في عهد القياصرة، أو دور العائلات الأميرية الكبرى. إن ما يميز مدينة الإستهلاك هذه، هو أن السوق والحرف فيها منظمة فقط بحسب حاجيات السكان، الذين كانت قدراتهم الشرائية محددة إما برواتبهم أو دخلهم العقاري.

أما مدينة الإنتاج (أو المنتجين)، فهي إما مدينة صناعية وإما مدينة تجارية، كما كان الشأن بالنسبة للمدن الإيطالية في عصر النهضة. وهذا النوع من المدينة هو السائد في المدن الأوروبية اليوم

13- *Ibid*, p. 19.

والتي تحولت إلى مراكز لصناعات وحرف متعددة ومتجددة. وأهم ميزات هذا النوع من المدن هو نموها الديموغرافي المتسارع والمتواصل، والذي يساعد الصناعة وتساعده بدورها.

1- ب. المدينة: كيان سياسي

على المستوى السياسي يميز فيبر هنا أيضا بين نمطين فرعيين لا يحللهما بنفس التفصيل الذي حلل به النمطين الإقتصاديين. فهناك من جهة المدينة الأميرية (Ville-princière)، ومن جهة أخرى المدينة الحصن (La ville- forteresse). وإذا كان فيبر لا يركز كثيرا على هذا التصنيف، فلأنه يعتبر أن العامل الإقتصادي يعتبر في نفس درجة العامل السياسي، لأن مختلف الأنشطة الإقتصادية غالبا ما تكون في خدمة البلاط الأميري أو في خدمة الحصن العسكري. إن كل مدينة باعتبارها مقرا للسوق وللحامية العسكرية، فإنها تستدعي توفر الأمن التجاري من جهة والأمن العسكري من جهة أخرى، وهذا ما لا يتوفر إلا بتكريس نمط معين من التنظيم الإداري والقانوني.

1 - ج. المدينة: كيان إداري/قانوني

إن المدينة تشكل إلى جانب دورها الإقتصادي والسياسي مركزا إداريا، حيث يتواجد ممثلو الحكم المركزي، الذي يقنن مختلف الوظائف الأمنية والإقتصادية والسياسية والتشريعية. إن تجمعا سكانيا ما -كما يقول فيبر- «لكي يتحول إلى «مجموعة حضرية» (Communauté urbaine) بالمعنى الكامل للكلمة لا بد من أن يسيطر فيه الطابع الصناعي والتجاري ولو نسبيا على مختلف

الأنشطة الإقتصادية الأخرى وأن تتوفر فيه الخصائص التالية: 1- أسوار حامية، 2- سوق دائم، 3- محكمة خاصة، (ولو جزئيا) وقانون خاص، 4- أشكال مناسبة من الجمعيات والشراكات، 5- استقلال ذاتي ولو بشكل نسبي، وتكوين سلطة ذاتية (تسيير ذاتي) أي إدارة تشرف عليها سلطات عمومية تسير بمساهمة المواطنين المنتخبين»[14].

وهنا يلاحظ أن السمة الغائبة أكثر في المدن غير الأوروبية والشرقية بالخصوص هي انعدام إشراك ومشاركة المواطنين في تسيير أمور مدينتهم من خلال ممثليهم المنتخبين. وتلك هي الميزة الأساسية التي تتفوق بها المدينة الغربية على باقي مدن العالم في نظر فيبر. ولذلك يخصص الفصل الثاني من هذا الكتاب «للمدينة في الغرب» ليدرس نشأتها وخصائصها ومظاهر نشأة وسيادة العقلنة فيها.

تلكم محاولة سريعة لا ستعراض بعض التعاريف النموذجية للمدينة، كما صاغها وبناها ماكس فيبر. ولقد تطرقنا لها بالكثير من الإقتضاب والإختصار نظرا لأن غايتنا الأساسية في هذا الفصل هي تبيان كيف التقت السوسيولوجيا بالمدينة، وكيف حاول أحد مؤسسي السوسيولوجيا الحديثة فهم المدينة واختزالها في مجموعة من المفاهيم المستقاة من التاريخ ومن التجارب الحضرية لمختلف الحضارات الإنسانية. فما هي الخلاصات والملاحظات التي يمكن إثارة الإنتباه إليها في النهاية؟

إن كتاب فيبر حول المدينة يساعد -كما يقول جوليان فروند- على معرفة كيف يسعى هذا العالم إلى تطبيق وجهة نظره الإبستملوجية على ظواهر واقعية، وكذلك حدود نظرياته وأوجه ضعفها في بعض الأحيان. وهكذا وقفنا، ونحن نستعرض

14- *Ibid* p. 37.

سعيه لتعريف المدينة، على الطريقة الخاصة التي انتهى بها إلى بناء تصنيفه الخاص للمدن وذلك على أساس منهجية «النموذج المثالي». فمن الملاحظ أنه عمل على إبراز بعض السمات التي اختارها بشكل انفرادي. ولهذا يحرص على التذكير كلما دعت الضرورة لذلك إلى أن هذا البناء النظري غير واقعي بالضرورة وقد لا نعثر له على أي أثر في التاريخ. ولكن نجاعة المنهج مع ذلك لا تناقش «وبهذا الصدد فإن الفصل الأول من كتاب المدينة نموذج مثالي في حد ذاته[15]».

إن دراسة فيبر عن المدينة تندرج كما أسلفنا في إطار مشروعه الفكري المتكامل، و«التحليل الذي يقترحه علينا فيبر للمدينة ينخرط بشكل قوي في إطار تحليل للسلطة (...) فلا نعثر عنده على أي تحليل من النمط الأيكلوجي الذي عليه تأسست مدرسة شيكاغو، ولا أي تركيز على ظاهرة تقسيم العمل كما عند دوركهايم الذي كانت المدينة بالنسبة إليه هي مجال التضامن العضوي. ونبحث عنده أيضا وبدون جدوى عن ما شكل المسألة المركزية عند ماركس أي العلاقة بين التقسيم التقني والتقسيم الإجتماعي للعمل، باعتبار أن كل واحد منهما يحدد الآخر، حسب ماركس»[16]. إن فيبر لا يهتم بالمدينة في نهاية الأمر إلا باعتبارها مركزا لسلطة ما قد تكون عسكرية أواقتصادية أو سياسية، ونستشعر كما لو أن مجهوده كله يصب في اتجاه السعي إلى تفسير «كيف يمكن للمدينة أن تشكل مجالا لمشروع جماعي مسند من استراتيجية تتغيى التغيير الذي يعني سيطرة القاعدة على الحكم في نهاية المطاف[17].»

15- J. Freund, *péface, op, cit*, p. 9.
16- J. Rémy & L. Voyé, *op, cit*. p.225.
17- *Ibid*, p. 226.

ورغم سعيه إلى تنويع المقارنات والمعطيات التاريخية، فإننا يمكن أن نستشف أن ذلك كله يصب في اتجاه الغاية نفسها أي إبراز وتأكيد -كما هو الشأن في كل سوسيولوجيته- الأصالة المتميزة والفريدة للحضارة الأوروبية وللمدينة الغربية بالخصوص والتي عرفت وحدها نظام الجماعة **الحضرية المنتخبة** (النظام البلدي) **الذي يعني المدينة في أوج اشتغالها. إنها قمة العقلنة الحضرية** التي تنتهي بإندماج وانصهار كل العناصر البشرية مهما كانت أصولها الجغرافية أو مكاناتها الإجتماعية في المواطنة الحضرية. إن الحضارة الغربية هي التي اكتشفت وأبدعت المدينة!.

إن الإنتقادات وأوجه الضعف التي يمكن أن نسجلها على سوسيولوجيا المدينة عند فيبر والتي قد تنتهي بنا إلى اعتبارها متجاوزة اليوم، لا ينبغي أن تذهب بنا مع ذلك إلى حد نكران تاريخيتها. إن المجهود الذي قام به فيبر لا يمكن أن ينكر سواء في مجال السوسيولوجيا عموما أوفي مجال دراسة المدينة. «إنه يشكل -كما يقول جوليان فروند- إلى جانب جورج سيمل أحد علماء الإجتماع الذين عرفتهم بداية هذا القرن، والذين كان لهم فضل تدشين نمط جديد من التناول الفكري للظاهرة الحضرية، والتي ستصبح منذئذ موضوعا عاما للدراسات السوسيولوجية. إن علماء الإجتماع الأمريكيين قد اعترفوا بما يدينون به لكل واحد من هذين العالمين، وذلك بالرغم من كون اتجاهاتهما السوسيولوجية والبحثية مختلفة. ومهما يكن من أمر **فمن الصعب تجاهل مساهمتهما عند الكتابة عن المدينة اليوم**.»[18]

18- J. Freund, *op, cit*, p. 15.

الفصل الثالث

وثقافة المدينة الحديثة:
جورج سيمل

مع جورج سيمل (G. Simmel) (1858 - 1918) ستنتقل السوسيولوجيا من محاولة تعريف المدينة إلى تحليلها، ومن دراسة مدينة الماضي إلى دراسة مدينة الحاضر، ومن محاولة البحث عن أصالة وفرادة وتفوق مدينة غربية في التاريخ، إلى البحث والغوص في خبايا وثنايا المُعطى، وهو معطى ليس في حاجة إلى تعريف أو تأويل أو تنظير، إنه المدينة الكبرى التي فيها نَحْيَا، إنه برلين وباريس ولندن وروما وفيينا(...)، إن دراسة الواقع الحضري في هذه المدن من خلال العلاقة القائمة بين الشكل والمضمون فيها، لا تستدعي بالضرورة الإعتماد على مناهج أو تقنيات محددة، ولا اعتماد نظريات سوسيولوجية مسبقة، ولكن أساسا على القدرات الفكرية والإبداعية للباحث. إن الواقع المرئي «يتكلم» والحياة اليومية هي «المختبر» الذي منه ينبغي أن نستقي تحليلاتنا وإليه ينبغي أن تعود.

إن هذه الطريقة الجديدة في الكتابة السوسيولوجية، ستجعل من سيمل فيلسوفا سوسيولوجا أكثر منه باحثا اجتماعيا، إننا نلتقي في كتاباته بإرهاصات أولى لسميولوجيا المدينة، واستيتيقا المدينة، وسيكلوجياً المدينة. ولولا كونه انخرط في درس وتدريس السوسيولوجيا وكتاباته الإبستملوجية عنها، لما اعترف له البعض بسوسيولوجية اسهاماته بصدد المدينة أو بصدد المواضيع

العديدة الأخرى التي ابتدع التناول السوسيولوجي الفلسفي لها: مثل كتاباته المثيرة والغنية عن «فلسفة النقد» (Philosophie de l'argent) و«الفقير»، و«الغريب»، و«السر»، و«الثقافة»، و«الشكلانية السوسيولوجية» و«الفردانية»، وغيرها من المواضيع «الحداثية» بامتياز، والتي يختلط فيها التناول السوسيولوجي بالتناول الفلسفي. وهذا الإنتقال من موضوع لآخر كان متزامنا مع الإنتقال من اتجاه فكري وفلسفي لآخر فقد تقلب انتماؤه الفكري حسب جوليان فروند من «الوضعية» إلى «الداروينية» و«التطورية» إلى «البراجماتية» إلى «الكانطية الجديدة» إلى «البرغسونية الحدسية» إلى «الوجودية الفردانية». إن هذا التقلب جعل فكره يفتقد للوحدة والإنسجام[1]. ولا غرو أن يعلق دوركهايم على كتابات سيمل بقوله: «من الضروري السيطرة المنهجية على فعل التجريد وأن نميز بين الوقائع بحسب تحديداتها الطبيعية. وبدون ذلك فإن هذا التجريد سيتحول كليا إلى بناءات خيالية أو إلى أساطير فارغة.»[2]، ولهذا اتخذ دوركهايم من أفكار سيمل موقفا معارضا، واضحا، وسريعا، وكان ينتقد نزعته السيكلوجية المفرطة، وانغماسه في الفلسفة، وذلك ما يستشف من قراءة دوركهايم النقدية سنة 1900 لمقالة سيمل «السوسيولوجيا ومجالها العلمي» حيث انتهى إلى رفض نظرية الأشكال الإجتماعية، واعتبر ما يقوله سيمل عبارة عن «معارف عامة، توصل إليها بتسرع وغير

1- J. Freund, *Introduction à Sociologie et épistémologie de Georg Simmel*, éd. PUF, 1981, Paris, p. 11.

2- Pascal Amphoux & André Ducret, «L'étranger de Simmel» in : *Georg Simmel, Ville et modernité,* (sous la direction de J. Rémy) éd. L'Harmattan, 1995, Paris, p.133.

خاضعة لأية مراقبة.»[3]، والإختلاف بين دوركهايم وسيمل يتضح أكثر لما نتعرف على موضوع السوسيولوجيا عند هذا الأخير، وبهذا الصدد يقول مارك سانيول: «إن الموضوع الذي يخصصه سيمل للسوسيولوجيا من الغموض بمكان أي: أشكال الجمعنة»، كما أن السعي لتحديد هذا الموضوع عن طريق ما أسماه بالتجريد العلمي، يجعلنا أمام مهمة فلسفية، لدرجة لا نستطيع أن نحدد ما يمز هذه المقاربة الثانية عن أي فلسفة للعلوم الإجتماعية»[4]

إن العديد من الكتاب قد سجلوا، إلى جانب إعجابهم بالعمق النفاذ والإستشراف الإشراقي الذي تنفرد به آراء وأفكار سيمل، فقدانها في نفس الوقت «للعلمية» و«النسقية»، ولهذا -وربما تحت تأثير انتقادات دوركهايم- تجاهلت مختلف الأوساط الأكاديمية السوسيولوجية التقليدية ولفترة طويلة كتابات ج. سيمل وذلك إلى أن اكتشفه الأمريكيون وردوا إليه الكثير من الإعتبار. وسيجد فيه علماء الإجتماع الجدد (كميشيل مافيزولي مثلا) ومنظرو سوسيولوجيا «التفاعل الإجتماعي» مُلهما ورائدا جديدا. وإذا كان من الأكيد أن سيمل لم يخلف لنا صرحًا سوسيولوجيا متكاملا كما كان الشأن مع دوركهايم أو فيبر أو بارسونز أو غيرهم، فإنه لا أحد ينكر مع ذلك أنه «يعتبر أحد أكبر علماء الإجتماع الذين عرفتهم بداية هذا القرن، وهو الذي مازالت سوسيولوجيته تتمتع براهنيتها، كما يدل على ذلك الصدى الذي لا زال يحظى به في بلدان لها تقليد سوسيولوجي عريق[5]»، إن غياب النسقية والوحدة

3- J. Freund, *Introduction à Sociologie et épitémologie*, *op. Cit.* p. 8.

4- Marc Sagnol, «Le statut de la sociologie Chez Simmel et Durkheim», in: *Revue Française de Sociologie*, N° de Janvier/ Mars, 1987. p. 119.

5- *Ibid*, p. 78.

في كتاباته لا يعني أنها كانت «مهزوزة» أو «عبثية»، فأصالة أفكاره لا تناقش، وإضافاته لا تنكر. «ورغم أنه لم يكن زعيما لمدرسة، فإنه اقترح منهجية لمقاربة الظواهر الإجتماعية تهتم بالأساس بوصف ما يجري في الواقع»[6] وبالرغم من كونه لم يترك لنا نصوصا في المنهج كما فعل فيبر ودوركهايم إلا أنه «من الممكن أن نستخلص منهجيته الضمنية» من خلال ما كتب. لقد كان يكتب بنوع من «الإحتفالية»[7] (esthétisme) «وكان يسعى باستمرار إلى إلقاء الأضواء على الطابع «الإحتفالي» للحياة الإجتماعية، وحتى للوجود باختصار.»[8] والمفارقة الغريبة بالنسبة لسيمل أنه بقدر ما انتقده الأكاديميون القدامى بقدر ما يحتفي به الأكاديميون الجدد. والعودة إليه تزامنت مع العودة إلى مدرسة شيكاغو، وإلى نوع خاص من السوسيولوجيا كان هو نفسه من بين أهم الممهدين لها والذي يمكن أن نطلق عليها: السوسيولوجيا الفلسفية.

1- سيمل والمدينة في الوسط

لقد حاولنا في الفقرات السابقة الإشارة إلى بعض سمات سوسيولوجيا سيمل، وربما سيساعدنا تتبع وجهات نظره عن الحياة في «المدينة» على التعرف أكثر على جانب معين من ملامح فكره، وأسرار منهجيته. وتمهيدا لتناول أهم نص خلفه لنا عن المدينة

6- *Ibidem.*

7- ترجمنا كلمة (esthétisme) بالإحتفالية، عوض «الجمالية»، لأن ما يقصده الكتاب الذين استعملوا هذا التعبير لوصف طريقة سيمل في الكتابة والتأويل والتفكير، لا يشير إلى أية علاقة بعلم الجمال، أو «الجماليات» (l'esthétique)، وإنما للطابع الفلسفي، أو الميتافيزيقي، أو العجيب حتى، الذي يميز هذه الكتابة.

8- J. Freund, *op, cit*, p. 12.

والتحضر ونعني به مقالته عن «المدينة الكبرى والحياة الذهنية»، نرى من المفيد الإشارة إلى المناخ الفكري والمشهد الحضري اللذين عاصرهما سيمل.

لقد كان سيمل أحد أربعة علماء اجتماع عرفتهم ألمانيا مابين 1890 و1920، ونعني بهم: فرديناند تونيز (F.Tounes)، وماكس فيبر، وورنر سومبارت (R.Soumparte)، وجورج سيمل نفسه. ولقد اهتم هؤلاء الأربعة بالتغيرات الإجتماعية الكبرى التي فجرها التصنيع في ألمانيا وباقي الدول الأوروبية الأخرى التي كانت تشهد عملية الإنتقال السريع والمثير من الحياة القروية البسيطة إلى الحياة الحضرية المعقدة. ويعتبر ستيفان جوناس أن هؤلاء العلماء الأربعة «هم الذين ابتكروا فكرة المدينة الكبرى كمفهوم، إن الأمر يتعلق إذن بإبداع ألماني خالص (...) إنه المتربول الألمانية كمفهوم نموذجي / مثالي، وكنمط ثقافي، وأسلوب في الحياة، أي كظاهرة كبرى تمس منذئذ كل المجتمع وكل الحضارة. و سيندمج هذا المفهوم / المفتاح، وبسرعة، وعن طريق النقل، في كل شبكة المعرفة التكاملية الألمانية والأوروبية التي مستها ظاهرة المدن الكبرى»[9]. وستشكل ظاهرة التحضر التي واكبت التغيرات الإجتماعية المذكورة، محور اهتمام هؤلاء الكتاب، وسيتناولها كل واحد منهم بطريقته الخاصة. وسيركز على موضوع معين إما على البيروقراطية أو التحضر السريع أو التصنيع. وهذه الحساسية الألمانية الشديدة تجاه المدينة تفسر أيضا بقوة النمو الصناعي والحضري اللذين عرفتهما ألمانيا

9- Stéphane Jonas: «*La métropolisation de la société dans l'oeuvre de Georg Simmel*», contribution parue dans l'ouvrage collectif : «*Georg Simmel : Ville et Modernité*», *op. Cit.* p. 53.

في نهاية القرن التاسع عشر. وبينما كانت التيارات الفكرية السائدة في بريطانيا وفرنسا «تقدس» الحياة القروية وتعتبرها الأفضل، سينطلق سيمل في دراساته عن المدينة الكبرى متحررا من مثل هذه النظرة، بل سيكون أول من سيجعل من المدية الكبرى الحديثة موضوعا لدراساته، وسيعتبرها المجال الذي يستطيع فيه المجتمع التعبير عن نفسه بطريقة أشمل، والذي منه يمكن أن نستشف كل المنطق الذي فيه ومن خلاله يتحرك هذا المجتمع. ولهذا يقول عالم الإجتماع البريطاني نيسبت (Nisbet) في كتابه الشهير «التقليد السوسيولوجي»: «إن المدينة الكبرى تلعب في فكر سيمل الدور نفسه الذي تلعبه الديموقراطية عند طوكوفيل (Tocqueville)، والرأسمالية عند ماركس، والبيروقراطية عند ماكس فيبر»[10]. و في هذا السياق يمكن أن تندرج علاقته المعبرة مع مدينته برلين والتي يقول بصددها: «إن التطور الذي تعرفه برلين بانتقالها من مدينة كبرى إلى متربول في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر قد تصادف مع تطوري الفكري الأقوى والأشمل»[11]. إن مدينة برلين التي لعبت هذا الدور المزدوج بالنسبة لسيمل كانت تعرف بالفعل نموا حضريا مثيرا، فقد انتقل عدد سكانها من: (862. 000) نسمة سنة 1870، إلى: (1.776.000) نسمة سنة 1894؛ ومعايشة سيمل لهذا الإنفجار الحضري الهائل الذي حدث في ظرف 24 سنة، جعله يعتبر أن كل المجتمع أصبح يتشكل وفق هذا الإيقاع الحضري الجديد والفريد في تاريخ ألمانيا وأوروبا. بل سيعتبر أن

10- Jean Rémy, présentation des contributions à l'ouvrage collectif: *«Georg Simmel: Ville et modernité»*, *op, cit*. p. 7.

11- Cité par Stéphane Jonas, *op, cit*. p. 51.

مجموع المجتمع «سيتمترل» (Métropoliser) بدوره[12]. وما بين 1896 و1907 سيكتب سيمل أهم مقالاته عن المدينة، وسيبدأ بثلاث مقالات استتيقية عن المدن التاريخية الإيطالية الثلاث: عن روما سنة 1898، ثم عن فلورنسا سنة 1906، ثم عن البندقية سنة 1907. وفي نفس تلك الفترة أيضا أي في 1903 سيكتب مقالته السوسيولوجية الشهيرة «المتربول والحياة الذهنية»[13]. وهي المقالة التي يعتبر العديد من الكتاب أنها أسست لبدء الإهتمام السوسيولوجي الفعلي بالمدينة، ولهذا الإعتبار بالذات ارتأينا أن نخصها بتحليل مسهب، لأنها أولا هي أهم ما كتبه سيمل في هذا الصدد، ولأنها من جهة أخرى مارست تأثيرا واضحا في نشأة علم الإجتماع الحضري، ولا أدل على ذلك من تصدير «جوزيف اسحاق» (G. I) و«إيف جريفمايير»(I. G) لكتابهما الرائد في السوسيولوجيا الحضرية: «مدرسة شيكاغو»، بمقالتي سيمل

12- لقد عمل ستيفان جوناس على توضيح هذا المنحى في الفكر الحضري لسيمل. وما نود التطرق إليه هنا هو مسألة المفهوم، ذلك أن سيمل يميز كما أوردنا ذلك في قولته بين «المدينة الكبرى» (La grande ville) وبين «المتربول» (La métropole) ومن ثم جاء عنوان مقال جوناس المذكور (La métropolisation de la société) والذي لا تسعفنا العربية كثيرا في تعريبه أو ترجمته، ولذلك استعملنا تعبير «المدينة الكبرى» للإشارة إلى «المتربول» وحاولنا أداء المعنى المقصود من طرف جوناس واشتققنا فعل «مترل» بالنسبة ل: (métropoliser) ومصدره: «مترلة» بالنسبة ل: (métropolisation).

13- الواقع أن ترجمات هذا العنوان من الألمانية إلى الفرنسية تختلف من كاتب لآخر، فستيفان جوناس يترجمه ب: (Les Métropoles et la vie de l'esprit)، بينما يترجمه إسحاق جوزيف وفيليب فريتش في كتاب «مدرسة شيكاغو ب: (Métropoles et Mentalité) هذا في حين نجد مترجم نفس النص (فيليب آرون) في أنطلوجيا فرانسواز شواي «التحضير» ترجمه ب: (Les grandes villes et la vie de l'esprit) ويشير المترجم في تعليق بالهامش بأن هذا العنوان هو العنوان الذي وضعه سيمل (Titre de Simmel) وبالرغم من كل هذه التوضيحات فإن الغموض سيظل يلف هذه المسألة ما دمنا نجهل اللغة الأصلية للكلمة أي الألمانية، وما دمنا نعثر في نفس هذا النص على تعبير المدينة الكبرى للإشارة إلى المتربول حتى من طرف سيمل نفسه إن كانت الترجمات التي بين أيدينا سليمة ووفية.

«المتربول والذهنيات» و«استطرادات عن الغريب» (Digressions sur l'étranger). ورغم أن سيمل لاعلاقة له بهذه المدرسة لا من حيث الزمان ولا من حيث المكان، فقد اعتبره المؤلفان عن جدارة أحد روادها بلا منازع.

2- «المتربول والحياة الذهنية في الوسط»

يندرج تحليل سيمل للعلاقة بين المتربول والذهنية، في إطار ما يمكن التعبير عنه اليوم بالعلاقة بين **الثقافة والمجال**. ومنهج سيمل الشكلاني -الذي ستتأثر به مدرسة شيكاغو- يمهد لوجهة نظره الخاصة في تناول هذه العلاقة. إن الأشكال (Les formes) العامة التي تجري فيها الحياة الإجتماعية يمكنها لوحدها أن تمكننا من فهم محتوياتها. والأشكال كما يقول سيمل هي «التجليات المكرسة» (Configurations cristallisées). وهذا التكريس يعني أنها أصبحت مستقلة عن الفعل أو الذات المؤسسة لها، ولكنها في نفس الوقت وحتى وهي تعيش من خلال منطقها الخاص بها فإنها تجد نفسها في تعارض وتناقض مع الكائن الذي هيأ نشأتها ووجودها[14]. وهذا ما يلتقي مع المفهوم الماركسي للإستيلاب. فالأشياء التي يصنعها الإنسان تصبح في لحظة من اللحظات مستقلة عنه وغريبة أيضا، وتعيش من دونه، وتنتهي بممارسة التأثير عليه أو التحكم في أفعاله. وهذا ما يشير إليه سيمل بتعبير لا يقل بلاغة هو «**تراجيديا الثقافة**»، حيث يقول: «تلك هي تراجيديا الثقافة (...). فمفهوم الثقافة يفيد أن الذهن هو الذي يخلق الأشكال الموضوعية المستقلة والتي من خلالها يمر طريق الذات التي تذهب من نفسها لنفسها؛ وهكذا فإن العنصر المُدمج والذي يكيف الثقافة قد أصبح بدوره

14- J. Freund, *Introduction, op, cit.* p. 41

محددا سلفا بتطور خاص يستعمل ومن دون شك دوما قوى الذوات الفردية، ويجرها إلى مجراه»[15]. وهكذا ينتهي الإنسان إلى أن يجد نفسه محاطا بمجموعة من الأشكال والعناصر الثقافية التي لا يمكنه رفضها أو الهروب منها، كما أنه لا يمكنه أن يطوعها أو يتملكها، ومن المفروض عليه التعايش معها إن هو أراد البقاء والإستمرار في الحياة. وتلك هي تراجيديا الثقافة التي تجد جذورها في عزلة مزدوجة: عزلة الأشكال الموضوعية والمستقلة من جهة وعزلة الحياة الذاتية للأفراد من جهة أخرى[16]. وهذا ما يصدق على المدينة الكبرى اليوم، باعتبارها الشكل / الثقافة اللذين يعيش فيهما الكائن الإجتماعي واللذين يصنعان منه في نهاية الأمر إنسانا من نوع جديد هو الإنسان المتربولي.

يمكن إجمال خصائص الحياة المتربولية في مايمكن أن نعتبره تعاريف سيمل السوسيولوجية للمدينة على الشكل التالي:

1 - المتربول هو مجال «الإستقلال الفردي».

2 - المتربول هو مجال «أولوية العقل على العاطفة».

3 - المتربول هو مجال «سيادة العقل التجريدي».

4 - المتربول هو مجال «سيادة العقل الحسابي».

5 - المتربول هو مجال «إنتاج السأم».

6 - المتربول هو مجال «العقل الحذر» (العقلية المتحفظة).

7 - المتربول هو مجال «الحرية الممنوحة للأفراد».

8 - المتربول هو مجال «تحقق الكونية».

9 - المتربول هو مجال «الفردنة والعقلنة».

10 - المتربول هو مجال «ثقافة الموضوع». (الثقافة الموضوعية).

15- Freund, *Ibid*, p. 46.
16- *Ibidem*.

11 - المتربول هي مجال «التقسيم الأكبر للعمل».

تلكم هي العناوين الفرعية التي يمكن وضعها للفقرات التي يتكون منها مقال «المتربول والحياة الذهنية»، وإذا ما تأملنا هذه العناوين يمكن ان نعتبرها إما تعاريف سوسيولوجية للمدينة، أو بعض خصائص الحياة المتربولية، وعلى كل حال فإن هذه العناوين تحيلنا من جهة إلى مواضيع كانت مشتركة بين سيمل ومعاصريه من العلماء كفيبر (العقلنة)، ودوركهايم (تقسيم العمل، والحريةالفردية، والأنومي)، وطونيز (F.Tonnes) (مسألة الفروق بين ثقافة المجتمع المحلي والمجتمع الكلي). إلا أن ما يستنتج من كتابات سيمل وما يشكل تميزها هو إقرانها للحياة المتربولية بهذه الخصائص كلها مجتمعة، وفي الوقت نفسه تضمنها العديد من الإضاءات الجديدة، والتحاليل الطريفة والعميقة معا.

يعتبر المتربول بالنسبة لسيمل مجال الإقتصاد النقدي، ونظرا لكون النقد هو أعلى درجات التجريد والعقلنة والفردنة والإتصال في المجتمع ، فإن ثقافة النقد السائدة في المدينة تجعل أهلها يتطبعون بالضرورة بطبائع تلك الثقافة. ويتحولون من مجرد كائنات طبيعية (تعيش على الطبيعة) إلى كائنات فكرية (تعيش على العقل)، وإلى كائنات تسعى باستمرار إلى تأكيد استقلالها الذاتي عن الطبيعة وعن الآخرين، والجملة الأولى في المقال بليغة بهذا الصدد: «إن المشاكل الأكثر خطورة في الحياة العصرية مصدرها تطلع الفرد إلى الحفاظ على استقلاليته وأصالة وجوده في مواجهة القوى الضاغطة في المجتمع ، والإرث التاريخي، والثقافة، والتقنيات، الخارجية بالنسبة له: وهنا يتجلى الشكل الأخير من الصراع الذي خاضه الإنسان البدائي ضد الطبيعة من أجل الحفاظ على وجوده

الفيزيقي»[17]. إن سيرورة العقلنة في المجتمع، وسريانها فيه، تلتقي مع سعي الفرد للحفاظ على تميزه وفرادته في مواجهة قوى التسوية الإجتماعية (Nivellement social) التي تبرز في المجتمع الحضري وتعتبر من بقايا ورواسب النظام القروي التقليدي. والأساس السوسيولوجي الذي ينبني عليه نمط الشخصية الحضرية يتجلى في ما يسميه سيمل «انتشار وتكثيف الحياة العصبية» (L'intensification de la vie nerveuse) نتيجة الشحن المستمر من الخارج والداخل للفرد الحضري بمواقف وهواجس وانطباعات متلاحقة ومتضاربة ومباغتة. «إنه الإنسان المديني الذي يجد نفسه مجبرا على التمظهر بمظاهر شخصية متعددة، ويعمد إلى خلق نظام خاص به لحماية نفسه ضد الإجتثاث الذي تهدده به سيولة وتناقضات الوسط المحيط به. ولذلك لا تعتمد ردود فعله على العاطفة وإنما على العقل»[18]. والإعتماد على العقل يؤدي إلى التجريد، وإلى اعتماد الحساب العقلاني في كل التعاملات مع الآخرين. وهذه العقلية الحسابية تؤكدها «رمزية الساعة» فالساعات التي نجدها منتشرة في كل ساحات وزوايا المدن الأوروبية الكبرى هي هناك لتذكرنا بأن «الفكر الحديث أصبح أكثر فأكثر فكرا حسابيا، وانطلاقا من نموذج العلم الطبيعي الذي يطمح إلى تحويل العالم إلى سلسلة من القواعد الجبرية، كذلك هي الدقة المطلوبة في الحياة العملية كما صاغها الإقتصاد النقدي، إنها هي التي تجعلنا أمام هذا الكم الهائل من الناس الذين يقضون كامل يومهم في الوزن والتقدير والحساب والترقيم، واختزال القيم الكيفية في قيم كمية»[19].

17- Georg Simmel, «Les grandes villes et la vie de l'esprit», in: F.Choay, *L'ubanisme, Utopies et réalités,* col. Points, éd. Seuil, Paris , 1965, p. 409.

18- *Ibid*, p. 411.

19- *Ibid*, p. 412.

وهذه العقلية الحسابية هي التي تجعل العلاقات الإنسانية في المدينة علاقات جافة ولاشخصية (impersonnelles). ومن ثمة ظهور العقلية التحفظية والحذرة، التي تميز سلوك ومواقف الإنسان المديني تجاه الآخرين. إنه لا يعرفهم ولا يعرفونه، ويتجاهلهم كما يتجاهلونه، إن كل واحد يتصرف كما لو كان يشكل عالما خاصا بنفسه لوحده. ومن ثم الشعور بالوحدة والسأم والقرف النا تج عن هذا المجتمع النقدي والحسابي.

إن المقابل الذي يمكن ان يجنيه الإنسان المديني من هذه الوضعية هو تمتعه بالمزيد من الحريات مقارنة مع الإنسان القروي «إن المدن الكبرى تمنح للفرد شكلا وقدرا من الحرية لا مثيل له في أي مجال آخر.»[20] وهذه الحرية التي يتمتع بها الفرد تجاه الآخرين، هي نتيجة للحجم الكبير للمدينة، إن القرب الفيزيقي الذي يعيش فيه الناس في المدينة الكبرى، يجعلنا نقف بشكل مفارق ومثير على اتساع المسافة الروحية بين الأفراد. ومن ثمة الشعور بالوحدة والعزلة في المدينة الكبرى، وظهور وتطور مفهوم الهوية المجهولة (l'anonymat) «هذا المفهوم الذي أثر في العشرينيات من هذا القرن، وفي كل السوسيولوجيا الحضرية التي أنتجها لويس وورث (Louis Wirth) ومدرسة شيكاغو»[21].

هل الحرية المتربولية حرية فعلية بالنسبة للفرد؟

إن ما يتحرر في الفرد ليس شخصيته وإنما «ذاتيته المفرطة في التشخصن» على حد تعبير ستيفان جوناس (S'. Jonas)، «إن الفرد يجد صعوبة كبرى في إبراز شخصيته الخاصة في إطار المدينة

20- *Ibid*, p. 415.

21- S. Jonas, *op, cit*. p. 58.

إن محاولة استعراض آراء سيمل الواردة في مقالة «المتربول والحياة الذهنية» من خلال تلخيصها ومحاولة التركيب بين أجزائها، واستخراج أبرز وأهم مضامينها، قد جعلنا نقف على مقاربة جديدة كل الجدة في تناول موضوع المدينة الكبرى. ولقد تبين لنا أن هذا النص هو نص من الكثافة والغنى بحيث يضعنا في كل فقرة من فقراته أمام سيل لا ينتهي من الإشارات والإيحاءات والتأملات والتعابير التي لا تخلو من «تفلسف». وهو تفلسف مقبول في نظرنا لأن صاحبه يسعى للبرهنة على صدق وواقعية آرائه من خلال العودة بنا إلى الواقع المعيش المليء بالألغاز والوقائع الغامضة، والتي نغض الطرف عنها إما لأننا لا نفهمها أو ألفناها هكذا بفعل العادة والتكرار. لذلك لا نعدم أن نلحظ في اجتهادات سيمل وفكره الإنتقال المستمر والمنطقي والمنهجي من السوسيولوجيا إلى الإبستملوجيا إلى الأنطلوجيا إلى السيكلوجيا. وربما هذا ما ذهب ببعض الكتاب إلى اعتبار أن صدر السوسيولوجيا لا يتسع لمثل هذا النمط من الإشتغال الفكري واعتبروا أن كتابات سيمل تسعى سعيا إلى ما اعتبروه تعقيدا زائدا أو ضربا من الإستطرادات غير المنسجمة. ومثل هذا الموقف هو ماذهب بريمون آرون إلى حد القول: «من المستحيل تحليل سوسيولوجيا سيمل (...) إن تحليلاته ما تلبث حتى تنزلق إلى ميدان علم النفس الإجتماعي، والفلسفة»[26].

إن ما يمكن استخلاصه من هذا الفكر المتوثب والمتطلع للجدة والتحديث. هوأن ما أشار إليه سيمل بتعابير أو تراكيب أو مفاهيم معينة هو نفسه أو بعضه ما أشار إليه معاصروه الآخرون بتعابير

26- Raymond Aron, *La sociologie allemande contemporaine*, éd. PUF, Paris, 1981, p.7.

ومفاهيم أخرى لما وجدوا أنفسهم أمام ظاهرة التحضر السريع الذي نشأت عنه المدينة الكبرى وأصبحت أحجامها وظواهرها وتأثيراتها تشمل كل الحياة الإنسانية الحديثة. والإضافة الكبرى لسيمل بالمقارنة مع علماء الإجتماع الآخرين هو سبقه للقول وبصراحة ووضوح أن هذه المدينة الكبرى اليوم وفي المستقبل تشكل وستظل تشكل المتغير المستقل المحدد لباقي المتغيرات الإجتماعية الأخرى. إن المجتمات الحديثة تتجه كلها وعلى الصعيد الكوني ويوما بعد يوم في اتجاه «المترلة الشاملة للحياة الإجتماعية» أي أن حياة الإنسان الحديث أصبحت محددة بحسب إيقاع حياة المدينة الكبرى. وفي «فلسفة النقد» يشير سيمل إلى مثل هذا المصير لما يقول: «يمكننا أن نصور تطور كل المصير الإنساني كتناوب منتظم بين الاتصال والإنفصال، بين الإلتزامات والتحررات»[27].

هل الحياة الإنسانية كلها موسومة ومحكومة بهذا النوع من الثقافة؟

إن علماء الإجتماع الذين عرفتهم نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين قد عاشوا حالة نشوء وتضخم وانتشار المدن الكبرى ولذلك فتأثيرها في كتاباتهم كان واضحا. ولكن ما ينبغي الإشارة إليه هو أنهم جميعا كانوا يلتقون في اعتبار التركز المستمر والكبير للسكان في هذه النقط المجالية الضيقة التي أصبحت هي المدن الكبرى والمتربولات الحديثة، كان يعبر دائما عن شيئين بدا أنهما متلازمين بشكل حتمي، فهناك من جهة الإتجاه الحتمي للتاريخ وهو اتجاه نحو المزيد من الرقي الحضاري و«التقدم الإجتماعي» للإنسان بفضل عمل الإنسان. ولذلك فمزايا المدينة

27- Cité par Stéphane Jonas, *op, cit.* p. 55.

والتحضر لايمكن أن تنكر، إن المدينة هي مجال الحريات الفردية الأوسع، ومجال مستوى العيش الأحسن، ومجال الإتصال والتواصل الأمثل، ومجال الإبداع العلمي والفكري والفلسفي والفني. ولكن هذه المدينة نفسها ومن جهة أخرى وفي نفس الوقت هي مجال المعدلات العليا للإنتحار والحمق والجريمة والإنحراف الإجتماعي بمختلف أشكاله. إن هذه الإزدواجية هي ما يطبع سوسيولوجيا بداية القرن الماضي كلها و هي أيضا ما يطبع سوسيولوجيا المدينة وما يطبع كل سوسيولوجيا سيمل، التي يقول عنها ريمون آرون: «إن سوسيولوجيا سيمل تنم عن تناقض مزدوج، فهناك من جهة اتجاه إلى النووية ثم المجموعات، ومن جهة أخرى اتجاه إلى الفردانية ثم نظام الجماهير»[28]. إن المدينة ذات الوجهين كما وصفها سيمل هي نفسها المدينة كما نراها اليوم وكما كانت بالأمس وكما ستبقى في الغد. هل نخطأ إذن لو قلنا بأن سيمل هو مؤسس السوسيولوجيا الحضرية؟

لنعطيه الكلمة في الأخير: «إن المتربول هو إحدى أكبر المبتكرات التاريخية حيث تظهر وتلتقي التيارات المتناقضة. ومع ذلك فإن سيرورة تيارات الوجود هذه -سواء أثارت ظواهرها فينا أحاسيس التعاطف أو الكره- فهي تتعالى كليا عن الميدان الذي يمكن أن يكون فيه موقف الحكم لائقا. وبما أن مثل هذه القوى الحياتية هي في نفس الوقت جذع وقمة الحياة التاريخية التي لسنا فيها نحن من خلال وجودنا العابر سوى ذرة أو جزء بسيط، فليس من حقنا إذن لا أن نتهم أو نصفح، ولكن أن نفهم فحسب»[29].

28- Raymond Aron , *op, cit*. p.8.
29- Cité in : S. Jonas, *op, cit.*, p. 59.

إن هذه السوسيولوجيا الفلسفية ستجد لها أصداء واسعة، سواء عند المعاصرين أو عند اللاحقين من علماء اجتماع المدينة. وستكون تلك الأصداء أكبر وأقوى مع رواد مدرسة شيكاغو وخصوصا مع مؤسسها روبرت بارك الذي انتقل إلى ألمانيا حيث تتبع دروس جورج سيمل في جامعات برلين ووينדلباند ثم ستراسبورغ وسيتوج علاقته الحميمية مع سيمل بتهييء ومناقشة أطروحته للدكتوراة سنة 1903 في موضوع لا يبتعد كثيرا عن اهتمامات سيمل ويبدو شديد الطرافة في عهده، وهو موضوع «الإشهار والجمهور». ولذلك لا ينبغي أن نستغرب لما نلمس فيما بعد بصمات وحضور سيمل في كل كتابات بارك وبالخصوص عند تلميذه لويس وورث الذي يمكن القول، إن مقالته الشهيرة «التحضر كنمط عيش» ليست سوى تجميع وتنظيم وتنسيق لأهم آراء سيمل في المقالة التي شكلت محور حديثنا السابق. وبالإضافة إلى ذلك يمكن أن نذكر هنا بأن جورج سيمل يعتبر إلى جانب جورج هربرت ميد (G. H. Mead) من الممهدين المباشرين الأساسيين لظهور تيار التفاعلية الرمزية (Interactionnisme symbolique) الذي أصبح منذ منتصف الستينيات من القرن الماضي بالخصوص يستقطب علماء الإجتماع الذين يهتمون بسوسيولوجيا الإتصال والحياة اليومية، وبالخصوص تيار الإثنمتودولوجيا (L'ethnométhodologie) الذي عرف أوج ازدهاره مع علماء الإجتماع الأمريكيين المحدثين وبالخصوص كوفمان (E. Goffman) وكارفينكل (Garfinkel). وذلك ما سنعمل على محاولة التطرق إليه ببعض التفصيل عند تناولنا لمدرسة شيكاغو وامتداداتها.

القسم الثاني

حول نشأة مدرسة شيكاغو

تقديم

يمكن القول بأن علم الاجتماع الحضري قد استطاع تحويل «المدينة» إلى موضوع سوسيولوجي مع مدرسة شيكاغو، بل إن اسم هذه المدرسة ارتبط في علم الاجتماع بالمدينة وعرف رودها الأوائل بكتاباتهم الحضرية والمنهجية أكثر مما عرفوا بأي شيء آخر.

وإذا كان علم الاجتماع -كعلم مستقل ذي موضوع خاص به- قد ظهر في القرن التاسع عشر في خضم التحولات الاجتماعية الهائلة التي عرفتها أوروبا بعد الثورات الثلاث الكبرى: العلمية والصناعية والسياسية، وما رافق وتلا هذه الثورات من مشاكل وصراعات نتيجة للتغيرات البنيوية العميقة التي مست كل قطاعات المجتمع، فإنه يمكن القول أيضا أن الإرهاصات الأولى لعلم الاجتماع الحضري قد تشكلت أول ما تشكلت في الفترة ذاتها ومع الرواد الأوائل لعلم الإجتماع ككارل ماركس وإميل دوركهايم وماكس فيبر وجورج سيمل، على نحو ما حاولنا توضيحه في الفصول السابقة. والسبب في الأهمية التي بدأت تكتسيها المدينة يرجع بالأساس للمشاكل الناجمة عن الثورة الحضرية التي عرفتها أوروبا آنذاك، والتي تمثلت أساسا في النمو الحضري السريع. وفي بداية القرن العشرين وكامتداد لبدايات الاهتمام السوسيولوجي بالمدينة سيظهر أول ما يمكن أن نطلق

عليه نعت مدرسة سوسيولوجية، يتفق كل مؤرخي علم الإجتماع اليوم على تسميتها: «مدرسة شيكاغو». وسيولي العلماء الذين كان لهم فضل تأسيسها اهتماما كبيرا لظاهرة التحضر وسيتمكنون من خلال دراساتهم وأبحاثهم حول مختلف الظواهر الحضرية وضع الأسس الممهدة لظهور فروع السوسيولوجيا الأخرى (سوسيولوجيا العائلة، الإجرام، العلاقات العرقية، الاتصال، الرأي العام، السياسة، الشغل، الأمراض الإجتماعية وأيضا مختلف المشاكل الإجتماعية المصاحبة لعملية التغير الإجتماعي)، ولذلك يمكننا القول بأن كل هذه الفروع تجد في تراث مدرسة شيكاغو بعض جذورها الأولى، ومن ثم يتضح تأثير هذه المدرسة في كل فروع السوسيولوجيا عموما.

وإذا كانت هذه المدرسة قد أثرت في كل التراث السوسيولوجي اللاحق، فإنها قد تأثرت بدورها عند نشأتها بكل التراث السوسيولوجي السابق عليها. وسيكون من الصعب بالنسبة لنا في هذا القسم التطرق لكل رواد وآراء واتجاهات وامتدادات هذه المدرسة، ولذلك سنقتصر على إسهامات ثلاثة من روادها، نعتقد أنه كان لآرائهم واجتهاداتهم دور كبير في ظهور وتطور الحقل العلمي الذي تدخل في إطاره هذه الدراسة ونعني به ما نقترح تسميته «سوسيولوجيا التحضر والهجرة». وهؤلاء الرواد الثلاثة هم: وليام طوماس (W. I. Thomas)، وروبرت بارك (R. Park)، ثم لويس وورث (Louis Witth)، على أن نمهد لذلك باستعراض الظروف والعوامل التي ساعدت على ظهور وتطور هذه المدرسة.

الفصل الرابع

مدرسة شيكاغو: هل هي مدرسة؟

لايمكن أن تثار مسألة المنهج السوسيولوجي أو السوسيولوجيا الحضرية اليوم دون أن يثار اسم «مدرسة شيكاغو». فما هي هذه المدرسة؟ وكيف نشأت وعلى يد من؟

من الأمور التي يبدو من المفيد إثارتها أولا: مسألة التسمية نفسها؟ ذلك أن هناك من الكتاب وإلى اليوم من يشكك في وجود مدرسة بهذا الإسم[1]. ولكن وبالرغم من كل الآراء المخالفة، فإن مدرسة شيكاغو قد ترسخت وبهذا الإسم حتى عند المجادلين في حقيقة وجودها أو حقيقة توفر الوحدة والانسجام الفكريين اللذين يبرران هذا الوجود. ولا يمكن أن نجد اليوم كتابا في تاريخ أو مناهج السوسيولوجيا، لا يخصص حيزا وافرا من صفحاته لاستعراض آراء ومساهمات رواد هذه المدرسة في نشأة علم الاجتماع الحديث. وبالخصوص نشأة السوسيولوجيا الإمبريقية التي تنطلق من الميدان في دراساتها وأبحاثها.

إن تعبير «مدرسة» يعني في الغالب، حسب جون ميشيل برطلو (J.M. Berthelot)، «تجمعا داخل نفس المعهد الجامعي

1- يمكن الإشارة هنا إلى مقال دانييل بريسلو الذي يورد فيه العديد من وجهات النظر التي تنازع في وجود مدرسة سويولوجية بهذا الإسم:

- D. Breslau, «l'Ecole de Chicago existe-t-elle?», in: *Actes de la recherche en sciences sociales*, N° 74, 1988.

لعلماء اجتماع يتبنون ويمارسون على امتداد فترة تاريخية كافية، ومن منظور تحريري قوي (avec une visibilité éditoriale forte) أسلوبا مشتركا من السوسيولوجيا، أو الذين ينطلقون من التزام فلسفي مشترك»[2] ويعترف «برطلو» لمدرسة شيكاغو بتحقق ذلك بالنسبة لها، ولذلك يضيف: «وذلك ما ينطبق على ما تم التوافق على تسميته مدرسة فرنكفورت، ومدرسة شيكاغو، وأيضا وإلى حد ما ما يسمى مدرسة كولومبيا»[3]، وانطلاقا من هذا المعيار تستحق «مدرسة شيكاغو» هذه التسمية «لأنها كانت مجالا وإطارا «تم فيه بناء السوسيولوجيا»، انطلاقا من تصور فلسفي معين (البراغماتية، والفينومينولوجيا)، ومن التزام منهجي واضح.

ويرى جون ميشيل شابولي (J. M. Chapoulie) في كتاب توثيقي كثيف أن ما يسمى «مدرسة شيكاغو» هو محض تواضع واتفاق، ولذلك عنون الكتاب الذي خصصه لهذه المدرسة وروادها: «التقليد السوسيولوجي لشيكاغو» (La tradition sociologique de Chicago) وهو ينطلق في ذلك من اعتقاد مفاده أن أهم ما يميز هذا التقليد عكس ما يمكن أن يتصوره البعض هو عدم انسجام أفكار العلماء الذين يحسبون على هذا التيار، يقول: «إن مريدي «مدرسة شيكاغو» وكذا المعجبين بها سيحزنون من دون شك لما سيكتشفون غياب تلك الوحدة الفكرية التي ينتظرونها في أعمال أصحاب هذا التقليد. إن مثل تلك الوحدة لا يمكن الدفاع عنها إلا مقابل تقليص متن تلك

2- J. M. Berthelot, *La construction de la sociologie*, Q.s.je ?, PUF, Paris, 1991, p. 62.

3- *Ibidem.*

الأعمال، هذا في الوقت الذي تقتضي ضرورات الفهم التاريخي على العكس من ذلك توسيع ذلك المتن».[4]

وبصدد مسألة التسمية يمكن القول وببساطة مع آلان كولون (A. Coulon) «أننا نعني عادة بتعبير «مدرسة شيكاغو» مجموعة من أعمال البحث التي أنجزت ما بين 1915 و1940 من طرف أساتذة وطلبة جامعة شيكاغو»[5].

ومسألة التسمية ومن أطلقها أول مرة على هذه الأعمال ظلت أيضا مثار الكثير من الجدل. وبهذا الصدد يقول الكاتب نفسه: «إن هذا التعبير قد استعمل أول مرة سنة 1930 وبالتحديد من طرف ليتر برنار (Luther Bernard) في سياق استعراضه لمختلف المدارس السوسيولوجية الموجودة»[6]. وهذه التسمية التي ترسخت اليوم ربما تكون غير دقيقة، لأن العلماء الذين ننصبهم اليوم روادا لهذه المدرسة لم يخطر ببالهم تأسيس مدرسة، أو حتى الانخراط في اتجاه نظري موحد، ولذلك يقول جان بينيف (Jean Peneff) «من الواضح أن لا شيء في أبحاثهم العملية أو في منظورهم للحياة العلمية، أو في تنظيمهم لقسم علم الاجتماع يبرر إضفاء صفة مدرسة عليهم. إن هؤلاء العلماء لم يعرفوا في حياتهم هذه التسمية وكانوا سينبذونها بصرامة لو اقترحت عليهم، لأنهم كانوا يرفضون (-) أن الانغلاق تحت أي معتقد أو تسمية، بل كانوا يتبنون مشروعا مفتوحا ومتعدد الأبعاد، وبراغماتيا جدا، وخارجا عن التنميط الأكاديمي السائد».[7]

4- J. M. Chapoulie, *La tradition sociologique de Chicago,* éd. Seuil, Paris, 2001, p 19.

5- A. Coulon, *L'Ecole de Chicago*, ed. PUF, col. Q.s.je? N° 2639, 1992, p.3.

6- *Ibidem.*

7- J. Peneff, *La méthode biographique, de l'Ecole de Chicago à l'histoire orale*, éd. A. Colin, Paris, 1990, p. 36.

إن الجدل الدائر بين مؤرخي علم الإجتماع الحديث حول هذه المدرسة يثير فضول الباحث، ويجعله يتساءل: كيف أصبحت هذه «المجموعة من الأبحاث والعلماء» موضوعا لكل هذا النقاش والجدال ولماذا؟ وما هي المقومات أو الركائز التي يمكن أم نعتمد عليها لتصنيف مجموعة من الباحثين في إطار مدرسة معينة، وما الذي يجعلنا في نهاية المطاف نطلق عليهم هذه التسمية؟ هل الأمر يتعلق فقط بمكان التواجد (جامعة شيكاغو) أم إنه يتعدى ذلك إلى وحدة في الخط المنهجي أو النظري للعلماء الذين نصنفهم في إطار هذه المدرسة؟ إن الرأي السائد بين أغلبية الدارسين هو أن ما يجمع هؤلاء العلماء الذين ندرجهم في لائحة المنتمين لمدرسة شيكاغو هو ضرب من «الإتفاق المنهجي» لا النظري. ويرى مارتين بلومر (M. Blumer) الذي يعتبر من بين أبرز وأول من خص هذه المدرسة بمؤلف مستقل[8]: «إن مدرسة شيكاغو لا تشكل نوعا خاصا من السوسيولوجيا، ولكنها اعتبرت إطارا مؤسساتيا فحسب»[9]. وينتهي بلومر إلى أن السبب الجوهري الذي دفع الباحثين إلى الاعتراف بالوجود المستقل لهذه المدرسة هو انطلاق كل أفرادها من مبدإ «الإلتزام بالبحث الأمبريقي». وهذا الالتزام المشترك بين مختلف المنتمين لهذه المدرسة أو المحسوبين عليها هو بالفعل ما يشكل وحدتها. ويرى هاوورد بيكر (H. Becker) وهو من أبرز من يشكل الإمتداد المنهجي لهذه المدرسة من علماء الإجتماع المعاصرين، وخصوصا من خلال مؤلفه الشهير «المهمشون» (Outsiders) «أن» النجاح الذي عرفته هذه المدرسة يرجع أكثر إلى

8- M. Blumer, *The Chicago school of sociologie*, Chicago university press, 1948, (cité par D. Bersau, *Op. cit.*)

9- *Ibidem.*

نشر أبحاث ونتائج أكثر مما يرجع إلى بناءات نظرية (...) وأخيرا -يضيف الكاتب نفسه- فإن مدرسة شيكاغو لم تكن أبدا «مدرسة فكرية» موحدة، وإنما بالأحرى مجالا لتقاسم الأفكار بين باحثين من مختلف الأجيال، لقد كانت «مدرسة عمل» مكلفة بتكوين علماء الإجتماع الجدد، والتي كان يتعاون فيها مجموعة من الباحثين. وهكذا فإن مدرسة شيكاغو تمثل «أسطورة» أكثر مما هي واقع، إنها لا تشكل وحدة بالفعل»[10]. ويقول بيكر أيضا في مكان آخر: «إن أعمال مدرسة شيكاغو عبارة عن فسيفساء، حيث تساهم كل لبنة في بناء وتشكيل الكل، ومن ثمة تساهم في تحديد الخلفية المرجعية للآخرين»[11]. ويكرر بيكر رأيه في مكان آخر من خلال قوله «إن لويس وورث» الذي عاصر كلا من هيوك (Hughes) وبلومر (Blumer) والذي كان مثلهما أحد طلبة روبرت بارك (Park) والذي كان بإمكانه أن يدعي كونه وريثا لتقليد شيكاغو، لم يتردد في القول مرارا بأنه لم يكن يدري ما يقصده البعض بتعبير «مدرسة شيكاغو» لأنه لم يكن يلمس أي وجود لفكر أو طريقة بحث تجمعه مع زملائه. وكل من تواجد مثلي في قسم علم الاجتماع بجامعة شيكاغو في تلك الفترة في سنوات الأربعينيات والخمسينيات لا يمكنه أن يتجاهل الاختلافات الكبرى في طرق البحث والتي

10- قدم هاورت بيكر هذه الآراء في إطار ندوة دولية حول «مدرسة شيكاغو» نظمها مختبر برينتون (Printetmps) في جامعة فيرساي سان كونتان أون إيفلين (Université de Versailles-Saint Quentin en Yvelines) بفرنسا سنة 1998. ويعتبر عقد هذه الندوة عن هذه المدرسة وفي هذا التاريخ بالضبط دليل على عودة الإهتمام المتزايد بها. ولقد نشرت ملخصات للمداخلات الهامة التي عرفتها هذه الندوة في:

- Cellule GRIS, N° 4, Septembre 1998, édité par le Département de Sociologie, Université de Rouen, France.

11- U. Hannerz *Explorer la ville* (Trad. Française et présentation par I. Joseph) éd. Minuit, Paris, 1983, p. 78.

كانت تفرق بين أساتذة هذا القسم».[12] ولا يختلف رأي دانييل بيرطو(D. Bertaux) بهذا الصدد عن رأي غيره من الكتاب حيث يقول: «إن مدرسة شيكاغو الأولى قد تكرست حوالي سنة 1918 وذلك بالنظر للأهمية التي أُعطيت للعمل الميداني. وستتمكن عدة فروع من النمو والابتعاد لاحقا عن النواة المشتركة (...) ولكنها كلها احتفظت بخاصية مشتركة هي احترام الميدان (الملاحظات المباشرة، والمشاركة، وهذا لا يلغي أهمية الإحصاء)(...)، ونظرا لتأثرها البالغ بالبنيوية، فإن السوسيولوجيا الفرنسية، ظلت وإلى حدود السبعينيات على طرفي نقيض مع الاهتمام بالميدان الذي ميز مدرسة شيكاغو. إن «مهنة عالم الإجتماع» كما تم تحديدها آنذاك، كانت تعطي الأولوية لإبستملوجيا القطيعة، والطريقة التحليلية الإستنباطية. وكان ينبغي انتظار اختفاء هذا العائق الذي كان يقول ب «موت» الذات (الفاعل)، لكي تتوفر شروط اكتشاف مدرسة شيكاغو».[13]

12- H. Becker, «The Chicago School, so-colled» in : http:// home.earthlik.net/hsbeckre/ecolefr.

13- *Ibidem.*

- نلاحظ بالفعل بأن بيير بورديو ورفاقه لم يشيروا في كتابهم «مهنة عالم الإجتماع» لا من قريب ولا من بعيد لمدرسة شيكاغو، وكانت وجهة النظر البنيوية طاغية عليهم لدرجة جعلتهم يتجاهلون كل مناهج علم الإجتماع الكيفية. وفي لقاء مع بيير بورديو بجامعة روون، ولما سئل عن رأيه في انتعاش «مدرسة شيكاغو» من جديد بفرنسا وتبني الاتجاه التفاعلي الرمزي في السنوات الأخيرة من طرف العديد من علماء الاجتماع الجدد كان جوابه: «مدرسة شيكاغو، ما هي بالضبط؟ إن مدرسة شيكاغو تعتبر جزء من التراث المشترك. ولكننا نقف فيها أيضا على مواقف أيديولوجية، وعلى نظريات أيكلوجية عن المجال والتي ينبغي إخضاعها للنقد. وأيضا فإننا غالبا ما ندخل في إطار التجديد الجذري أشياء تعتبر جزء من الرأس مال المشترك للاتنلوجيا السوسيولوجيا.» انظر:

- Cellule GRIS N° 4, *Op. cit.*

يمكن القول بأن ما يتفق عليه كل الباحثين الذين اهتموا بشأن هذه المدرسة هو ما انتهى إليه آلان كولون في بحثه في «هوية» هذه المدرسة حيث خلص إلى أن ما يميزها عن المحاولات السوسيولوجية التي سبقتها هو شيئين أساسيين هما: البحث الأمبريقي من جهة، والتخصص الحضري من جهة أخرى، وبهذا الصدد يقول:

«إن سوسيولوجيا شيكاغو تتميز قبل كل شيء بالبحث الامبريقي، ولقد شكلت منعطفا بالنسبة للتأثير الذي سيكون لاحقا للبحث السوسيولوجي على المجتمع. وبالفعل فقبل ظهور وسيادة هذه الأعمال الامبريقية، كانت الأبحاث السوسيولوجية موجهة صوب «التحقيقات الاجتماعية» والتي كانت موسومة بالأخلاقية وكانت أكثر قربا من التحقيقات الصحفية أكثر منها إلى البحث العلمي (...). وعلى العكس من ذلك فإن الاتجاه الامبريقي سيكون مطبوعا بإلحاح الباحثين على إنتاج معارف تنفع في علاج المشاكل الاجتماعية.

ومدرسة شيكاغو هي سوسيولوجيا حضرية، أنجزت سلسلة مدهشة من الدراسات حول المشاكل التي كانت تعاني منها مدينة شيكاغو، ولكنها كرست بالأساس جزء من أعمالها لمشكلة سياسية واجتماعية كبرى كانت كل المدن الامريكية الكبرى معنية بها آنذاك وتتجاوز إطار سوسيولوجيا المدينة وحدها: إنها مشكلة الهجرة الوافدة، وانصهار واستيعاب ملايين المهاجرين الوافدين على المجتمع الأمريكي.

ومن بين الاسهامات الكبرى الأخرى لسوسيولوجيي مدرسة شيكاغو هو أنهم عمدوا إلى تطوير مناهج بحث أصيلة: الاستعمال العلمي للوثائق الشخصية، والعمل المباشر في الميدان، واستغلال

مصادر وثائقية مختلفة، موجهة بشكل واضح في اتجاه ما نسميه اليوم السوسيولوجيا الكيفية». [14]

لقد كان الهاجس الأول والأساسي بالنسبة لعلماء الاجتماع الذين شكلوا النواة الأولى للعلم الاجتماعي في بداية القرن العشرين بجامعة شيكاغو، هو الوصول إلى فرض «الاعتراف بالشرعية الأكاديمية لهذا العلم»، وانطلاقا من هذا الهاجس كان هؤلاء العلماء يسعون ويدعون إلى» ضرورة وضع إطار مفاهيمي يسمح لهم باكتساب هذا الاعتراف من قبل باقي زملائهم في العلوم الأخرى، ومن ثمة كانوا لا يحصرون اهتمامهم في جمع معلومات جزئية في مختبرهم الذي كان هو مدينة شيكاغو، ولكنهم كانوا يحاولون وضع أسس نظريتهم السوسيولوجية». [15] ومن ثم وحدة التوجه الذي كان يحرك هؤلاء العلماء الذين شاءت الظروف أن يجتمعوا ويشتغلوا في نفس الزمان والمكان: جامعة شيكاغو بداية القرن العشرين.

تلك هي بعض الآراء التي تتناول مسألة التسمية، والتي ما كانت لتكون بمثل هذا الزخم والتضارب والكثافة لولا «البريق الدائم»، والتأثير المستمر لآراء وأفكار وممارسات رواد هذا التقليد. وذلك ما يبرر في اعتقادنا كل هذا الجدل الذي يتردد صداه في كل الكتابات التي تتناول التراث السوسيولوجي الذي خلفه علماء اجتماع جامعة شيكاغو في العقود الأولى من القرن العشرين. ولذلك لم يتردد هاورد بيكر (H. Becker) أحد رواد الجيل الثاني لمدرسة شيكاغو والذي ظل يجادل في وجود مدرسة بهذا الإسم

14- A. Coulon, *Op. cit*. Pp. 3-4.

15- L. Tomasi, «*Actualité de l'élaboration théorique de R. E. Park*», in revue *Sociétés* N° 52, éd. Dunod, Paris, 1996

من القول: «ومع ذلك وبالرغم من كل شيء هناك بالفعل وجود لمدرسة شيكاغو وتقليد لمدرسة شيكاغو»[16] والتي تكرست من خلال نوعية أعمال وطرق اشتعال رواد قسم علم الاجتماع بجامعة شيكاغو في بداية القرن العشرين.

أخيرا، وبالرغم من الآراء المخالفة فإن تعبير «مدرسة شيكاغو» قد تكرس في تاريخ السوسيولوجيا الحديثة. وذلك بغض النظر عن مدى «انسجام أو عدم انسجام» أفكار الرواد والتلاميذ على السواء. وستتجلى لنا بشكل أفضل وأوضح مختلف العوامل والمعطيات التي تبرر إضفاء نعت «مدرسة» على هذا التراث لما نتطرق للظروف التاريخية والأوضاع الاجتماعية والديموغرافية وكذا للأسس والمنطلقات الفكرية والفلسفية التي قام عليها هذا التقليد السوسيولوجي.

16- H. Becker, «The Chicago School, so-colled» in : http:// home.earthlik.net/ hsbeckre/ecolefr

الفصل الخامس

العوامل التي ساعدت على نشأة مدرسة شيكاغو

من الأكيد أن نشأة وبروز هذه المدرسة لم يأت من فراغ، فهناك من جهة، واقع المجتمع الأمريكي وواقع حواضره بالخصوص وما عرفته من تحولات اجتماعية هائلة في بداية القرن العشرين، وهناك من جهة أخرى ما طرأ على ظروف العمل الجامعي الأكاديمي، والبحث السوسيولوجي بالخصوص من تحديث وتجديد في الولايات المتحدة الأمريكية. ولقد كان للتراث السوسيولوجي الأوروبي (الفرنسي والألماني والأنجليزي) وللفكر الفلسفي السائد في أمريكا وقتئذ تأثيرهما الواضح في التمهيد لنشأة هذه المدرسة وتيسير سبل انطلاقها وانتشارها. وسنحاول في الفقرات اللاحقة التطرق لأهم هذه العوامل ببعض التفصيل.

1 - النمو الحضري لمدينة شيكاغو

لقد تأسست جامعة شيكاغو في خريف سنة 1890 في وقت أصبحت فيه هذه المدينة إحدى ثلاث أكبر مدن أمريكية، وذلك إلى جانب نيويورك وفيلاديلفيا. ولقد شهدت هذه المدينة منذ منتصف القرن التاسع عشر وإلى مطلع القرن العشرين نسب نمو حضري مذهلة، فمن مجرد تجمع سكاني صغير لا يتعدى عدد

سكانه 4.470 نسمة سنة 1840، سينتقل هذا العدد إلى 1.100.000 نسمة بعد خمسين سنة (أي في 1890) ثم 1.700.000 سنة 1900 ليبلغ هذا العدد 3.500.000 نسمة في 1930.

إن هذا النمو الحضري الهائل الذي عرفته هذه المدينة انطلاقا من النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان نتيجة من جهة لتوافد أفواج من المهاجرين الذين جاؤوا من المناطق الأمريكية القروية (الغرب الأوسط) ونتيجة من جهة أخرى وبالخصوص لتدفق عدد هائل من المهاجرين الأجانب القادمين من أوروبا (ألمانيا، اسكندنافيا، إيرلاندا، إيطاليا، بولونيا، لتوانيا، تشيكوسلوفاكيا) وهكذا كان أكثر من نصف عدد سكان شيكاغو سنة 1900 مزدادين خارج أمريكا، وينتمون لثقافات أوروبية متباينة.

وسيتطور هذا التجمع السكاني المتضخم، والمستقبل باستمرار لأعداد الهائلة من اليد العاملة الوافدة، إلى مدينة صناعية، ومركز تجاري، وسيشهد ظهور بورصة مزدهرة، وستنمو فيه رأسمالية متوحشة، وسيعرف انتفاضات جماهيرية (1886) وعدة إضرابات عمالية كبرى (1894). «وهكذا ستصبح مدينة شيكاغو إحدى المدن التي ستتأجج فيها ما ستسميه الطبقات الوسطى ثم العلوم الاجتماعية بعدها «المشاكل الحضرية»: الفقر المزمن لفئة هامة من السكان، مناطق شاسعة من الأكواخ، وأنماط متعددة ومتنوعة من الانحراف، وخصوصا انحراف الشباب، وصراعات عرقية ناتجة عن الصراعات الطبقية... الخ»[17]

ولم تكن هذه المدينة كذلك فحسب بل تحولت وبسرعة أيضا إلى مدينة للفنون والثقافة، وسيزدهر فيها العمران، وستتجدد

17- J.M. Chapoulie, *Op. cit.* p. 26.

كل بناياتها بشكل سريع بفضل انتشار البناء بالإسمنت المسلح، وستظهر فيها ومنذ ذلك الوقت أولى ناطحات السحاب التي ستعرفها أمريكا. كما ستعرف ترسخ تقليد معماري حداثي سيعرف في أدبيات الهندسة المعمارية وبدوره «بمدرسة شيكاغو».

وفي محاولة رصده لوضع هذه المدينة في هذه الفترة يقول أولف هانيرز (U. Hannerz): «ما بين بداية القرن 19 حيث لم يكن للمدينة وجود، وبين السنوات الأولى للقرن العشرين أصبحت شيكاغو وبنسب نمو مدهشة مدينة ميتروبولة كبرى. كان المهاجرون يتوافدون عليها وبكثافة من كل أوروبا –وبالخصوص من أوروبا الشرقية– وكان يجذبهم إليها بالخصوص الرغبة الجامحة في الحصول على نصيب من الخيرات التي بدأت تتراكم حول الصناعات والتجارة (...) ومن حين لآخر كان المهاجرون يلاحظون بأن ما وصل إليه أحد معارفهم من المهاجرين الجدد من غنى يفوق ما يمكن أن يتخيلوه. وإلى جانب هؤلاء كان هناك على العكس من ذلك أفراد آخرون يعانون من الفقر واليأس الذي يشكل عادة الوجه الآخر لتصنيع سريع في مجتمع يخضع لمبدأ «دعه يفعل»، وبالنسبة للبعض الآخر سيرون أن طريق النجاح الاجتماعي يمر عبر الجريمة، ولكننا لا يمكننا الإقرار بأن كل الذين اختاروا هذا السبيل قد وجدوا الطريق سالكا للبحبوحة»[18]

في هذا السياق الديموغرافي والاقتصادي والمعماري، والاجتماعي ستنشأ جامعة شيكاغو سنة 1890، وستشرع في استقبال أول فوج من طلبتها سنتين بعد ذلك أي في 1892. وكانت

18- U Hannerz, *Op. cit.* p.36

هذه الجامعة، جامعة خاصة تم تأسيسها بفضل مساهمة مالية قدرها 35 مليون دولار من الغني الأمريكي الشهير جون روكفلير (John Rockfeller) وذلك إلى حدود سنة 1910، ومن دون طلب أي مقابل، وكل ما فعله روكفلير هو أنه طلب من رجل دين سابق يدعى وليام هاربر (W. Harper) السهر على هذا المشروع الجامعي الجديد، أي جامعة شيكاغو التي ستصبح منذئذ المهد الأول للسوسيولوجيا الأمريكية.

2 - السوسيولوجا في جامعة شيكاغو.

بعد تعيين وليام هاربر كرئيس للجامعة الجديدة سيعمل على تأسيس قسم للدراسات العليا بها، وستكون مهمة هذا القسم هي البحث وتكوين طلبة الدكتوراه، وكانت هذه المبادرة جديدة في حد ذاتها لأن الجامعات كانت وإلى ذلك الحين تهتم بالتدريس أكثر من اهتمامها بالبحث، ولقد كانت الغاية من إحداث هذا القسم هي العمل بالأساس على تحقيق انفتاح الجامعة على الحياة الاجتماعية الخارجية.[19]

منذ افتتاح جامعة شيكاغو سيتم إنشاء عدة كليات بها، وهذه الكليات ستحتضن عدة شعب من بينها: الفنون، الآداب والعلوم الاجتماعية، الاقتصاد والعلوم السياسية، الفلسفة، الدين المقارن، الإنجليزية، الألمانية، وتعتبر شعبة علم الاجتماع والأنتربولوجيا التي أنشئت في هذه الجامعة سنة 1892 أول شعبة من نوعها في العالم، وستصبح مع مطلع سنة 1910 أهم مركز للدراسة والتكوين في مجال السوسيولوجيا في الولايات المتحدة

19- A. Coulon, *Op. cit.* p. 6.

الأمريكية، وستبقى للعقدين اللاحقين (أي إلى حدود 1930) هي الشعبة الأكثر حظوة والأحسن سمعة من بين مثيلاتها الأمريكيات، «ففي هذه الشعبة ستتم ولادة السوسيولوجيا باعتبارها تخصصا جامعيا يهتم بملاحظة وتحليل العالم المعاصر».[20]

ونظرا لوجود قسم للدرسات العليا والدكتوراه بهذه الجامعة، فسيعرف البحث العلمي بها انتعاشا مهما، وذلك ما يتماشى مع وجهة نظر رئيس الجامعة وليام هاربر الذي كان يرى: «أنه لا يمكن أن يُدرس طريقة البحث للآخرين إلا من مارس البحث بنفسه (...) ومن المقرر أن يتفرغ الأساتذة من حين لآخر ليكرسوا كل وقتهم للبحث (...) وبكلمة واحدة، فإن هذه المؤسسة تفضل ممارسة البحث، وتعتبر الدروس شيئا ثانويا».[21] وسيفكر هاربر أيضا في إيجاد الوسيلة الأفضل لنشر الأبحاث المنجزة، وفي هذا الإطار سيعمل على خلق «مطابع جامعة شيكاغو»، وذلك حتى قبل التحاق أول طالب بهذه الجامعة[22].

3 - الدور الحاسم لألبيون سمول (1854 - 1926)

في سنة 1892 وبمجرد ما افتتحت جامعة شيكاغو سيطلب رئيسها «وليام هاربر» من «ألبيون سمول» (Albion Small) تأسيس وتسيير قسم الأنتربولوجيا والسوسيولوجيا، والذي سيكون أول قسم ينشأ بهذا الإسم في جامعة ما. وسيلعب «ألبيون سمول» دورا كبيرا في إدخال السوسيولوجيا وترسيخها ليس في جامعة شيكاغو فقط بل في مجموع الولايات المتحدة الأمريكية.

20- J. M. Chapoulie, *Op. cit*, p.36.
21- A. Coulon, *Op. cit,* p. 7.
22- *Ibidem*

تلقى «سمول» في بداية حياته الدراسية تكوينا دينيا في أمريكا، ثم انتقل بعد ذلك إلى مدينة برلين في ألمانيا بقصد متابعة الدراسة، وهناك سيلتقي بجورج سيمل (G. Simmel) الذي كان لازال طالبا بدوره، ثم سينتقل إلى ليبزيك (Lepzig) ليتابع دروسا في الفلسفة والتاريخ والسوسيولوجيا. وسيعود بعد ذلك إلى أمريكا حيث سيقدم أطروحة لنيل الدكتوراة في التاريخ بجامعة جون هوبكينز (J. Hopkins) ليصبح أستاذا لمادة التاريخ بها في بداية الأمر ليتحول بعد ذلك إلى تدريس السوسيولوجيا، وبالخصوص السوسيولوجيا الألمانية، وسينشر سنة 1890 مؤلفا سماه «مدخل لعلم السوسيولوجيا» (Introduction to the science of sociology)، والذي سيكون أول كتاب متخصص في علم الاجتماع يوجه للطلبة الذين يهتمون بدراسة هذا العلم. وسنرى فيما بعد أنه نفس العنوان الذي سيختاره كل من روبرت بارك (R. Park) وإرنست بيرجيس (E. Burgess) لكتابهما المشترك الأول.

إن أهم ما سيركز عليه ألبيون سمول في كتابه هذا هو الإلحاح الشديد على ضرورة إنجاز أبحاث ميدانية، والقيام بملاحظات مباشرة، وعدم الاكتفاء بالتأملات المكتبية، وهكذا وانطلاقا من هذا المنظور سيدعو إلى ضرورة تناول البحث السوسيولوجي لبعض المسائل والقضايا كالسكن والعلاقات الاجتماعية وكان يحث طلبته وزملاءه الأساتذة على تحليل مدينة شيكاغو نفسها والانطلاق من «فسيفساء عوالمها الصغيرة» كميدان وموضوع لأبحاثهم.

ومن بين أهم ما سيركز عليه ألبيون سمول بالإضافة لذلك، وباعتباره من أول من مهد للسوسيولوجيا الميدانية في أمريكا هو إلحاحه على ضرورة توفر «الموضوعية» في كل الدراسات

السوسيولوجية لأنه كان يعتبر أن السوسيولوجيا «علم» وباعتبارها كذلك لاينبغي إذن أن تؤسس على «خطاب» وإنما على أبحاث أمبريقية.

إن هذه الأفكار والتصورات تعتبر جديدة بالنسبة للممارسة التربوية السوسيولوجية، وسيكون من ثمة تأثيرها كبيرا على الجيل الجديد من علماء الاجتماع وبالخصوص على وليام طوماس (W. Thomas) وإرنست بيرجيس (E. Burgess)، وروبرت بارك، وهذا التأثير لم يقتصر فقط على مسألة تأسيس وترسيخ علم الاجتماع وتحديد توجهه الإمبريقي، وإنما امتد أيضا إلى المستوى المؤسساتي. إن العلماء الذين عايشوا ألبيون سمول طيلة فترة تأسيسه وإدارته لقسم علم الاجتماع بجامعة شيكاغو (من 1892 إلى حين تقاعده سنة 1924) يعترفون بفضله الكبير ودوره الحاسم في التعريف بالسوسيولوجيا وجعلها مادة متجذرة في الجامعة.

ومن جهة أخرى واتباعا لنصيحة من «وليام هاربر» سيعمد «سمول» سنة 1895 إلى تأسيس «المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع» (American Journal of Sociology) والتي سيبقى على رأس إدارتها حوالي ثلاثين سنة متصلة (حتى 1925). إن هذه المجلة والتي لازالت تصدر إلى اليوم تعتبر أول مجلة متخصصة في علم الاجتماع في العالم. وإلى جانب ذلك وفي إطار نفس المجهود التأسيسي سيعمل سنة 1905 على خلق «الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع» (American Sociological Society)[23].

إن كل هذه الإنجازات الإدارية، والمؤسساتية والعلمية ستساهم في تأسيس السوسيولوجيا الأمريكية وترسيخها في الجامعة ومعاهد

23- *Ibid*, p. 10.

البحث. وسيكون لكل هذا المجهود الأكاديمي والعلمي دور حاسم في تأسيس أول مدرسة سوسيولوجية من نوعها في أمريكا وباقي العالم، ألا وهي «مدرسة شيكاغو».

وإلى جانب دور وليام هاربر وألبيون سمول في التمهيد لظهور «مدرسة شيكاغو»، هناك عوامل أخرى من طبيعة اجتماعية وفكرية وفلسفية سيكون لها بدورها تأثيرها الواضح في ظهور هذه المدرسة، وسنحاول تناول دور أهم هذه العوامل فيما يلي.

4 - دور حركة الإصلاح الاجتماعي والتحقيقات الاجتماعية

لقد كان لظهور واستفحال المشاكل الاجتماعية التي عرفتها أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية في بداية التصنيع في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، الدور الكبير في انبثاق وانتشار العديد من الأفكار والمذاهب الاجتماعية والسياسية التي كانت تدعو إلى الإصلاح الاجتماعي، ولقد اعتبرت ظاهرة الفقر آنذاك المسألة الاجتماعية الجوهرية، ولذلك شهدت تلك الفترة تضخما في الكتابات بشأنها لدرجة يمكن معها القول حسب جيرار لوكليرك (G. Leclerc) بنشأة علم خاص بها يمكن تسميته «علم الفقر» (Paupérologie). ولقد استدعى الوعي بأهمية هذه المشكلة، وعيا موازيا بضرورة التدخل لمعالجتها والحد من آثارها، ولذلك ستظهر بعض المحاولات التدخلية كالتيار الصحي (l'hygiénisme) الذي كان يتزعمه بعض المصلحين الاجتماعيين وبعض الأطباء، والذي كان يسعى للقضاء على الأمراض المتفشية في الفئات الاجتماعية الدنيا. ثم هناك التيار الإحساني (Philantropie) والذي سينخرط فيه المصلحون الاجتماعيون والكنيسة، وكذلك بعض الأغنياء

والمؤسسات الرسمية، ولذلك سيلتقي بتيار العمل الاجتماعي (Travail social) الذي كان يسعى لتنظيم وعقلنة مختلف هذه التدخلات، ومحاولة رصد المشاكل الاجتماعية وتحديد أسبابها ومواطنها. إن كل هذه التيارات، أي تيار علم الفقر، والتيار الصحي، والتيار الإحساني وتيار العمل الاجتماعي ستلجأ كلها وبشكل منهجي، وانطلاقا من مبادرات فردية أو جماعية خاصة أو رسمية لإنجاز تحقيقات اجتماعية (Enquêtes sociales). ولقد كانت هذه التحقيقات من الغنى والكثرة والتنوع بحيث شملت كل الميادين والمجالات، واتخذت في بعض الأحيان شكل إحصاءات عامة تخص إما وضعية الفقر والفقراء، أو المشاكل الصحية، أو مشاكل السكن والخدمات الاجتماعية، أو مشاكل العمل والأمراض المهنية، أو الجريمة ووضعية السجون.[24]

ويمكن القول مع ماكسيم لوروا (M. Leroy) أن هناك ثلاث أفكار أساسية هي التي وجهت الفكر الاجتماعي والإصلاحي في تلك الفترة والتي يمكن تلخيصها كالآتي:

- «لقد ساد في كل كتابات القرن التاسع عشر اتجاه إلى اعتبار الآلام الفردية مرضا اجتماعيا، أي أن المجتمع بأكمله أصبح مسؤولا عن بؤس وتدهور أحوال أفراده».
- «لقد أصبح بالإمكان الوصول إلى تنظيم علمي للمجتمع، وذلك ما يتجلى في التقدم على مستوى العلم الاجتماعي، الذي ينبغي أن يتخذ شكل «فن اجتماعي» (un art social) أي أداة تساعد على جعل حياة الناس في المجتمع حياة أكثر إنسانية».

24- G. Leclerc, *L'observation de l'homme. Une histoire des enquêtes sociales*, éd. Seuil, Paris, 1979, pp. 63-72.

- وإلى جانب هاتين الفكرتين ستترسخ في الفكر الاجتماعي والإصلاحي لتلك الفترة فكرة «الحق في الحياة» (Le droit à la vie) والإيمان بهذا الحق جعل الناس لا ينظرون أو لم يعودوا ينظرون باشمئزاز أو نفور أو تجاهل لمطالب الجائع أو المريض أو العاري»[25].

إن التحقيقات الاجتماعية التي ستشكل منطلق العمل الاجتماعي ستلعب دورا رئيساً في التمهيد للبحث السوسيولوجي الميداني الإمبريقي، أي أنها سهلت حسب تعبير جيرار لوكليرك «الانتقال من الملاحظة الاجتماعية إلى الملاحظة السوسيولوجية»[26]، ولذلك نجد أن العديد من علماء الاجتماع الأوائل بجامعة شيكاغو انتقلوا من العمل الاجتماعي إلى السوسيولوجيا، وسيشارك هؤلاء العلماء وبشكل واسع في تلك التحقيقات الاجتماعية وفي تكوين العاملين الاجتماعيين، بل إن عدة دروس ستخصص في قسم علم الاجتماع للعمل الاجتماعي ابتداء من سنة 1900 بهذه الجامعة.

إن تيار التحقيقات الاجتماعية الذي شمل كل المدن الصناعية الناشئة في الولايات المتحدة الأمريكية آنذاك، كان ينطلق من اقتناع بضرورة «جمع أكبر ما يمكن من المعطيات الأكثر نسقية وانتظاما قبل اقتراح أي حل لأية مشكلة اجتماعية». ولقد شكل التحقيق الهائل الذي أنجزه شارل بوث (C. Booth) ابتداء من 1886، والذي نشر نتائجه سنة 1889 عن الفقر والفقراء في لندن، نموذجا للتحقيقات التي ستنجز في مجموع المدن الأمريكية وبالخصوص في مدينة شيكاغو. ومع انتشار التحقيقات الاجتماعية على نطاق

25- M Leroy, *Histoire des idées sociales en France* (Tome 2), éd. Gallimard, Paris, 1962, pp. 47-48.

26- G. Leclerc, *Op. cit.* 67.

واسع وازدياد أهميتها ستظهر في سنة 1907 «مجلة التحقيقات» (Magazine survey) والتي ستعنى بنشر أخبارها ونتائجها، كما أن «المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع» ستعمد بدورها، إلى نشر مقالات تتضمن تحليلات لها، خصوصا وأن العديد من علماء اجتماع جامعة شيكاغو شاركوا في إنجاز البعض منها.[27]

وإلى جانب ذلك يمكننا التذكير بأن مؤسسي جامعة شيكاغو كلهم: هاربر، سمول، طوماس، (...) كان يهيمن عليهم التوجه الديني ذي الميول البروتستانتية، فضلا عن الداروينية الاجتماعية (التي دخلت للولايات المتحدة عبر كتابات سبنسر). وهذه الميول هي التي تفسر لنا لماذا اتجه جزء من علماء شيكاغو الأوائل نحو العمل الاجتماعي، والتدخلات الاجتماعية المطبوعة بطابع الإحسان والخيرية.

وشيئا فشيئا ستتلاشى العلاقات بين السوسيولوجيا والعمل الاجتماعي، ثم بينها وبين التحقيقات الاجتماعية. ولذلك يقول جيرار لوكليرك: «بالرغم من هذه الأصول البديهية فإن السوسيولوجيا ستعبر عن رغبتها في الابتعاد عنها. إن حقل السوسيولوجيا لايتطابق تماما وفقط مع حقل العمل الاجتماعي. إن حقل الملاحظة السوسيولوجية ليس هو حقل الملاحظة الاجتماعية. إن السوسيولوجيا ليست فقط علم كل ما يتعلق بالفقراء»[28]. ولكن هذه العلاقة أفادت السوسيولوجيا كثيرا خصوصا في توجهها نحو العمل الميداني، ومعرفة المدينة، ومحاولة حل مشاكلها الاجتماعية، وسيلعب وليام طوماس الدور الحاسم في فصل السوسيولوجيا

27- J. M. Chapoulie, *Op. cit.* p. 51.
28- G. Leclerc, *Op. cit.* p. 69.

عن العمل الاجتماعي ذي النفحة الدينية، أو النزعة الإحسانية وذلك من خلال شيئين أساسيين هما: من جهة توظيفه لروبرت بارك كأستاذ بقسم علم الاجتماع وذلك على إثر إعجابه بمساهمته في ندوة عن وضع السود، وثانيا كتابته ونشره لدراسته الهامة عن «الفلاح البولوني» التي ستشكل الميلاد الفعلي لما نسميه اليوم «تقليد شيكاغو» أو «مدرسة شيكاغو»[29].

5- دور العوامل الفكرية والفلسفية

لقد كان للفلسفة الألمانية وللسوسيولوجيا الألمانية بالخصوص تأثير كبير على مدرسة شيكاغو، وكان هذا التأثير مباشرا من خلال تتلمذ (-) روبرت بارك على أهم الفلاسفة وعلماء الاجتماع في ألمانيا وتهييئه لأطروحة دكتوراة حول «الجمهور والاشهار» تحت إشراف جورج سيمل وهي الأطروحة التي ناقشها بجامعة برلين في 1903. وإلى جانب هذا التأثير الألماني المباشر، كان هناك تأثير أنجلوساكسوني، وأمريكي بالتحديد، وهو المتجلي في تأثير الفلسفة البراجماتية مع جون ديوي (J. Dewey) ووليام جيمس (W. James) وتيار التفاعلية الرمزية الذي أسسه جورج هربرت ميد (G. H. Mead).

5-1- تأثير الفلسفة البراغماتية.

تنطلق وجهة النظر البراغماتية (Le pragmatisme) من القول بأن الأفعال الإنسانية تتضمن ثلاثة أبعاد أساسية لايمكن الفصل بينها وهي: البعد البيولوجي، والبعد السيكلوجي، والبعد

29- A. Coulon, *Op. cit*, p. 17.

الأخلاقي. إن الفرد أثناء قيامه بأي فعل من الأفعال يسعى إلى تحقيق غاية ما ويستشعر أثناء إنجازه لفعله أحاسيس وانفعالات. وبالنسبة للفلسفة البراغماتية كما أسسها وطورها فلاسفة شيكاغو، فإن تدريس السيكلوجيا ضروري للفلسفة، لأن لكل واحدة منهما تأثيرها في الواقع. إن الفلسفة ينبغي أن تكون هي المرجعية النظرية التي تساعد على حل المشاكل الاجتماعية والتربوية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية التي تطرح بالنسبة للمجتمع، ولكن فلاسفة شيكاغو البراغماتيين كانوا يعتبرون أيضا أن المشاكل الاجتماعية التي يتخبط فيها مجتمع شيكاغو لايمكن حلها إلا من خلال وضع واستعمال مناهج علمية في التفكير وهي نفسها المناهج التي ينبغي تبنيها أيضا في مجال التربية والتعليم.

وهكذا ترى البراغماتية أن الفلسفة ينبغي عليها أن تكون فلسفة للفعل (Une philosophie d'action) وأن تنخرط في واقع الحياة الاجتماعية، وتهتم بكل ما يتعلق بالأفعال الاجتماعية التي تتوخى التغير الاجتماعي. ولقد كان لأفكار هذا الاتجاه الفلسفي تأثيره في التوجه الديموقراطي للمجتمع وبالخصوص في مجالي التربية والعدالة الاجتماعية والعمل البلدي.

وسيجد جورج هربرت ميد في الفلسفة البراغماتية التي كان يعتبرها أداة للتدخل الاجتماعي، السند الفكري والنظري الذي سيدعم حركة الإصلاح الاجتماعي، وذلك لأنه كان يعتقد أن وعي الأفراد يتحدد من خلال التفاعلات والسيرورات الاجتماعية. ولذلك سيعمل جون ديوي متزعم هذا التيار على المستوى التربوي على الإشراف على العديد من الإصلاحات التي همت المدرسة والتدريس.

2-5- تأثير التيار التفاعلي الرمزي

لقد تأثر رواد مدرسة شيكاغو إلى جانب التيارات الفكرية الآنفة الذكر بتيار فلسفي يمكن اعتباره تيارا أمريكيا خالصا ونعني به تيار التفاعلية الرمزية (Interactionnisme symbolique)، ومن المعلوم أن هذا التيار يجد جذوره في الفلسفة البراغماتية كما حددها جون ديوي ووليام جيمس. كما نهل رواده من جهة أخرى من تراث الفلسفة الفينومينولوجية. ولقد نشأ هذا التيار ما بين 1920 و1930 داخل جامعة شيكاغو، وكان علماء اجتماع من أمثال ك. كولي (C.Cooley) ووليام طوماس (W. Thomas) قد ساهموا في وضع لبناته الأولى، وسيقوم ج. ه. ميد بإتمام البناء وذلك طيلة الأربعين سنة التي قضاها بالتدريس بهذه الجامعة[30]. ويمكن أن نشير كذلك إلى أن تيار التفاعلية الرمزية سيظل مهيمنا وموجها لسوسيولوجيا مدرسة شيكاغو وتفرعاتها منذ ذلك الحين وإلى اليوم، بل ويمتد تأثيره إلى كل فروع السوسيولوجيا الأخرى باعتباره تيارا منهجيا أولا وقبل كل شيء كما سنحاول توضيح ذلك في الفقرات اللاحقة.

فما التفاعلية الرمزية إذن؟

من المفيد التذكير بما تقوله إيزابيل بازنجيه (I. Basanger) بصدد هذا التيار، ذلك أن التفاعلية الرمزية ليس لها منظر وحيد بل هي عبارة عن نسق منهجي / نظري «يتشكل من شبكة من المفكرين والباحثين الأكثر والأقل أهمية والذين أثر بعضهم في بعض بطريقة

30- C. Bachman et al. *Langage et communications sociales*, éd. Hatier / Didier, Paris, 1991, p. 117.

من الصعب إعادة بنائها حاليا[31]». ولذلك لا ينبغي الاعتقاد بوجود انسجام ووحدة تامين بالنسبة لهذا التيار. وكما تشير إلى ذالك التسمية[32] نفسها فإن التفاعلية الرمزية تلح وتركز على الطبيعة الرمزية للحياة الاجتماعية، أي أن الدلالات الاجتماعية لأفعال الأفراد ينبغي اعتبارها نابعة من «الأفعال المتبادلة التأثير بين الأفراد» (Les activités interagissantes des acteurs). ومن العبارات المأثورة عن كولي بهذا الصدد قوله «كل لكل مرآة». وكان هربرت ميد متزعم هذا التيار يعطي الأهمية الكبرى للعلاقات ولأنماط التواصل والتبادل بين الأفراد في بناء الشخصية. إن تبني هذا الاتجاه الفكري يعني من الناحية المنهجية أنه ينبغي على عالم الاجتماع الذي يريد فهم وتحليل دلالات ومعاني الأفعال الاجتماعية أن يسعى للنفاذ لهذه الدلالات والمعاني وذلك لا يمكن إلا إذا شارك بنفسه كفاعل في العالم الاجتماعي الذي اختار دراسته.

وترى إيزابيل بازانجيه أنه بالإمكان وعلى العموم القول بوجود ثلاثة أفكار أساسية وأولية تقوم عليها التفاعلية الرمزية وهي:

- النظرة للمجتمع كنتاج جماعي، وهذا ما يعني أنه ينبغي دائما الانطلاق في دراستنا لتنظيم مدينة ما أو مؤسسات ما أو أنساق اجتماعية ما. لا من اعتبارها وحدات موضوعية موجودة

31-A. Strauss, *La trame de la négociation, sociologie qualitative et interactionnisme*, (Textes réunis et présentés par I. Basanger) éd. l'harmattan, paris, 1992. cf : l'introduction d'I. Basanger, «Les chantiers d'un interactionnisme américain» pp 11-63.

32- يرجع مؤرخو علم الاجتماع هذه التسمية إلى هربرت بلومر (Herbert Blumer) وهو وينتمي للجيل الثاني من علماء مدرسة شيكاغو وأول من أصدر كتابا بهذا الاسم، وهو ايضا من سيعمل على جمع ونشر مختلف مقالات أستاذه هربرت ميد انظر :
- J.M. Berthelot, *Op. cit*, p. 96.

قبليا ومحددة للفعل الإنساني ولكن كنتيجة لتجارة الناس، أي لالتقاء الجماعات، والتقاء عملهم، ومناقشاتهم، وصراعاتهم، وأنماط معرفتهم وتعلمهم. وهذا ما يجعل هذا التيار يعارض كل ميل أو تبني لأية حتمية اجتماعية.

-إن مصادر النشاط الانساني (كفاءات معرفية، قواعد، فئات، مواقف اجتماعية) تتشكل بالأساس انطلاقا من العلاقات البين-ذاتية (Intersubjectives) التي تتطور عبر الزمن. وحتى نتمكن من تفسير النظام الاجتماعي، ينبغي إذن أن ندرس سيرورات التنسيق بين الأنشطة والتفاعلات وذلك بوضعها في السياق المحدد الذي تجري فيه. (إن المجتمع هو التفاعل).

- إن القول بوجود علاقة جدلية بين التفكير والفعل يقوم على أساس نظرة للكائن الإنساني، تعتبره يمتلك القدرة على التأمل والإبداع ورد الفعل، وليس فقط مجرد كائن سلبي خاضع لقوى لقوى اجتماعية لا يملك أية سيطرة عليها.[33]

إن التيار التفاعلي الرمزي كما حاولنا توضيح بعض ملامحه، يقف إذن على طرفي نقيض بالنسبة لتصور دوركهايم لموضوع ومنهج السوسيولوجيا، ذلك أن هذا الأخير بالرغم من اعترافه بقدرة الفاعل على وصف الوقائع الاجتماعية (Les faits sociaux) المحيطة به، فإنه يعتبر مع ذلك أن ما يمتلكه هذا الفاعل عن هذه الوقائع من معرفة ليس إلا عبارة عن تصورات غامضة وسطحية وغير ممحصة، ولذلك لا يمكن للباحث الاجتماعي أن يعتبرها قابلة للاستعمال العلمي كما هي، لأن التمثلات الفردية الذاتية لا تدخل حسب دوركهايم في مجال موضوع السوسيولوجيا. وعلى

33- I. Basanger, *Introduction* , *Op. cit.* p 14.

العكس من ذلك تماما فإن التفاعلية الرمزية ترى أن هذا التمثل الفردي الذي يتشكل في ذهنية الفاعل عن العالَم الاجتماعي هو ما ينبغي بالذات أن يصبح في نهاية التحليل الموضوع الرئيسي للبحث السوسيولوجي.

ويعتبر جورج هربرت ميد (G.H. Mead) الملهم الأساسي والأول لتيار التفاعلية الرمزية، وذلك بالرغم من أن هذه التسمية لم تظهر ولم تستخدم للمرة الأولى إلا في سنة 1937 من طرف تلميذه هربرت بلومر (H. Blumer) كما أسلفنا.

إن دور ج. هربرت ميد سيتجلى بالخصوص في قيامه بمحاولة تركيبية للتأليف بين المقاربة «الفردية» والمقاربة «الماكرو-سوسيولوجية»، وهكذا سيعتبر أن الفعل الاجتماعي الفردي يمكن اعتباره عملية خلق متبادلة لذوات متباينة بحسب تباين الأوضاع والمواقف التي يجد الفرد نفسه فيها، وهذا التبادل بين الذوات يكتسي دلالة اجتماعية، ومهمة التحليل السوسيولوجي هي العمل على فهم السيرورات التي يتمكن الأفراد من خلالها من تنسيق وتنظيم سلوكاتهم على أساس التأويلات التي يعطونها للعالَم المحيط بهم.

ويمكن تلخيص أهم القضايا والتصورات التي تنطلق منها التفاعلية الرمزية كما حددها هربرت ميد في أننا كأفراد نعيش في بيئة رمزية وطبيعية (مادية) في نفس الوقت، وأننا نحن الذين نبني دلالات ومعاني العالم المحيط بنا، وذلك من خلال رموز دالة، وبفضل هذه الرموز يمكننا «القيام مقام الآخرين»، ما دمنا نتقاسم معهم الرموز نفسها ونعطيها نفس الدلالات، وهذه الرموز والدلالات والقيم المشتركة هي التي توجه أفعالنا، وتمكننا في نفس

الوقت من التنبؤ بأفعال الآخرين وفهم سلوكهم. إن هذه الفعالية الذهنية هي إذن نتاج «للسيرورة الاجتماعية لتفاعل الذات مع الآخرين»[34]

إن ما يحتفظ به تاريخ السوسيولوجيا لتيار التفاعلية الرمزية هو السبق إلى إعطاء مكانة نظرية للفاعل الاجتماعي باعتباره قادرا على تأويل وفهم العالم المحيط به، أي التفاعل الرمزي معه. وسيكون لهذا التيار السبق أيضا في وضع وتفعيل مناهج بحث تعطي الأولوية لوجهة نظر الفاعلين الاجتماعيين. والغاية من هذه المناهج ستكون هي إبراز وتوضيح المعاني والدلالات التي يتبادلها الفاعلون فيما بينهم وهم يسعون لبناء عالَمهم الاجتماعي. إن المعرفة السوسيولوجية ينبغي إذن أن تنطلق من دراسة أفعال وممارسات الأفراد، ودراسة علاقتهم بالواقع المحيط بهم، ومحاولة فهم المعنى أو المعاني التي يعطونها لهذا الواقع[35]. إن هذا المنظور المنهجي سيتبلور فيما سيسمى فيما بعد بالمقاربة الكيفية، وسيشكل تراثا يعود الفضل في مراكمته وتطويره لرواد مدرسة شيكاغو. وهذا الاختيار المنهجي سيتضح ويتكرس أكثر لما نأخذ بعين الاعتبار ما أشرنا إليه من قبل بشأن الأهمية القصوى التي سيوليها هؤلاء الرواد للعمل البحثي الميداني.

34- C. Bachmann et al. *Op. cit*, p. 118.

35- A. Coulon. *Op. cit*, p. 17

الفصل السادس

مدرسة شيكاغو والبحث الميداني

إن أهم ما يميز «تقليد شيكاغو» ويجعل منه مدرسة -كما أشرنا إلى ذلك من قبل- هو البحث الإمبريقي إلى جانب التخصص الحضري. ومن المفيد التذكير هنا بأن هذا التقليد لم ينشأ من فراغ، وإنما جاء نتيجة لعدة عوامل فكرية واجتماعية أتينا على ذكر أهمها في الصفحات السابقة، وسنحاول في هذه الفقرة التطرق إلى بعض ملامح وخصائص التوجه الميداني الذي اعتمده مجموعة من الباحثين الاجتماعيين في قسم علم الاجتماع بجامعة شيكاغو، كما سنعمل على تبيان كيف نجح هؤلاء الرواد في تدشين نمط خاص من التحري الاجتماعي العلمي نسميه اليوم: البحث السوسيولوجي الميداني.

لقد كان للتحقيقات الاجتماعية ولدراسة شارل بوث عن «العمل والعمال في لندن»[36] ولتعاليم التفاعلية الرمزية دورها الواضح في توجيه علماء اجتماع جامعة شيكاغو لتفضيل الميدان، وإلى جانب ذلك لا ينبغي أن ننسى الدور الهام الذي لعبته المناهج الأنتربولوجية، التي كانت تعتمد في دراساتها على

36- لقد أشاد روبرت بارك بهذا العمل بالخصوص في مقالته: «المدينة كمختبر اجتماعي» والتي سندرجها في آخر هذا البحث ضمن الملاحق.

كم كبير من الملاحظات والمعطيات المستقاة من الواقع، وبهذا الصدد يقول روبرت بارك: «إلى حدود اليوم فإن الأنتربولوجيا، علم الإنسان، قد كرست نفسها لدراسة الشعوب البدائية. ولكن الإنسان المتحضر هو أيضا موضوع للبحث لا يقل أهمية، هذا بالإضافة إلى كونه أسهل للملاحظة والدراسة. إن الحياة والثقافة الحضريتين، أكثر تنوعا وأكثر دقة، وأكثر تعقيدا. إن المعطيات الأساسية هي نفسها في الحالتين: فنفس مناهج الملاحظة المتأنية التي استعملها أنتربلوجيون من أمثال فرانز بواس (F. Boas) وروبرت لوي (R.Lowie) لدراسة حياة ونمط عيش هنود أمريكا الشمالية يمكن تطبيقها وبطريقة أكثر خصوبة لدراسة العادات والمعتقدات والممارسات الاجتماعية، والتصورات العامة للحياة التي تهيمن في حي ليتل إيطالي (Little Italy) أو في الأحياء الواطئة في النورث سايد (North Side) في شيكاغو، أو أيضا ومن أجل رواية العادات الأكثر أناقة ورقة لسكان جرينويتش فيلاج (Greenwich village) أو حي واشنطن سكوير (Washington Square) بنيويورك»[37].

إن روبرت بارك الذي عمل صحفيا حتى سن الخمسين من عمره، سيعمل من جهة أخرى على الاستعانة بتقنية التحقيق الصحفي ليدمجه في السوسيولوجيا، إن علم الاجتماع ليس إلا ضرب من الصحافة الكبرى أو الصحافة الأكثر دقة كما كان يقول. ولذلك سيحث طلبته على ألا يقتصروا في أبحاثهم على الإحصائيات الرسمية أو الوثائق المحفوظة في الرفوف، ولكنه كان

37- R. E. Park, «La ville, propositions de recherche sur le comportement humain en milieu urbain»; in : Y.Grafmeyer et I. Joseph, *l'école de Chicago*, *Op. cit*, p, 81.

يدعوهم للسعي إلى تجميع وثائقهم بأنفسهم من خلال الاتصال المباشر بالأفراد المبحوثين، أي عن طريق ما كان يسميه «بالملاحظة في عين المكان» (Observation in situ) وعن طريق المقابلة. وبذلك يكون روبرت بارك حسب جان ميشيل شابولي هو أول عالم اجتماع تبنى تقنية المقابلة في البحث السوسيولوجي، يقول بارك: «إن عالم الاجتماع لا ينبغي أن يهتم بالأحداث في حد ذاتها، بل عليه أن يعتبرها أشياء واقعة؛ وعليه أن يهتم أساسا بمواقف الأشخاص المعنيين كما تنعكس في رواياتهم المتباينة لنفس الحدث التاريخي. عليه أن يهتم في الواقع بكل ما يمكنه المساعدة على توضيح تلك المواقف وعقلنتها أكثر»[38]. وهناك العديد من شهادات تلاميذه في العشرينيات من القرن الماضي (-) التي يتحدثون فيها عن التعليمات التي كان يمدهم بها ومن تلك الشهادات نورد هنا شهادة أحد ألمع تلاميذه أي هوورد بيكر (H. Becker) الذي يقول على لسان أستاذه: «لقد تم نصحكم باختيار المشاكل التي يمكنكم أن تجدوا بشأنها العديد من الوثائق التي يعلوها الغبار والتي أعدت من طرف بيروقراطيين (...) وهذا ما نسميه «توسيخ اليدين في البحث الحقيقي» (...) ولكن هناك شيء إضافي أساسي: إنه الملاحظة غير المسبوقة، اذهبوا لتجلسوا في قاعات انتظار الفنادق الراقية، وعلى أعتاب ملاجئ آخر الليل (...) وباختصار وسّخوا أسافل سراويلكم في البحث الحقيقي»[39].

إن إدخال هذه الطريقة في البحث في إطار مادة لازالت تبحث عن شرعيتها وترسيخ نفسها يعد تجديدا على قدر كبير من الأهمية

38- J.M. Chapoulie, *Op. cit.* p. 117.

39- *Ibid*, p 118.

«يشبه إلى حد كبير ذاك الذي سيقلب الإثنولوجيا لما سيتبنى مالينوفسكي (Malinofski) لأول مرة منهجية العمل الميداني. إن زملاء بارك كانوا في حوالي 1920، كما كان الشأن بالنسبة لدوركهايم في فرنسا يستعملون الوثائق المكونة من الإحصائيات الرسمية والنصوص القانونية، وأصناف من الوثائق المختلفة وكتب العلوم الاجتماعية، وكانت الغالبية العظمى منهم لا يكترثون أبدا لمواجهة تحليلاتهم مع الأمثلة الواقعية التي يمنحها لهم مجتمعهم الخاص»[40]. إن المنهجية المعتمدة من طرف رواد مدرسة شيكاغو وتلامذتهم هي التي تنطلق من الفرد، الفاعل الاجتماعي. ويلخصه. بيكر نمط البحث الميداني الذي تبنته وطورته مدرسة شيكاغو بقوله: «من أجل فهم سلوك فرد ما، ينبغي علينا أن نعرف أولا كيف يدرك وضعيته (sa situation)، والعراقيل التي يعتقد أنه سيواجهها، والبدائل التي يرى أنها مفتوحة أمامه، ولا يمكننا أن نفهم حقل الفرص المتاحة، والثقافات الفرعية للانحراف، والمعايير الاجتماعية، وغيرها من التفسيرات الجماعية لكل سلوك إلا إذا اعتبرناها من وجهة نظر الفاعل»[41].

إن هذا التصور للبحث يستدعي ضرورة الاستعانة بتقنيات خاصة تترجم بشكل أكثر وفاء هذا التصور، وهذه التقنيات هي ما سيجمعه الدارسون تحت تسمية ستصبح متداولة فيما بعد ونعني بها «المنهج السوسيولوجي الكيفي» والذي يتضمن من بين ما يتضمن تقنيات: «استغلال الوثائق الشخصية»،

40- J. M. Chapoulie, *Introduction à la traduction française d' «Outsiders»* de H. Becker, *Op. cit*, p.15.

41- Cité in A. Coulon, *Op. cit.* p. 76.

«يشبه إلى حد كبير ذاك الذي سيقلب الإثنولوجيا لما سيتبنى مالينوفسكي (Malinofski) لأول مرة منهجية العمل الميداني. إن زملاء بارك كانوا في حوالي 1920، كما كان الشأن بالنسبة لدوركهايم في فرنسا يستعملون الوثائق المكونة من الإحصائيات الرسمية والنصوص القانونية، وأصناف من الوثائق المختلفة وكتب العلوم الاجتماعية، وكانت الغالبية العظمى منهم لا يكترثون أبدا لمواجهة تحليلاتهم مع الأمثلة الواقعية التي يمنحها لهم مجتمعهم الخاص»[40]. إن المنهجية المعتمدة من طرف رواد مدرسة شيكاغو وتلامذتهم هي التي تنطلق من الفرد، الفاعل الاجتماعي. ويلخصه. بيكر نمط البحث الميداني الذي تبنته وطورته مدرسة شيكاغو بقوله: «من أجل فهم سلوك فرد ما، ينبغي علينا أن نعرف أولا كيف يدرك وضعيته (sa situation)، والعراقيل التي يعتقد أنه سيواجهها، والبدائل التي يرى أنها مفتوحة أمامه، ولا يمكننا أن نفهم حقل الفرص المتاحة، والثقافات الفرعية للانحراف، والمعايير الاجتماعية، وغيرها من التفسيرات الجماعية لكل سلوك إلا إذا اعتبرناها من وجهة نظر الفاعل»[41].

إن هذا التصور للبحث يستدعي ضرورة الاستعانة بتقنيات خاصة تترجم بشكل أكثر وفاء هذا التصور، وهذه التقنيات هي ما سيجمعه الدارسون تحت تسمية ستصبح متداولة فيما بعد ونعني بها «المنهج السوسيولوجي الكيفي» والذي يتضمن من بين ما يتضمن تقنيات: «استغلال الوثائق الشخصية»،

40- J. M. Chapoulie, *Introduction à la traduction française d' «Outsiders»* de H. Becker, *Op. cit*, p.15.

41- Cité in A. Coulon, *Op. cit.* p. 76.

و«السير الذاتية» و«المراسلات الخاصة»، و«مذكرات وحكايا الحياة»، وهناك من جهة أخرى تقنيات «دراسة الحالة» التي تعتمد «الملاحظة المشاركة»، و«الملاحظة المباشرة»، و«المقابلة» و«الشهادة» (Témoignage).

وينبه دارسو مدرسة شيكاغو لمسألة أساسية، ذلك أنه بالرغم من كون رواد هذه المدرسة هم أول من اهتم واستعمل المناهج الكيفية في السوسيولولوجيا فإنهم مع ذلك لم يهملوا المناهج الكمية ولم يعتبروها غير صالحة، بل لقد أعطوها كل ماتستحق من عناية، ولذلك يعتبر جون ميشيل برطلو التقليد المنهجي الذي ابتكرته واتبعته مدرسة شيكاغو بأنه تقليد معقد (Tradition complexe).

ولعلنا نجد أنفسنا مع رواد مدرسة شيكاغو أمام نفس النقاش الذي يحتد أحيانا بين مؤيد لهذا المنهج ومؤيد للآخر، والذي يبدو أنهم حسموا الرأي فيه منذئذ بالشكل الذي جعلهم بالرغم من كونهم ابتكروا واستعملوا المناهج الكيفية إلا أنهم لا يرون وجود أي تناقض بينها وبين المناهج الكمية وبهذا الصدد يقول بيرجيس (Burgess): «إن المناهج الإحصائية ومناهج دراسة الحالة لا يتعارضان، بل يتكاملان في الواقع، إن المقارنة بين الترابطات الإحصائية يمكنها أحيانا أن تفتح آفاقا أوسع للبحث القائم على منهج دراسة الحالة، والمواد الوثائقية(...) ونظرا لكون الإحصائيات ودراسة الحالة يمكنهما معا أن يقدما مساعدتهما الكاملة للبحث باعتبارهما أداتين سوسيولوجيتين، فإنهما يستحقان أن يحظيا بنفس الاعتراف. وسيكون من الملائم أكثر أن تعمل كل منهجية

على تطوير وتحسين تقنياتها الخاصة، كما أن الجمع بينهما يمكن أن يكون من دون شك أكثر غنى ومردودية»[42].

إن تفصيل القول بصدد المنهجية السوسيولوجية التي ابتكرها واستثمرها وطورها رواد مدرسة شيكاغو سيتطلب صفحات أخرى طويلة، وستتاح لنا الفرصة للتطرق لبعض تلك المناهج والتقنيات، وغاية ما حاولنا توضيحه هنا، هو أن السوسيولوجيا الأمبريقية الحديثة عرفت نشأتها الأولى في جامعة شيكاغو وعلى يد رواد قسم علم الاجتماع بها بالخصوص. وهذا ما جعل كلا من بيرجيس وبارك يقولان في تصديرهما لكتابهما المشترك «مقدمة لعلم السوسيولوجيا»: «**يبدو أن علم الاجتماع قد أصبح اليوم على الطريق ليصبح بشكل أو بآخر علما تجريبيا**[43]».

تلك هي الظروف التاريخية والعوامل الفكرية التي ساهمت في ظهور «مدرسة شيكاغو». ولقد بدا لنا من المفيد استعراض هذه الظروف والعوامل لنتمكن من الإلمام بظروف نشأة وترسخ تقليد سوسيولوجي كرس رواده الأوائل كل معارفهم النظرية وتقنياتهم الميدانية من أجل تأسيس المقاربة الأكثر أصالة وتأثيرا في مجال الدراسات السوسولوجية المتعلقة بظاهرتي التحضر والهجرة، على نحو ما سنحاول توضيحه في القسم التالي.

42- J. M. Berthelot, *Op. cit.* p. 75.

43- *Ibid* p. 71.

[illegible]

42- J. M. Bern[illegible] Op. cit p. [illegible]
43- Ibid p. [illegible]

القسم الثالث

رواد مدرسة شيكاغو وظاهرة التحضر والهجرة

تقديم

إن اهتمام رواد مدرسة شيكاغو بالمسألة المنهجية كان يتبلور ويتطور في خضم الممارسة البحثية والانشغال بدراسة مختلف الظواهر والتحولات الاجتماعية التي تعرفها «مدينتهم». ولقد كان ألبيون سمول هو السباق إلى تشبيه مدينة شيكاغو «بمختبر للسوسيولوجيا»[1]، وذلك في مقالة كتبها سنة 1896، حيث يقول: «إن الدرس الأكثر إدهاشا والذي تعلمته من مختبر السوسيولوجيا الواسع هذا والذي تشكله مدينة شيكاغو هو أن الفعل وليس مجرد التنظير هو التعليم الأسمى[2]». ولقد ورد هذا التعبير قبل هذه المقالة في «الكتيب» الذي يعرف بجامعة شيكاغو وشعبها حيث جاء في التعريف الخاص بشعبة السوسيولوجيا ووسائل الدراسة بها (والذي يبدو أنه من تحرير سمول) : «إن مدينة شيكاغو هي أحد المختبرات الاجتماعية الأكثر اكتمالا في العالم [...] إن المشاكل الأكثر أهمية بالنسبة للمجتمع الحديث تظهر

1- إن تعبير «المدينة كمختبر اجتماعي» يرجع في الأصل إذن لألبيون سمول، وذلك بالرغم من أن بعض مؤرخي علم الاجتماع غالبا ما يرجعونه لروبرت بارك، وذلك لأن هذا الأخير قد اشتهر من بين ما اشتهر به بمقالته الرائدة «المدينة كمختبر اجتماعي» والتي أثبتنا ترجمة لها في القسم الرابع من هذا الكتاب.

2- Chapoulie, *La tradition sociologique de Chicago*, *Op. cit.* p.42.

بوضوح في المدن الكبرى ويجب أن تُدرس كما هي في الواقع في التجمعات السكانية الكبرى. وليست هناك أي مدينة في العالم تمنحنا هذا التنوع الهائل في المشاكل الاجتماعية النموذجية كمدينة شيكاغو»[3]. إن رواد مدرسة شيكاغو، وانطلاقا من هذا المنظور، سيتطرقون للظواهر / المشاكل الاجتماعية التي تتناسل وتتفاعل في هذا «المختبر الاجتماعي» الفريد. ومن بين تلك الظواهر / المشاكل هناك ظاهرة الهجرة وما يرتبط بها من مشاكل تدخل في إطار ما تعرفه المدينة من «تحضر» بمعنييه الكمي والكيفي. وهذا ما سنحاول تناوله من خلال مساهمات بعض أبرز رواد هذه المدرسة ونعني بهم : وليام طوماس، وروبرت بارك، ولويس وورث، ومن خلال استعراض آراء هؤلاء سنتمكن في نفس الوقت من تتبع نشأة وطريقة توظيف بعض المفاهيم الأساسية في سوسيولوجيا التحضر والهجرة.

3- *Ibid*. p. 43.

الفصل السابع

المقاربة الإثنوغرافية[1] للتحضر والهجرة: وليام إسحاق طوماس

1 - «الفلاح البولوني» وتدشين البحث السوسيولوجي الميداني

يعتبر وليام إسحاق طوماس (W. I. Thomas) (1947–1863) إلى جانب روبرت بارك العالمين اللذين تركا بصماتهما الواضحة في مجموع السوسيولوجيا الأمريكية وبالخصوص في فترة ما بين الحربين العالميتين، وإليهما يرجع الفضل في وضع لبنات وأسس مدرسة شيكاغو. ولقد كان تأثيرهما الواضح يتمثل أساسا في تأسيسهما للمنهجية السوسيولوجية المتبنية للمقاربة الكيفية بالخصوص، وخروجهما بالسوسيولوجيا من المكاتب إلى مواجهة الوقائع في الميدان. ويعتبر إرنيست بيرجس (E. Burgess) «أن أهمية طوماس تكمن في أنه كان المعلم الأول للسوسيولوجيا الحضرية في شيكاغو، كما أن دوره الكبير يرجع أساسا إلى شخصيته الفذة، وإلى التأثير الذي أحدثه في وسط زملائه، وإلى حيويته، وقدرته الكبيرة على العمل[2]».

1- نعني ب «الإثنوغرافية» في هذا المقام العمل الميداني (الأمبريقي) الذي يسعى إلى جمع المعطيات انطلاقا من الميدان مع تبني مختلف تقنيات البحث الكيفية. ولقد أصبح هذا التعبير يستعمل من طرف أغلب علماء الاجتماع المحدثين لتجميع مختلف المناهج التي تبناها رواد مدرسة شيكاغو. انظر:

- N. Dodier, I. Basanger, «Totalisation et altérité dans l'enquête ethnographique», *Revue française de Sociologie*, Janvier-Mars, 1997.

2- R. Duchac, *Sociologie des migrations aux Etats-Unis Op. cit*, p. 71.

كان وليام طوماس ضمن أول فوج يسجل في قسم الأنتربولوجيا والسوسيولوجيا بجامعة شيكاغو سنة 1892، وبذلك كان أيضا ضمن أول فوج يتخرج من هذا القسم. وسيلحقه ألبيون سمول مباشرة بعد تخرجه بهيئة التدريس بنفس القسم، وستظهر أولى مقالاته في 1907، إلا أن إنجازه العلمي الأكبر سيكون هو الدراسة التي أنجزها بمعية فلوريان زنانيكي[3] (F. Znaneicki) حول «الفلاح البولوني في أوروبا وأمريكا». وهي الدراسة التي أنجزاها ابتداء من سنة 1908، والتي ستكون أول بحث سوسيولوجي ينجز بفضل منحة مالية هامة (50 ألف دولار) من طرف السيدة كليفر (Madame Cluver) والتي مكنها ما ورثته من أموال عن أبيها في تمويل مشاريع بحثية عديدة. واختيار الهجرة البولونية بالتحديد كموضوع جاء نتيجة لكون طوماس كان يجد نفسه «حائرا أمام السلوكات الغريبة للمهاجرين البولونيين في الولايات المتحدة الأمريكية». ولذلك اعتبر أن هذه السلوكات المتناقضة تجعل من هذه الجماعة مشكلة اجتماعية»[4] تستحق أن ينكب عليها الباحثون الاجتماعيون بالبحث والدراسة.

3- في إطار بحثه عن مترجم من اللغة البولونية إلى الأنجليزية سيلتقي طوماس، وهو في إحدى رحلاته إلى بولونيا التي اقتضتها هذه الدراسة، بفلوريان زنانيكي وهو شاعر وفيلسوف بولوني، وبعد اكتشافه لمواهبه في الكتابة والترجمة سيتخذ منه مساعدا له في هذا البحث، وسيستقدمه للولايات المتحدة لإتمام هذه الدراسة معا. وبعه الانتهاء من هذه الدراسة سيعود لبولونيا حيث سيصبح المؤسس الأول لعلم الاجتماع الحديث بها، وستضطره ظروف الحرب العالمية الثانية للعودة مجددا لأمريكا ليلتحق بالجامعة ويصبح أحد الوجوه البارزة في علم الاجتماع الحديث. ولقد بدأ في الاشتغال مع طوماس في نفس الدراسة ابتداء من 1914. وهو الذي سيحرر الجزء المنهجي من كتاب «الفلاح البولوني»، كما أنه هو الذي سيحرص أيضا على نشره ابتداء من سنة 1918.

4- W.I. Thomas & F. Zaniecki, *Fondation de la sociologie américaine (morceaux choisis)*, préface et coordination de la traduction par Suzie Guth, éd. L'Harmattan, Paris, 2000, p. 320.

في 1918 سيشرع وليام إسحاق طوماس وفلوريان زنانيكي في نشر دراستهما المشتركة «الفلاح البولوني في أوروبا وأمريكا» (مونوغرافيا جماعة مهاجرة)[5]. وسيصبح هذا الكتاب الذي يعتبره جون ميشيل برطلو «**شهادة ميلاد السوسيولوجيا الأمريكية الحديثة**» واحدا من المراجع التقليدية في علم الاجتماع الحديث، ويعتبره مؤرخو علم الاجتماع أول مؤلف يستحق نعت «بحث سوسيولوجي» لأن «متن» مادته ومفاهيمه ونتائجه تم استنباطه واستخراجه من تحقيقات ميدانية واسعة ووثائق متنوعة تم التنقيب عنها وتجميعها وتحليلها من طرف الباحثين أنفسهم.

وتتطرق هذه الدراسة التي تم نشرها في خمسة أجزاء برعاية من زنانيكي (Znaniki) ما بين 1918 و1920 لوضعية الفلاحين البولونيين في موطنهم الأصلي ثم وضعيتهم بعد هجرتهم لأمريكا، ومحاولة التعرف على نمط عيشهم في بولونيا ثم ما طرأ من تغير على نمط العيش هذا بعد هجرتهم إلى أمريكا. يقول طوماس وزنانيكي في مقدمة هذه الدراسة: «إن هذا الكتاب عبارة عن مونوغرافيا لفئة اجتماعية فعلية في مرحلة من مراحل تطورها». وهذا ما يستدعي دراسة هذه الفئة من المهاجرين في مكان انطلاقهم وفي مكان الوصول، ومحاولة رصد أنماط وأشكال التفاعل والعلاقات التي ينسجونها فيما بينهم بعد الهجرة والتي ينسجونها مع المهاجرين المنتمين لمختلف الأعراق والأجناس الأخرى، وهذا ما يستدعي بالضرورة التطرق إلى موضوع

5- لم يترجم هذا الكتاب للغة الفرنسية إلا سنة 1998 . والعنوان الأنجليزي للكتاب هو:
«The polish peasant in Europe and America. Monograph of an immigrant group»

الاندماج أو الانصهار، ومسألة القيم والمعايير الاجتماعية ومظاهر سوء التنظيم الاجتماعي، وإعادة التنظيم. إن التطرق لهذه المواضيع الهامة التي تعتبر في حد ذاتها «مواضيع طريفة بالنسبة للمعرفة السوسيولوجية»، سيتم من خلال و«ثائق خامة» ستتم معالجتها اعتمادا على مناهج وتقنيات «جديدة» ومبتكرة تم توظيفها لمقاربة الوقائع ودراستها، والمنهجين الرئيسيين الذين تم استعمالهما أكثر هما: تقنية «دراسة الحالة» (المنهج البيوغرافي) وتقنية تحليل المضمون. والمعطيات المجمعة بهذه الطريقة كانت عبارة عن وثائق ورسائل شخصية متبادلة[6] بين البولونيين المهاجرين وذويهم في الوطن الأم (الأصل) (وضع طوماس إعلانات في الجرائد يطلب فيها من هؤلاء المهاجرين تزويده بهذه الوثائق مقابل مكافآت مالية) وقصص وحكايا الحياة والمذكرات الحميمية، كما تم الاعتماد على مقالات الجرائد ولوائح الانتساب لجمعيات المهاجرين، ومحاضر اجتماعات الجمعيات البولونية-الأمريكية، وتقارير المحاكم والشرطة ومؤسسات المساعدة الاجتماعية، هذا بالإضافة إلى تقنية السيرة الذاتية (البيوغرافيا) والتي تمثلت في السيرة الذاتية الطويلة والمشوقة (300 صفحة) لمهاجر بولوني شاب يدعى «فلاديك ويزنياوسكي» (Wladeck Wszniewski). ورغم أن عدد الوثائق التي تم الوصول إليها وتجميعها غير معروف، إلا أن ألفا منها قد

6- في سيرته الذاتية يشير وليام طوماس إلى أن اكتشاف هذا المنهج جاء بمحض الصدفة يقول: «إذا ما بحثت عن أصل اهتمامي بمنهج الوثائق، فينبغي علي أن أشير إلى رسالة طويلة عثرت عليها في يوم ماطر في الممر الخلفي المحاذي لمنزلي. ويتعلق الأمر برسالة من شابة تتابع تدريبا في مستشفى أرسلتها لوالدها، وتتحدث فيها عن العلاقات والصراعات داخل الأسرة. وعلى الفور قلت مع نفسي يمكننا أن نتعلم الكثير من الأشياء لو تمكنا من الحصول على عدد كبير من هذا النوع من الرسائل» انظر:
- U. Hannerz, *Op. cit.* p. 40.

استغل وشكل المثبت منها ثلثي هذا الكتاب الضخم الذي يتكون من 2250 صفحة.

إنها البداية الفعلية للسوسيولوجا الأمبريقية، والبداية الفعلية والتطبيقية للاتجاه الكيفي في البحث السوسيولوجي. وليس هذا فحسب أهم ما يمكن أن يذكر به هذا الكتاب وصاحبيه، بل هناك أيضا الجانب المفاهيمي / النظري الذي كان لهما فيه دور الريادة أيضا.

2- التأطير النظري والجهاز المفاهيمي الجديد.

شكل هذا الكتاب كما أشرنا إلى ذلك آنفا لحظة القطيعة بين التحقيقات الاجتماعية وبين التحقيقات السوسيولوجية، وكان للمناخ الفكري السائد في جامعة شيكاغو تأثيره الواضح على وليام طوماس بالخصوص، ولكن الجديد بالنسبة لهذا الأخير هو أنه استطاع التخلص تدريجيا من النزعة البيولوجية-العضوية-التطورية التي طغت على كتاباته ومقالاته الأولى كما كان الشأن بالنسبة لكل معاصريه من علماء الاجتماع . ولقد ساعد طوماس على التحرر من هذه النزعة بالخصوص اتصاله الوثيق بالأنتربولوجيا، وقراءته المتأنية لأعمال العالم الأنتربولوجي فرانز بواس (Franz Boas) الذي كان يعتبر آنذاك «الخصم الأكثر راديكالية للتحليلات التي كانت مهيمنة في العلوم الاجتماعية والتي كانت تسعى لتفسير التباين بين الفاعلين الاجتماعيين على مستوى السلوك بالاختلافات العرقية».[7] واعتمادا على هذه القراءات بدأ طوماس يتساءل عن مدى صحة وإمكانية «أن تحدد السلوكات الاجتماعية

7- J.M. Chapoulie, *Op. cit.* p. 63.

بالبيئة وليس بالغرائز، ومن ثمة فإن الاختلافات بين الجنسين وبين الأعراق لم تعد تبدو له من طبيعة بيولوجية وإنما ثقافية[8]».

سينطلق طوماس وزنانيكي من هذا التصور ليحاولا الوصول إلى معرفة «الوقائع الاجتماعية» كما هي، وذلك من خلال التوجه التفاعلي الرمزي الذي كان مهيمنا على سوسيولوجيا شيكاغو آنذاك والذي كان يدعو إلى ضرورة تحديد الأبعاد الذاتية والموضوعية المؤثرة في التمثلات والممارسات الإنسانية.

إن هاجس إنتاج معرفة سوسيولوجية عملية نافعة كان أيضا من بين هواجس طوماس ذلك أن مشكلة الهجرة وما تطرحه من مشاكل على مستوى الاندماج والانصهار، كانت من بين أهم ما يعانيه مجتمع تكون أساسا وبالخصوص في نهاية القرن 19 وبداية القرن 20 من طبقات وفئات من المهاجرين الذين يتباينون على مستوى التقاليد واللغات والتمثلات والتطلعات، وكان المسؤولون الأمريكيون يتساءلون ويفكرون آنذاك في إيقاف الهجرة استنادا إلى بعض التحليلات التي كانت تعتبر أنها إذا ما استمرت بنفس الوتيرة ستؤدي إلى نشوء مجتمع «هجين ثقافيا» و«ممزق عرقيا». ولقد كان رواد مدرسة شيكاغو ينتمون كلهم لما سمي آنذاك بالاتجاه «التقدمي» الذي كان يؤمن «بقدرة المجتمع الأمريكي على استيعاب وصهر كل الأقليات العرقية الوافدة». ولذلك كانت التغيرات الاجتماعية الهائلة التي تعرفها مدينة شيكاغو حاضرة دوما في هذا المجهود البحثي الميداني الذي كان يسعى إلى إيجاد التفسير النظري الأنسب لمختلف السيرورات المتعلقة بما يسميه

8- إن أفكار طوماس هذه المستقاة من الأنتربولوجيا الثقافية، ستشكل المدخل الأولي للمقاربة الأيكلوجية التي ستسود في دراسات التحضر والهجرة كما سيطورها تلامذته لاحقا.

طوماس وزنانيكي سوء التنظيم الاجتماعي وإعادة التنظيم وهما العمليتان الاجتماعيتان اللتان تمسان في البداية حياة الأفراد قبل أن تتحولا إلى نمط عيش جماعي يهيمن على كل المجال الحضري.

ويمكن القول بأن هذه المنطلقات الفكرية المتقدمة والمتفتحة، وهذا الانشغال بمسألة استيعاب وانصهار المهاجرين في مجتمعهم الجديد هي التي ساعدت على ابتكار وابتداع مجموعة من المفاهيم التي ستصبح مركزية في السوسيولوجيا الأمريكية. ويمكن القول أن مفاهيم طوماس وزنانيكي التي ابتكراها ووظفاها في هذه الدراسة تدخل كلها في إطار سوسيولوجيا التحضر والهجرة بل هي التي ستمهد في اعتقادنا لنشأة هذا الفرع من السوسيولوجيا بشكل عملي. وحتى نتمكن من تتبع هذه النشأة نرى من المفيد التطرق هنا لبعض هذه المفاهيم الأساسية التي ستكون لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة، قصيرة أو ممتدة بظاهرة التحضر والهجرة: كمفهومي «المواقف الفردية» و«القيم الاجتماعية»، ومفهوم «تعريف الوضعية» ومفهوم «سوء التنظيم الاجتماعي». على أن نتطرق مع روبرت بارك وورث لمفاهيم أخرى تدخل كلها في إطار نفس المجهود التأسيسي.

2-1- المواقف الفردية والقيم الاجتماعية

استعمل طوماس مفهوم «الموقف» منذ مقالاته الأولى في سنة 1907، ولكنه سيطور ويوظف هذا المفهوم بشكل أوضح في كتاب «الفلاح البولوني». يرى طوماس وزنانيكي أن التحليل السوسيولوجي ينبغي أن يميز بين القيم الاجتماعية (Valeurs sociales) التي يعتبرانها هي «العناصر الثقافية الموضوعية للحياة

الاجتماعية» وبين المواقف (attitudes) التي يعتبران أنها هي «الخصائص الذاتية لأفراد جماعة معينة». إن الموقف هو عبارة عن مجموعة من الأفكار والانفعالات التي تتحول مع الزمن إلى استعدادات ثابتة عند الفرد وهي التي تسمح له بإصدار نفس رد الفعل أمام نفس المثيرات وبطريقة متماثلة دوما.

ويعتقد طوماس وزنانيكي أن «الواقعة الاجتماعية» (fait social) على العكس مما تذهب إليه النزعة الوضعية هي ضرب من التركيب الحميمي بين القيم الاجتماعية (الموضوعية) والمواقف الفردية (الذاتية)، أي أنه لا يمكننا دراستها كما ندرس الظواهر الطبيعية وذلك «لأن السببية الاجتماعية معقدة وينبغي أن تتضمن في الوقت نفسه عناصر موضوعية وذاتية وقيم ومواقف[9]». ولذلك يعطي طوماس وزنانيكي التعريف التالي لمفهوم الموقف «نعني بتعبير «موقف» سيرورة الوعي الفردي التي تحدد الأفعال الواقعية أو المحتملة للفرد في العالم الإجتماعي[10]». إن هذا المعنى وهذا الاستعمال لمفهوم الموقف في هذه الدراسة سيجعل منه بالأساس مفهوما سيكلوجيا، وذلك ما سيعترف به طوماس ليقول في ثنايا هذا الكتاب بأن «المواقف الذاتية» تدخل بالأحرى في إطار موضوع علم النفس الاجتماعي بينما مفهوم «القيم الاجتماعية» هو موضوع السوسيولوجيا بامتياز.

من الأكيد أن الفاصل بين السوسيولوجيا وعلم النفس الاجتماعي ليس واضحا دائما. ولذلك وبالرغم من هذا التوضيح، فإن مفهوم «الموقف» كما تم بناؤه واستثماره في كتاب «الفلاح

9- A. Coulon, *Op. cit*, p. 24.
10- *Ibid*. p. 26.

البولوني» سيلعب دورا مهما في دراسة الظواهر المرتبطة بالتحضر والهجرة، وذلك من خلال مساهمته في المساعدة على فهم وتفسير التغير الاجتماعي والاقتصادي والثقافي الكبير الذي يجد المهاجرون أنفسهم في خضمه خصوصا لما يتعلق الأمر بالهجرة من قرى فلاحية «متخلفة» في بولونيا إلى مدينة ميتروبولية كبرى في أمريكا.

وإلى جانب ذلك سيساعد هذا المفهوم كما يؤكد على ذلك كل من آلان كولون وجون ميشيل شابولي على ترسيخ الاتجاه السوسيولوجي الذي يرفض «الاختزالية البيولوجية»، ويدعو في نفس الوقت إلى إحداث قطيعة مع «الحتمية الفزيولوجية» في مجال تفسير السلوك الإنساني. ولهذا كان طوماس وزنانيكي يرفضان أي تحديد للمواقف بالقيم الموضوعية، وكانا على العكس من ذلك يركزان على أن «سبب أي موضوع اجتماعي معين (قيمة اجتماعية) أو أي موقف ما لايمكن إرجاعه لا إلى موقف فردي ما فقط ولا إلى موضوع اجتماعي ما فقط، وإنما إلى تركيب من موضوع وموقف[11]».

سينطلق طوماس وزنانيكي من هذا التصور، إذن لينتهيا من خلال تحليل سلس إلى أنه ينبغي على الباحث الاجتماعي أن يدرك دائما أنه ما بين العوامل الموضوعية والمواقف الذاتية هناك عنصرا أساسيا لا ينبغي أن يغفل ألا وهو «تأويل الوضعية من طرف الفاعلين الاجتماعيين أنفسهم»، أي أنه لفهم تنوع وتعدد أنماط السلوك ومشاكل إدماج وانصهار المهاجرين في الولايات

11- J.M. Chapoulie, *Op. cit.* p74.

المتحدة، ينبغي علينا أولا أن نعمل على معرفة «التعريف الذي يعطونه هم أنفسهم عن وضعيتهم». وهنا نجد أنفسنا أمام مفهوم مركزي آخر في سوسيولوجيا التحضر والهجرة عند طوماس ألا وهو مفهوم «تعريف الوضعية» (Définition de situation).

2-2 - تعريف الوضعية

في أحد أهم نصوصه[12] التي تطرق فيها لتعبير «تعريف الوضعية» يقول طوماس: «إن كل سلوك ذاتي التحديد يكون مسبوقا بحالة من التفحص والتداول، وهي الحالة التي يمكننا أن نطلق عليها «تعريف الوضعية». وحقيقة الأمر هي أنه ليست الأفعال الواقعية وحدها هي التي تستدعي تعريفا للوضعية. إن مسيرة الحياة كلها، وكل الشخصية ينبثقان فعليا وتدريجيا من سلسلة التعاريف المماثلة»[13].

ولقد كان وليم إسحاق طوماس هو السباق إلى نحت واستعمال هذا التعبير وذلك كمساهمة منه في البحث عن حل لأحدى القضايا المنهجية التي كانت تثار بين علماء الاجتماع آنذاك والتي كانت تتعلق بالتساؤل حول مدى «علمية» الاعتماد على التصريحات الشخصية التي يتم تجميعها في مقابلات الأبحاث الميدانية، واعتبارها وثائق صحيحة. والحالة هذه أنه لا يمكننا التأكد من كون المستجوبين يقولون الحقيقة. وجوابا على هذا

12- وهو النص المستقى من كتابه: (*The Unadjust girl*, Boston, Little Brown, 1923) الذي أثبته كل من إيف كريفماير وإسحاق جوزيف في كتابها السالف ذكره حول «مدرسة شيكاغو» وهو النص الذي سنثبت ترجمة له في القسم الرابع من هذا الكتاب.

13- *Ibidem.*

التساؤل كان طوماس يردد «**إذا ما اعتبر الناس بعض الوضعيات كوضعيات واقعية فإنها ستكون واقعية بنتائجها**[14]».

إن مفهوم «تعريف الوضعية» سيتضح أكثر من خلال تطبيقه في كتاب «الفلاح البولوني» حيث سيعمل زنانيكي وطوماس بالخصوص[15] على توظيفه في دراسة «وضعية» المهاجرين قبل وبعد الهجرة؛ وسينتهيان من خلال ذلك التوظيف إلى نتيجة مفادها أن الفرد يتصرف انطلاقا من البيئة التي يدركها والتي تحيط به أو يواجهها. إن الفاعل الاجتماعي الفرد يسعى في كل مقام يجد نفسه فيه إلى تحليل ذلك المقام انطلاقا من معارفه وتجاربه السابقة ومن مستلزمات القيم والثقافة السائدة الشيء الذي يوفر له القدر الكافي من المعلومات التي تساعده على تأويل ذلك الوضع وتعريفه والتصرف وفقا لذلك التأويل أو التعريف. ويرى طوماس وزنانيكي أن هذا الفاعل الاجتماعي غالبا ما يجد نفسه في الوضعية الحرجة التي تتجلى في تعارض تعريفه الذاتي للوضعية انطلاقا من وجهة نظره الخاصة مع التعريف الذي يعطيه المجتمع للوضعية نفسها. وهنا ينبه الباحثان إلى أن ما ينبغي أن يهتم به علم الاجتماع هو وجهة نظر الفاعل الاجتماعي، وانطلاقا من هذا التصور سيدعم طوماس مشروعية وعلمية الاعتماد على الوثائق الذاتية للمبحوثين (رسائل شخصية، مذكرات حميمية، سير ذاتية)

14- «*Si les gens considèrent certaines situations comme étant réelles, elles sont réelles dans leurs conséquences*» cf :

- W.I. Thomas & F. Zaniecki, *Fondation de la sociologie américaine (morçeaux choisis)*, préface et coordination de la traduction : Suzie Guth, éd. L'Harmattan, Paris, 2000, p. 322.

15- إن تعبير «تعريف الوضعية» هو تعبير استعمله طوماس بالخصوص، وذلك حتى قبل كتاب «الفلاح البيولوني».

لأنها هي أفضل ما يمكن أن يساعدنا على النفاذ إلى التأويل الذاتي للأشياء والمواقف، ومن ثم الوصول إلى إدراك الكيفية التي يعرف بها الأفراد وضعياتهم. والمهم بالنسبة لطوماس وزنانيكي هو «تعريف الوضعية» في حد ذاته، بغض النظر عن صحته أو خطئه لأن هذا التعريف في نهاية الأمر هو الذي يوجه الفاعلين الاجتماعيين في ممارساتهم وأفعالهم وهو صحيح ماداموا يعتبرونه كذلك[16]، لأنه هو ما يشكل مخيالهم وتمثلاتهم.

إن تعريف الوضعية حسب طوماس وزنانيكي يتخذ عدة أبعاد وينطلق دوما من القيم (أي الشروط الموضوعية للفعل) والمواقف والاستعدادت الفردية: «إن تعريف الوضعية يعني التصور الواضح إلى حد ما لشروط ودرجة الوعي بالمواقف. إن تعريف الوضعية شرط مسبق لكل قرار إرادي، ذلك أنه في ظل شروط معينة وبحسب طيف مواقف معينة هناك عدة اختيارات ممكنة للفعل، لا يمكن الحسم فيها إلا بعد استعراضها وتأويلها والمقارنة بينها، والفعل المفضل لا يتحقق إلا بعد التوصل إلى ضرب من الترتيب النسقي للمواقف، بحيث يمكن لواحد منها أن يهيمن على الأخرى.»[17]

إن هذا التصور هو ما جعل من مفهوم «تعريف الوضعية» مفهوما «أسعد» مقارنة مع مفاهيم طوماس وزنانيكي الأخرى، وذلك

---

16 - من اجل المزيد من التوضيح بصدد مفهوم تعريف الوضعية واستعمالاته يمكن الرجوع إلى:

- C. Javau, *Leçons de sociologie*, éd. Méridiens Klincksieck, Paris, 1988, pp 202- 209.
- P.J. Simon, *Histoire de la sociologie*, éd. Puf, Paris, pp 463- 471.

17- W. I. Thomas & F. Zaniecki, *Fondation de la sociologie américaine (morçeaux choisis)*, *Op. cit.* cf: «note méthodologique» pp. 95-96.

لأن تأثيره واستعماله لايزال ساريا في كل الكتابات السوسيولوجية ذات النفحة «الفهمية» أو التأويلية. بل إن ميرتون (Merton) ومن بعده ريمون بودون (R. Beudon) سيجعلان من هذا التعبير «مبرهنة» سمياها أحيانا «مبرهنة طوماس» (Théorème de Thomas) وأحيانا أخرى ونظرية «التنبؤ الخلاق» (Prédiction créatrice). وسيزدهر هذا المفهوم أكثر عند رواد ما أصبح يعرف اليوم ب «مدرسة شيكاغو الثانية» (هـ. بيكر، إ، كوفمان، وأ، ستروس) بل إننا نجد أن بيير بورديو يوظف بدوره هذا المفهوم لما بدأ يتبنى المناهج الكيفية في أبحاثه الأخيرة (ككتاب «بؤس العالم»).

إن الأهمية النظرية والمنهجية لهذا المفهوم (تعريف الوضعية) هي التي أعطته كل هذا الصدى والانتشار. فمن الناحية النظرية يمكن القول بأنه ساعد على تجاوز التعارض بين الواقع الموضوعي والواقع الذاتي وأيهما يجب أن يشكل موضوع العلم الاجتماعي. ذلك ان طوماس انتهى إلى أنهما واقعين فعليين، ومن الواجب على الباحث أن يأخذهما بعين الاعتبار سوية «هناك إذن في نظرية طوماس هذه، بالنسبة لتعريف الوضعية خطاطة نظرية على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للتحليل السوسيولوجي؛ فهذا الأخير لا ينبغي عليه أن يأخذ بعين الاعتبار الوقائع الموضوعية فقط، وعناصر وضعية اجتماعية ما كما يمكن أن تبدو لعالم الاجتماع من الخارج، وكما يمكنه أن يلاحظها، أو يسجلها، أو يكممها، ولكن عليه أن يأخذ بعين الاعتبار أيضا التمثلات الجماعية للفاعلين الاجتماعيين أنفسهم، والطريقة التي يدرك بها هؤلاء ويتمثلون ويعرفون الوقائع الموضوعية. إن على عالم الاجتماع -حسب بورديو الذي يعيد نظرية طوماس بتعبير آخر- أن يدخل في الواقع التمثلات عن الواقع [18]»

18- P. J.Simon, *Op. cit.* p. 466.

وسيكون لنظرية طوماس هذه تأثير واضح ومستمر على منهجية علم الاجتماع، ذلك أن الباحث الاجتماعي قبل أن ينطلق للميدان عليه أن يكون على وعي بنسبية النظر للواقع، أي أن يتوقع دائما أن للفاعلين الاجتماعيين آراءهم المتباينة والمختلفة باختلاف «وضعياتهم» وأن عليه أن يعمد إلى «النفاذ إلى هذه الآراء وهذه التعاريف المتباينة للواقع، وهذا ما يستوجب عليه أن يعمل و يشتغل في البيئة التي تجري فيها هذه الأفعال أي في وضعياتها الطبيعية[19]»

وعلى الصعيد المنهجي فإن هذا التحليل السوسيولوجي الذي يعتمد «تعريف الوضعية» انطلاقا من وجهة نظر الفاعل الاجتماعي لايزال علماء الاجتماع يعترفون بجدته وخصوبته، ولازالوا يعترفون بالفضل لصاحبه، خصوصا لما يتعلق الأمر بالبحث الاجتماعي الذي يختار مقاربة موضوعه اعتمادا على المناهج الكيفية التي تبدأ بتقنية المقابلة، ففي هذه الحالة فإن على عالم الاجتماع كما يقول كلود ديبار (C. Dubar) وديديي دومازوديه (D. Demazedier) : «أن يعتبر الناس الذين يتحدثون للباحث ك «ذوات» يعبرون من خلال حوار مطبوع بالثقة، عن تجربتهم وقناعاتهم ووجهات نظرهم وتعاريفهم لوضعياتهم المعيشة. إن تعبير «تعريف الوضعية» الذي أتى به للسوسيولوجيا وليام إسحاق طوماس في بداية هذا القرن [القرن 20]، أساسي لفهم الوضع الذي نعطيه لكلام الناس. وبالفعل فإن المقابلات لا تعطينا أبدا «وقائع» وإنما «كلمات». إن الكلمات تعبر عما عاشته أو تعيشه

19- I. Bazanger, *Les chantiers d'un interactionnisme américain,* in : Introduction à «La trame de la négociation» d'A. Strauss, *Op. cit*, p. 13.

الذات، ووجهة نظرها عن «العالم» الذي هو «عالمها» والذي تعرفه بطريقتها، وفي نفس الوقت وبقدر ما تبجل تلك النظرة تسعى لإقناع مستجوبها بصلاحيتها. إن اكتشاف هذه «العوالم» هو ما تتوخاه مقابلات البحث الموجهة للأفراد الذين قبلوا الحوار[20]».

3-2 - سوء التنظيم الاجتماعي وإعادة التنظيم

إذا كانت مفاهيم «القيم الاجتماعية» و«المواقف الفردية» و«تعريف الوضعية» مفاهيم تلتقي بشكل أو بآخر بالإشكالية المنهجية التي تحيل دوما على مسألة الطريقة الأنسب لمقاربة وفهم «الموضوع الاجتماعي»، فإن مفهومي «سوء التنظيم الاجتماعي» (Désorganisation sociale) و«إعادة التنظيم الاجتماعي» (Réorganisation sociale)، هما مفهومان إجرائيان أكثر، لأن توظيفهما في كتاب «الفلاح البولوني» سيكون أوضح وأبرز، وذلك ما يتجلى بشكل قوي في ثنايا هذا الكتاب الذي يتكون من أربعة أقسام أساسية وهي:

— تنظيم الجماعة الأولية؛
— سوء التنظيم وإعادة التنظيم في بولونيا؛
— التنظيم وسوء التنظيم في أمريكا؛
— حكاية حياة مهاجر في أمريكا.

إن سوء التنظيم يستدعي إعادة التنظيم، ولذلك غالبا ما نجد المفهوم الأول يستعمل للإشارة إلى التفكك الفردي أو الجماعي. والانحراف وغياب الرقابة أو ضعف الضبط الاجتماعي، بينما

20- D. Demazedier & C. Dubar, *Analyser les entretiens biographiques*, éd. Nathan, Paris, 1997, p. 7.

«إعادة التنظيم» يعني السيرورة التي من خلالها وبها يتم الاندماج والادماج، والانصهار والعودة إلى «السواء». أي العودة في نهاية الأمر إلى التنظيم (L'organisation). إن هذه المفاهيم الثلاثة المترابطة لاشك أنها قد تشكلت من خلال البحث الميداني ومن خلال تحليل الكم الهائل من الوثائق الشخصية التي جمعها الكاتبان والتي اثبتا جزء هاما منها في فصول الكتاب لتوضيح كيف تتم وتتناوب حالات «التنظيم» و«سوء التنظيم» و«إعادة التنظيم».

يتناول الجزء الأول من الكتاب الأسرة الممتدة التقليدية في بولونيا، وعاداتها وتقاليدها، وطبيعة نظامها الاقتصادي والسياسي، وكذلك العوامل التي ساعدت على تفكيك التنظيم الفلاحي التقليدي، وساعدت بالتالي على انطلاق تيار الهجرة من القرى البولونية في اتجاه البلدان الأوروبية الأخرى وأمريكا. ومن خلال تحليل وضعية المهاجرين البولونيين في مكان الانطلاق. وسينتهي الكاتبان إلى أن كل فرد ينخرط في تيار الهجرة ينخرط أيضا وفي نفس الوقت في سيرورة «الفردنة»، ويشرع في الابتعاد تدريجيا عن الأسرة الممتدة، والاتجاه نحو الاهتمام بنفسه أكثر، وبذلك تتقلص الأسرة التقليدية ويتقلص تأثيرها، وينتهي المهاجرون إلى بناء أسر من النمط الحديث.

إن «التنظيم الاجتماعي» يعني في جوهره مجموعة من التوافقات، والمواقف والقيم الجماعية المشتركة، التي تتميز بأولويتها أمام المصالح والحاجات الفردية. وعلى العكس من ذلك فإن «سوء التنظيم الاجتماعي» حسب الكاتبان هو: «ضعف وتراجع تأثير القواعد الاجتماعية السائدة بين أفراد الجماعة»[21].

21- W. I. Thomas, F. Znaniecki, *fondation de la sociologie*….*Op. cit*. p.

إن «سوء التنظيم الاجتماعي» ليس ظاهرة استثنائية خاصة ببعض المجتمعات أو الأزمان، بل هو ظاهرة نجدها في كل مكان وزمان، ولكنها تتقوى وتستفحل في المجتمعات أو الجماعات التي تعرف تغيرات اجتماعية أو اقتصادية أو صناعية سريعة. بدأ «سوء التنظيم الاجتماعي» في الانتشار والاستفحال في المجتمع البولوني - حسب طوماس وزنانيكي - لما بدأ الأفراد يعرفون وضعياتهم انطلاقا من معايير اقتصادية، ودينية، وفكرية، بدل المعايير الاجتماعية التقليدية، ونتيجة لذلك تفقد القواعد الاجتماعية قوتها، وتطغى الرغبة في النجاح الفردي وإعطاء قيمة أعظم «للنقد» على الرغبة في الاعتراف الاجتماعي.

فما العلاقة إذن بين الهجرة و«سوء التنظيم الاجتماعي»؟

إن سوء التنظيم الاجتماعي يحدث في طرفي مجال الهجرة، فكما أن المجتمعات القروية التقليدية تتفكك، وتكون الهجرة نتيجة ذلك التفكك، فإن هذه الهجرة بدورها تصبح مصدرا للتفكك الاجتماعي في الوسط الحضري المستقبل وذلك نتيجة للارتفاع السريع للكثافة السكانية في هذا الوسط وما تنتجه من تغيرات اجتماعية سريعة. وهكذا فإن الهجرة التي تأتي نتيجة ل «سوء التنظيم الاجتماعي» تفضي سواء في المجال القروي أو المجال الحضري إلى مزيد من «سوء التنظيم الاجتماعي».

من خلال دراسته للمجموعات البولونية في أمريكا «اندهش طوماس لكثرة مشاكل «سوء التنظيم الاجتماعي» التي كانت تؤدي بدورها إلى صراعات داخل الأسرة بل وحتى إلى جرائم. وسيعزو طوماس هذه الظواهر للهوة القائمة بين التعاريف الأولية التي يتم وضعها داخل دائرة الأسرة، وبين التعاريف الثانوية التي يتم الالتقاء

بها في المجموعة.[22]» ومن ثمة يميز طوماس وزنانيكي بين نوعين من «سوء التنظيم»: سوء التنظيم الأسري، وسوء تنظيم المجموعة. ولذلك يقر الكاتبان «أنه حيثما حلت هجرة وافدة (immigration) فإن انحلال الأسرة يتزايد وذلك بالمقارنة مع الجماعات التي يظل أعضاؤها متوحدين ترابيا ويعيشون في نفس الشروط التي عاش فيها أجدادهم. وبالفعل فإن التفحص السريع للوثائق التي نشرناها في الأجزاء السابقة يبين بوضوح بأن الهجرة الفردية لبعض أعضاء الأسرة في اتجاه بلد أجنبي، وهجرة الأسرة بكاملها من القرية إلى المدينة هما العاملان الرئيسيان في سوء التنظيم الأسري[23].»

إن سوء التنظيم الأسري هذا يصيب الأسرة في مكان وصول الهجرة كما يصيبها في مكان انطلاقها «إن المواقف التي تعزز سوء التنظيم الأسري لا تظهر فقط لدى أفراد الأسرة المنتقلة للخارج أو للمدينة، ولكن أيضا حتى لدى العديد من الذين يعيشون في البادية، وفي مجموعاتهم التقليدية، وهذا يعني أن التأثيرات التي تمس حياة أسرة ما في المدينة أو الخارج لا بد وأن تكون لها مفاعيل في المجموعة القروية»[24]. إن هذه المجموعة القروية تتفكك بفعل ظهور وانتشار أنماط جديدة من الاستهلاك والقيم، وبدء تلاشي دور الرأي العام المحلي (الضبط الاجتماعي)، وضعف وانهيار قيم التضامن الجماعي، ومن جهة أخرى فإن سوء التنظيم الأسري في مكان الوصول (أمريكا) سيؤدي إلى التفقير والانحراف، وحتى الإجرام.

22- C. Bachmann, J. Lindefeld, J. Simonin, *Langage et communications sociales*, éd. Hatier/ Didier, Paris, 1991, p. 123.

23- W. I. T. Thomas , F. Znaniecki, *Op. cit*; p. 215.

24- *Ibidem.*

ولكن سوء التنظيم الاجتماعي الناجم عن الهجرة لا يستمر إلى ما لا نهاية. فكما هو الشأن بالنسبة لمفهوم «الأنومي» (l'anomie) فإن حالة «سوء التنظيم الاجتماعي»عند طوماس وزنانيكي هي حالة مؤقتة، وذلك ما يتجلى من خلال رد فعل المجموعة المهاجرة التي تسعى جاهدة إلى إعادة تنظيم نفسها (réorganisation) من خلال إنتاج قواعد وقيم جديدة تتلاءم مع واقعها الجديد، وهنا يتم اللجوء إلى القيم الدينية بالخصوص لأنها هي الأقل عرضة للتغيير. وفي هذا الإطار تلعب التربية والتعليم، وتنظيم السكن اعتمادا على الانتماءات العرقية، والصحافة المكتوبة باللغة الوطنية، دورا حاسما في ما يسميه طوماس «دورة التحول» والتي تنتهي إلى الادماج من خلال خلق وتبني نموذج تنظيمي جديد، وهوية جديدة. إن «إعادة التنظيم» تأخذ شكل خليط مزدوج، ذلك أن معيار اندماج الهجرة البولونية في أمريكا ينطلق أولا من خلال تكوين «مجتمع أمريكي - بولوني»، وهو مجتمع ليس بولونيا خالصا ولا أمريكيا خالصا، ولكنه يشكل الإطار الذي يسمح بانصهار الأجيال القادمة، ولهذا كان طوماس وزنانيكي يريان ضرورة تشجيع مثل هذه المؤسسات المختلطة والمؤقتة. إن الانصهار الذي يبدو حتميا يمر بعدة مراحل ويجب خلق المؤسسات المساعدة على تحقيقه. ولكن الانصهار حسب طوماس هو بالأساس سيرورة سيكلوجية، ولذلك يعتقد أنه لن يتحقق إلا إذا انتهى المهاجر البولوني إلى إعطاء نفس الأهمية والاهتمام لنفس الأشياء وبنفس القدر تماما كما الإنسان الأمريكي الأصل. أي أن يصبح عضوا في جماعته الجديدة.

إن الغاية من التطرق لبعض آراء وأفكار وليام طوماس وزنانيكي في كتابهما «الفلاح البولوني» هي الرغبة في التأكيد على شيئين أساسيين:

أولا مساهمتها الواضحة في تأسيس البحث السوسيولوجي الميداني، وذلك انطلاقا من وجهة نظر تفاعلية رمزية واضحة. وهي وجهة النظر التي سيتبناها الكاتبان معا والتي جاءت كرد فعل تجاه الاتجاه الوضعي السائد في فرنسا بالخصوص.[25] ويمكن هنا التذكير بموقفهما الواضح هذا حيث يؤكدان على أنه: «في التفاعل المستمر بين الفرد وبيئته لا يمكننا القول إن الفرد هو نتيجة لوسطه، ولا هو منتج هذا الوسط، والأولى أن نقول بأن الأمر يتعلق بهما معا. لأن الواقع هو أنه لا يمكن للفرد أن يتشكل إلا تحت تأثير بيئته، ولكن ومن جهة أخرى فإن هذا الفرد وهو في مسار نموه يغير هذه البيئة، وذلك من خلال تعريفه للوضعيات والتصرف إزاءها حسب رغباته واستعداداته»[26]. وبذلك تعتبر سيزي كوت (Suzie Guth) أن الموقف المنهجي الأكثر خصوبة في فكر وممارسة طوماس بالخصوص هو حرصه الشديد على ضرورة تحليل أي وضعية اجتماعية من وجهة نظر الفاعل، وبذلك ساهم في ترسيخ المقاربة التفاعلية في السوسيولوجيا.

وثانيا لأن هذين العالمين أسسا من خلال هذا الكتاب «سوسيولوجيا الهجرة والتحضر»، وأسسا منهجية خاصة بتناولها (تحليل الوثائق الشخصية والسير الذاتية)، ونحتا أهم المفاهيم المساعدة على دراستها: المواقف الفردية، القيم الجماعية،

25- تقول سيزي كوت (Suzie Guth) في تقديمها لكتاب «تأسيس السوسيولوجيا الأمريكية»: «إن زنانيكي هو الذي رغب في كتابة المقدمة المنهجية للكتاب (الفلاح البولوني) لأنه سبق له أن تابع في باريس دروس برجسون (Bergson) ودوركهايم وكان يريد أن يتخذ موقفا مما تعلمه منهما» انظر تقديم كتاب مختارات ل: طوماس وزنانيكي:

-*la fondation de la sociologie américaine*, *Op. cit*, p. 27.

26- *Ibidem.*

تعريف الوضعية، التنظيم الاجتماعي، وسوء التنظيم الاجتماعي، وسيرورة الادماج والانصهار.

ونتيجة لكل ذلك سيكون لوليام طوماس وزنانيكي تأثير على السوسيولوجيا الأمريكية كلها، وكذلك على طريقة تناولها للسواء والمرض في المجتمع بحيث أننا ننتهي من خلال قراءاتنا للحالات الواقعية العديدة التي يسوقها طوماس بالخصوص في مختلف كتاباته الأخرى إلى أن «أن الفرق بين السواء والمرض هو فرق في الدرجة فحسب، أو في اختلاف الوضعية أثناء تعريف الوضعية[27].»

إن هذا الإرث الفكري الذي سيخلفه طوماس لجامعة شيكاغو سيتم الاعتناء به وتطويره من طرف عدة علماء اجتماع يعتبرون كلهم تلامذة لطوماس ومنهم بالخصوص روبرت بارك، وإرنست بيرجس، ولويس وورث، وتلامذتهم من بعدهم.

27- *Ibid*, p 323.

27- Ibid. p 323.

الفصل الثامن

المقاربة الأيكلوجية للتحضر والهجرة: روبرت بارك

لا يمكن ذكر مدرسة شيكاغو دون أن يتبادر إلى الذهن اسم روبرت إرزا بارك (Robert Erza Park)، الذي سيخلف طوماس في رئاسة قسم علم الاجتماع بعد التقاعد الإجباري لهذا الأخير في شهر أبريل 1918[1]، وسيتمكن من فرض نفسه كرائد فكري لما سيسمى فيما بعد «مدرسة شيكاغو» التي ستشهد نشأتها وازدهارها الفعلي طيلة المدة التي قضاها بجامعة شيكاغو أي من 1914 إلى 1935؛ في هذه الفترة سيتم إنجاز ونشر سلسلة من المقالات والمونوغرافيات (دراسات ميدانية) ذات الصلة بالحياة الحضرية والتي انخرطت كلها -ولأول مرة في تاريخ السوسيولوجيا- في إطار مشروع بحثي جماعي، وكل شهادات العلماء الذين عاصروا روبرت بارك يؤكدون أنه سخر كل جهده وفكره من أجل هذا

1- عرفت الحياة المهنية لوليام إسحاق طوماس حدثا أوقفها وهو في عز عطائه العلمي، ذلك أنه أجبر على تقديم استقالته وترك جامعة شيكاغو على إثر فضيحة أخلاقية (لا يدري كاتبو سيرته مدى صحتها). ذلك أن طوماس «ضبط في غرفة بأحد الفنادق برفقة مشبوهة مع زوجة أحد الضباط العاملين في الجيش الأمريكي بفرنسا في إطار الحرب العالمية الأولى»، ونتيجة لهذه «الفضيحة» تم التشطيب على اسمه من الجامعة. ورغم اشتغاله في جامعة هارفارد بعد ذلك وقيامه بأبحاث أخرى، إلا أن تألقه الجامعي سيخبو نتيجة لهذا الحادث. انظر تفصيل ذلك في:

- J.M. Chapoulie, *La tradition sociologique de Chicago*, *Op. cit.* pp. 83-84.

المشروع الذي كان منفذوه بالأساس هم طلبته بقسم علم الاجتماع بجامعة شيكاغو. ولتجلية هذا المجهود الفكري سنعمل في الفقرات التالية على تناول مسألة أساسية تتعلق بموضوع دراستنا هذه ألا وهي المقاربة الأيكلوجية لظاهرتي التحضر والهجرة والتي تعتبر من طرف الدارسين أهم ما يميز سوسيولوجيا روبرت بارك.

إلا أننا قبل ذلك نرى من المفيد التذكير بالمسار الفكري للأب الروحي لمدرسة شيكاغو.

1. روبرت بارك: من الفلسفة إلى الصحافة، ومن الصحافة إلى علم الاجتماع

ولد بارك في بينسيلفانيا (Pensylvanie) سنة 1864 في أسرة متوسطة بحي يتكون أساسا من المهاجرين الفلاحين النرويجيين بمدينة مينوسيتا (Minnesota) الصغيرة. وسيلتحق بجامعة ميشيكان (Michigan) حيث سيتابع دراسة الفلسفة وخصوصا الفلسفة البراجماتية على يد جون ديوي. وبعد حصوله على شهادة «باكالوريوس الفلسفة» اتجه ابتداء من سنة 1887 إلى عالم الصحافة الذي سيتمكن من خلاله من التعرف على مختلف مناحي الحياة الحضرية وخصوصا في مدينة نيويورك حيث سيتم تكليفه من طرف الصحيفة التي كان يشتغل بها بتتبع «الأحداث المختلفة» التي يتخصص بمعالجتها أحد مراكز الشرطة. وستقوده تجاربه الصحافية حسب قوله «إلى اعتبار المدينة لا مجرد ظاهرة جغرافية، وإنما كنمط من التنظيم الاجتماعي». وسينتقل كصحافي دائما في عدة مدن أمريكية أخرى وبالخصوص ديترويت (Detroit) وشيكاغو. وبعد ثماني سنوات قضاها في الصحافة لم يقتنع بارك

بضرورة الاستمرار في ممارستها ولذلك سينتقل إلى الجامعة من جديد لسيستأنف دراسة الفلسفة وعلم النفس بجامعة هارفارد. وهنا سيلتقي وليام جيمس الذي سيكون تأثيره قويا عليه ومن ثم ستتشكل لديه الرغبة في أن يصبح أستاذا للفلسفة. وبعد سنة في هارفارد سيسافر بارك إلى ألمانيا التي كانت تعتبر بالنسبة للنخبة المثقفة آنذاك هي مكان «التخصص العالي واستكمال التكوين الفلسفي»، وسيتنقل بين برلين وستراسبورغ وهيدلبرغ (Heidelberg). وبهذه المدينة الأخيرة سيلتقي بجورج سيمل الذي سيهيء تحت إشرافه أطروحة للدكتوراة عن «الجمهور والاشهار» سنة 1903. وبعد عودته لأمريكا سيتقلب في عدة مناصب وسيشتغل في عدة جمعيات إصلاحية وخصوصا تلك المهتمة بوضعية السود في أمريكا وإفريقيا.

وفي سنة 1905 سيصبح كاتبا لإحدى الجمعيات التي يسيرها أحد زعماء حركة السود في أمريكا وهو بوكر واشنطن (Booker Washington). وفي إطار هذه الجمعية التي كانت تدعى «جمعية الإصلاح في الكونغو» (Congo reform association) سيتمكن بارك من التعرف على حالة السود في أمريكا وإفريقيا، وسيشارك في كتابة مؤلفات ومقالات عن وضعيتهم، وذلك بعد زياراته المتعددة لأحياء السود في مختلف المدن الأمريكية وزيارته للكونغو. وفي إحدى الندوات الدولية التي نظمتها هذه الجمعية عن وضعية السود سيلتقي وليام طوماس بروبرت بارك، ونتيجة للانطباع الجيد الذي تركته المداخلة التي ألقاها هذا الأخير في هذه الندوة، سيتخذ طوماس المبادرة لإلحاقه بجامعة شيكاغو ليعطي دروسا حول «السود في أمريكا» بقسم علم الاجتماع، ابتداء من

1913، وهو في التاسعة والأربعين من العمر وذلك بعد أن راكم تجربة مهمة في ثلاث مجالات أساسية هي: الظواهر الحضرية، العلاقات بين الأجناس، والتحقيق الصحفي الذي كان يسعى من خلاله إلى محاولة تتبع كيف تنتشر الأخبار وتتكون السلوكات الجماعية.

ونظرا لهذه الخلفية الفكرية والميدانية الغنية سيصبح روبرت بارك بعد التحاقه بالجامعة عالم الاجتماع الأكثر استقطابا للاهتمام بها، ومنذ 1915 سيكتب مقالته التي لازال يشتهر بها حول المدينة وكيفية دراستها «برنامج البحث السوسيولوجي حول المدينة» والتي نشرها في «المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع»، وسينشر بعد ذلك في سنة 1921 كتاب «مدخل لعلم السوسيولوجيا» الذي ألفه بالاشتراك مع ارنست بيرجس، والذي سيعتبره طلاب علم الاجتماع إلى حدود 1943 «الإنجيل الأخضر» (لأن غلاف الطبعات الأولى من الكتاب كان أخضرا). ومن خلال هذين العملين الفكريين سيدخل بارك تاريخ السوسيولوجيا.

وسيشكل مقال «برنامج البحث السوسيولوجي حول المدينة[2]» والذي كتبه بارك بطلب من وليام طوماس (والصادر بالمجلة الأمريكية لعلم الاجتماع سنة 1916) برنامج اشتغال طلبة بارك اللذين سيعملون على تحقيقه وإنجازه من خلال انكباب كل واحد منهم على موضوع محدد. ولذلك اعتبر تيودور كابلوف (Théodore Caplow) هذا المقال بمثابة «إعلان برنامج مدرسة شيكاغو، وسيضع بارك هذا البرنامج قيد التنفيذ وبحماس لا مثيل

2- R. E. Park, «La ville, propositions de recherche sur le comportement humain en milieu urbain» in : *L'école de Chicago*, *Op. cit*, pp. 79-126.

له، وستنجز سلسلة طويلة من الأبحاث عن شيكاغو بإدارة بارك ونشرت في منشورات جامعة شيكاغو، وكانت المواضيع تتضمن: السكان المشردون (بدون ماوى)، وتفكك التنظيم العائلي، وعصابات الأحداث الجانحين، والغيتو، والانتحار، ومناطق السكن الغنية والفقيرة في الضاحية الشمالية، ومناطق الجنوح القوي، وفتيات التاكسي، والعائلة الزنجية، وتنظيم الدعارة، والتوزيع الجغرافي للآمراض العقلية[3].» ولذلك يمكن القول بأن المساهمة السوسيولوجية لبارك لم تتم من خلال مؤلف كبير ودقيق مثل كتاب طوماس «الفلاح البولوني» وإنما من خلال سهره على تحقق البرنامج الذي وضعه للدراسات المتعلقة بالتحضر والهجرة وسوء التنظيم الاجتماعي بالمدينة، وذلك ما سنحاول تناوله من خلال عرض بعض الآراء والنظريات التي بناها بارك والتي كان لها تأثير وصدى في الأبحاث والدراسات السوسيولوجية الحضرية اللاحقة.

2 - رويرت بارك واستلهام النموذج الأيكلوجي

في إطار سعيه لإحداث قطيعة مع التصور «غير العلمي» الذي كان سائدا في فترة ازدهار وانتشار تيار التحقيقات الاجتماعية التي واكبت حركة الإصلاح الاجتماعي سيعمد روبرت بارك على غرار رواد مدرسة شيكاغو الآخرين إلى تبني نموذج معرفي جديد كفيل بالمساعدة على معرفة الواقع الحضري معرفة «علمية» وذلك بغاية التمكن من فهم هذا الواقع والسيطرة عليه. وهذا النموذج

3- تيودور كابلوف، «البحث السوسيولوجي»، تعريب نجاة عياش، دار الفكر الجديد، بيروت، 1979، ص: 21.

المعرفي الجديد كان هو الأيكلوجيا التي سيعتبر روبرت بارك أنها العلم الأقرب إلى الواقع الإنساني، فكيف التقى بارك بالأيكلوجيا وكيف عمل على توظيف مفاهيمها في دراسة التحضر والهجرة؟

في مدخل مقالة له بعنوان «المجموعة الحضرية: نموذج مجالي ونظام روحي» يوضح بارك كيف التقى بالأيكلوجيا بقوله: «منذ ثلاثين سنة أصدر البروفيسور أوجينيوس وارمينغ (Eugénius Warming) من كوبنهاجن مؤلفا صغيرا أسماه «المجموعات النباتية». وتلفت ملاحظاته الانتباه إلى واقع أن مختلف الأنواع النباتية تسعى إلى التشكل في جماعات قارة أطلق عليها اسم مجموعات (Communautés). وهكذا يبدو أن عددا كبيرا من خصائص الكائنات الحية، التي تنمو باستمرار، تتعرض لتحولات خاصة قبل أن تتحطم في النهاية لتستبدل بمجموعات أخرى مختلفة عنها تماما. إن هذه الملاحظات ستشكل نقطة الانطلاق لسلسلة من الأبحاث التي استأنسنا بها والتي أصبحت تعرف تحت اسم «أيكلوجيا»»[4].

إن الأيكلوجيا انطلاقا من هذا المنظور وباعتبارها تسعى أيضا إلى وصف «التوزع الفعلي للنباتات والحيوانات على ساحة البسيطة هي من دون شك، ومن وجهة نظر خاصة، علم جغرافي. ولكن الأيكلوجيا الإنسانية بالمعنى الذي يحرص علماء الاجتماع على إعطائه لها لا تختلط لا مع الجغرافيا ولا حتى مع الجغرافيا البشرية. إن ما يهمنا نحن هو المجموعة أكثر من الإنسان الفرد، والعلاقات بين الناس أكثر من علاقاتهم مع الأرض التي يعيشون عليها»[5]

4- R. E. Park, «La communauté urbaine, modèle spatial et ordre moral», in *L'école de Chicago,Op. cit*, p. 193.

5- *Ibidem.*

وفي مقال له بعنوان «الأيكلوجيا الانسانية» يوضح بارك مرجعيته التي تعتمد على أعمال الطبيعيين وبالخصوص داروين، يقول: «إن المبدأ النشيط في تنظيم وتقنين الحياة في مجال الطبيعية الحية، كما وضعه داروين أي مبدأ الصراع من أجل الحياة، ومن خلال هذا المبدأ يتم تقنين وتحديد عدد العضويات الحية، كما يتم توزيعها بشكل مضبوط، وبذلك يتم الحفاظ على التوازن الطبيعي(...) وفي النهاية فإن الباقين بعد الصراع يجدون عُشهم في المحيط الطبيعي وفي العلاقة الترابطية القائمة، أي في تقسيم العمل بين مختلف العناصر (...) إن هذه التمظهرات الخاصة بكل نظام حي ومتغير والدائم مع ذلك من خلال التنافس والصراع بين مختلف العضويات الحية، يمكن القول بأنها تشكل القاعدة التي يمكننا من خلالها فهم وتصور نظام اجتماعي مفارق للنوع الفردي، ومجتمع قائم على أساس قاعدة بيولوجية أكثر منها ثقافية»[6]. إن هذا التصور يعني أن انتقال الجماعات الإنسانية من مكان لآخر وصراعها مع بعضها شبيه إلى حد ما بما يجري على مستوى المجموعات الحيوانية، والنباتية التي تتصارع وتتنافس من أجل العيش والبقاء.

وهكذا، وكما يلاحظ ذلك ب.ج. سيمون فإنه لا يمكن للدارس إلا أن يسجل أنه «على المستوى النظري فإن إشكالية علماء اجتماع شيكاغو تتمحور حول «الأيكلوجيا الإنسانية»، وعلى التفاعلات بين الناس والوسط الطبيعي، وكذا التفاعلات بين الجماعات في وسط جغرافي معين. إن المفهوم الأساس

6- Cité in :J. Rémy, L. Voyé, *la ville et l'urbanisation*, *Op. cit*, p. 165.

عندهم هو المجموعة الأيكلوجية»[7]. وتبني هذا التصور يعني من وجهة نظر بارك «أن كل تجمع إنساني يسعى لتنظيم نفسه على المستوى المادي والروحي بطريقة طبيعية، أي دون اللجوء لمساعدة الناس، على الأقل في مرحلة أولى. ولذلك فإن المنطلق الإفتراضي الأساسي لهذا العلم الجديد (الأيكلوجيا الإنسانية) يقتضي الإقرار بأن المدينة كائن عضوي طبيعي (...) شبيه بالعضوية الحية كما تعرفها البيولوجيا وتدققها الأيكلوجيا[8]». إن هذا التأثر بالأيكلوجيا سيجعل كل سوسيولوجية روبرت بارك مطبوعة بنزعة «طبيعوية» (naturaliste) الشيء الذي انتهى به إلى الاقتناع بضرب من «الحتمية الطبيعية»[9].

إن المدينة من هذا المنظور الأيكلوجي تبدو إذن كمجال قابل للدراسة الوضعية، ولهذا انتهى إرنست بيرجيس (Ernest Burgess) الرائد الثاني لمدرسة شيكاغو إلى اعتبار البحث الحضري أهم ما يميز النظرية السوسيولوجية الحديثة، ولهذا كان يؤكد: «إن قناعتي الصارمة بعد ربع قرن من البحث الحضري هي أن النسق المفاهيمي المستعمل في الدراسات الحضرية يجب أن يغطي حقل النظرية السوسيولوجية بأكمله»[10]. إن اعتبار المجال الحضري مختبرا اجتماعيا والمجال الأنسب لدراسة الظواهر والمؤسسات الاجتماعية، يأتي لأسباب وجيهة يلخصها بارك بقوله:

7- P.J. Simon, Histoire de la sociologie, *Op. cit.* p. 454.

8- M. Xiberras, *Les théories de l'exclusion*, éd. Armand Colin, 1998, p. 82

9- Y. Schemeyel, «d'une sociologie naturaliste à une sociologie politique: Robert Park», *Revue Française de sociologie*, XXIV, 1983.

10- Cité in R. Duchac, *Op. cit.* p. 7.

«ومن بين الدواعي التي تجعل من المدينة مجالا مناسبا جدا لدراسة مؤسسات الحياة الاجتماعية على العموم، هو أن هذه المؤسسات تنمو وتتطور بسرعة في شروط الحياة الحضرية. إنها تتطور تحت أنظارنا: إن سيرورة نموها قابلة للملاحظة، وللتجريب في نهاية الأمر.

ومما يجعل المدينة المجال الأنسب لدراسة الحياة الاجتماعية ويمنحها صفة المختبر الاجتماعي، هو أنه في المدينة تصبح كل خاصية من خصائص الطبيعة الانسانية غير قابلة للرؤية فحسب ولكن مكبرة أيضا.

وفي جو الحرية الخاص بالمدينة، يجد كل فرد وكيفما كانت أطواره مجالا ما حيث ينشرح وينبسط، وحيث يمكنه أن يعبر بشكل من الأشكال عن خصوصية طبيعته. إن المجموعة الصغيرة يمكنها أحيانا أن تقبل خروجه عن المعتاد ولكن المدينة تكافؤه على ذلك في الغالب. ومن دون أدنى شك فإن أحد عوامل جذب مدينة ما هو أن كل نوع من الأفراد فيها -المجرم، المتسول، والإنسان العبقري أيضا- يمكنه أن يجد في مكان ما الرفقة التي تلائمه، بحيث أن العيوب أو المواهب التي كانت مكممة في الدائرة الحميمية للأسرة، أو في الحدود الأضيق لمجموعة صغيرة ما، تجد هنا المناخ الروحي المناسب لتفتحها وازدهارها.

والنتيجة هي أن كل المطامح الخفية وكل الرغبات المكبوتة تجد فرصة ما للتعبير عن نفسها في المدينة. إن المدينة تضخم وتنشر وترسخ مظاهر الطبيعة الانسانية الأكثر تنوعا. وهذا ما يجعل دراسة المدينة مهمة بل مغرية. وهذا أيضا هو ما يجعل منها المكان الأنسب بامتياز لاكتشاف أسرار القلب الانساني ودراسة الطبيعة

الانسانية والمجتمع »[11]. ولهذا يعتبر روبرت بارك كغيره من مفكري عصره أن «المدينة هي السكن الطبيعي للإنسان المتحضر، ففي المدينة تطورت الفلسفة والعلم، ليجعلا من الإنسان، ليس حيوانا عاقلا وحسب، وإنما حيوانا رفيعا. وهذا يعني في المقام الأول، أنه في الوسط الحضري -أي في عالم من صنع الإنسان- وصل هذا الإنسان ولأول مرة إلى حياة فكرية واكتسب الخصائص التي تميزه أكثر عن الحيوانات الدنيا وعن البدائيين. وبالفعل فإن المدينة والبيئة الحضرية يمثلان وبكل المقاييس المحاولة الأكثر انسجاما، والأكثر نجاحا، من أجل تغيير عالمنا الذي نعيش فيه وفقا لرغبتنا الخاصة. ولكن إذا كانت المدينة هي العالم الذي خلقه الإنسان، فإنها أيضا هي العالم الذي أصبح محكوما على هذا الإنسان أن يعيش فيه من الآن فصاعدا. وهكذا وبطريقة غير مباشرة، وبدون أن يكون لديه وعي واضح بطبيعة ما أنشأه، فإن الإنسان من خلال خلقه للمدينة قد أعاد خلق نفسه من جديد.

وبهذا المعنى وفي هذا الإطار يمكننا اعتبار المدينة مختبرا اجتماعيا»[12].

إن نظرة بارك للمدينة وتمجيده للحياة الحضرية واعتبارها تمثل مرحلة أسمى في تاريخ الإنسانية، لم يمنعه مع ذلك وعلى غرار سائر علماء الاجتماع الحضري في الماضي والحاضر، من تبني نظرة مزدوجة للمدينة، فهي في نفس الوقت مجال التقدم والرخاء والحرية ونمط العيش الأفضل، ولكنها كما أشرنا لذلك من قبل هي مجال المعدلات الأعلى في الجريمة والإنحراف وسوء التنظيم الاجتماعي.

11- R. E. Park, «La ville comme laboratoire social», in Y. Grafmeyer et al. *L'Ecole de Chicago*, *Op. cit.* p. 179.

12- *Ibid.* p.163.

إن هذه المدينة نفسها بالنسبة لبارك وغيره من علماء اجتماع شيكاغو ليست مدينة «واحدة»، متجانسة، بل هي عبارة عن «فسيفساء» اجتماعية، وذلك ما يعبر عنه بارك من منظور أيكلوجي واضح بالمناطق الطبيعية أو المناطق الروحية في المدينة (Régions naturelles ; régions morales). ومن خلال استعراضنا لكيفية تصور واستعمال هذا المفهوم ستتضح لنا أكثر ملامح السوسيولوجيا الحضرية كما كان يتصورها ويمارسها روبرت بارك.

3 - بارك والمنظور الأيكلوجي للمدينة (المناطق الطبيعية)

من خلال استلهام «الفرضية المنطَقية» (L'hypothèse zonale) التي تقول بإمكانية «القراءة الطبغرافية» للظواهر الاجتماعية والتي وضعها صديقه أرنست بيرجيس(E. Burgess) في مقالة شهيرة عن «نمو المدينة»[13]، سيعمد روبرت بارك بدوره إلى اعتماد ذات المقاربة من خلال القول بأن المدينة في بعدها الأيكلوجي تنقسم إلى عدة مناطق متجاورة، وفي هذه المناطق تعيش «المجموعة الحضرية»، التي يعتبرها بارك مجموعة مجالية، وجغرافية وروحية- ثقافية.

إن هذه المناطق الحضرية تتميز عن بعضها البعض بحسب نوعية السكان وبحسب نوعية الوظائف الممارسة فيها. «إن كل مدينة -كما يقول بارك- تتميز بمركزها الذي يكون مخصصا للأعمال في الغالب، والذي يعتبر نواة كل المركب الحضري. فكل مدينة، وكل مدينة كبرى لها مناطقها الصناعية، سواء تلك

13- E. Burgess, «La croissance de la ville, introduction à un projet de recherche», in *L'école de Chicago*, *Op. cit.*, pp.127-162.

المختصة في الصناعة الثقيلة أو الصناعة الخفيفة، ولها مدنها التابعة المحيطية، ولها سوق عملها. وكل مدينة في أمريكا لها أحياؤها الواطئة، ومستوطنات مهاجريها الذين يتمسكون ويحتفظون بدرجات مختلفة بثقافاتهم. ولكل مدينة تقريبا مهمشوها، ومناطقها الهامشية، حيث تكون الحياة أكثر حرية وأكثر تشجيعا على المغامرة، وأكثر عزلة بالمقارنة مع الأحياء الأخرى»[14].

وهذه المناطق الحضرية المتجاورة تسعى لأن تترسخ وتمتد وتبقى، من خلال سعيها المتواصل إلى تكييف الوظائف والخدمات الموجودة بها مع حاجيات ساكنتها. وهناك –حسب بارك– عملية مزدوجة هي التي تسمح باستمرار وإعادة إنتاج هذه المناطق الحضرية المتباينة:

- فهناك من جهة عملية الإنتقاء، والتي بمقتضاها تسعى كل منطقة إلى استقطاب واجتذاب نوع خاص من الساكنة، وهذا الاستقطاب يتم بصورة لامتكافئة، ذلك أن كل المناطق ليس لها نفس قوة التأثير والجذب، ولذلك فإن تأثيرها لا يمتد إلا لفئة محدودة من الناس.

- وهناك من جهة أخرى الطابع العدوائي (المعدي/ contagieux) للنماذج الثقافية، هذا الطابع الذي يجعل أن السكان الذين يعيشون في مناطق من نفس النمط يخضعون لنفس الظروف ولنفس الأوضاع الاجتماعية، ومن ثم تكون لهم نفس الخصائص.

إن هذه المناطق تتغير وتتميز عن بعضها البعض باستمرار، كما أن نوعية ساكنتها تتغير، فبقدر ما يعبر السكن الذي اختاره

14- J. Rémy et L. Voyé, *la ville et l'urbanisation*, *Op. cit.* p. 169.

الإنسان عن نوع من الانتماء الثقافي أو عن الوضع الاجتماعي، فلا بد أن ننتظر أن كل تغير يطرأ على المستوى الاجتماعي للفرد يتبعه تغيير مكان الإقامة. لأن إنسان المدينة كما يقول سيمل هو إنسان رحال بالقوة.

إن هذه البنية الأيكلوجية للمدينة التي تتشكل بفعل عملية الانتقاء والتمييز (sélection et ségrégation) من جهة، وعملية التنشئة الاجتماعية والعدوى من جهة أخرى، تجعل مناطق المدينة تتحول إلى مناطق متميزة عن بعضها البعض مجاليا وثقافيا، ولذلك يتحدث بارك في مختلف كتاباته عن «مفهوم مركزي» يطلق عليه أحيانا «منطقة طبيعية» (région naturelle) وأحيانا «منطقة روحية» (أو أخلاقية) (région morale). يقول بارك:

«نطلق تعبير «فضاء طبيعي» على قطاع ما من المدينة، لما يكون نشأ من دون تصميم مسبق، ويؤدي في نفس الوقت وظيفة، بالرغم من كون هذه الوظيفة، كما هو الشأن بالنسبة لأحياء الأكواخ، يمكن أن تكون ضد رغبة كل واحد على حدة: إنها فضاء طبيعي، لأن لها تاريخا طبيعيا. إن وجود هذه الفضاءات الطبيعية، والتي لكل واحد منها وظيفته الخاصة، تعطينا بعض الإشارات لما ستكون عليه المدينة عند التحليل: ليس كما افترضنا ذلك أعلاه، محض حادث مصطنع (artefact)، ولكنها، بمعنى ما، وإلى حد ما، عضوية حية (un organisme).

إن المدينة، في الواقع، هي تشكيلة من الفضاءات الطبيعية، لكل واحد منها مركزه الخاص، وكل واحد يؤدي وظيفته الخاصة داخل الاقتصاد الكلي للمدينة. وأهم ما يعبر عن العلاقة بين مختلف الفضاءات الطبيعية الحضرية، هو علاقة المدينة مع ضواحيها.

وتبدو هذه الضواحي كمحض امتدادات للمجموعة الحضرية. وكل ضاحية في نموها التوسعي في اتجاه البادية، تسعى لاكتساب طابع خاص يميزها عن كل الضواحي الأخرى. إن المتربول، إذا صح القول، عبارة عن آلية ضخمة للفرز والتصفية، فمن خلال طرائق لا زلنا لم نتمكن بعد من إدراكها كلية، تنتقي بدقة وصرامة من مجموع السكان الأفراد الأكثر جدارة وقدرة على العيش في قطاع معين وفي وسط معين. وبقدر ما تكون المدينة كبيرة بقدر ما تكون ضواحيها أكثر عددا وأكثر تنوعا كذلك. إن المدينة تنمو من خلال الامتداد والاتساع، ولكنها تحتفظ دوما بطابع الانتقاء والتمييز بين سكانها، بحيث إن كل واحد ينتهي في آخر المطاف إلى إيجاد المكان الذي يمكنه أن يعيش فيه، أو الذي يجب عليه أن يعيش فيه»[15].

إن هذه الفضاءات «طبيعية» لأنها تنشأ بطريقة تلقائية، بطريقة يبدو أن لادخل فيها للإستراتيجيات الجماعية (السياسية أو غيرها)، ولكن بارك يوضح في نفس الوقت أنها نتيجة لسيرورتي الانتقاء والتمييز على أساس قيم معينة قد تقوم على اللغة أو العرق أو الثقافة أو الدخل، ولكن أهمية هذه القيم تأخذ في الخفوت والاضمحلال تدريجيا كلما انتقلنا من الضواحي في اتجاه مركز المدينة. ولذلك يوضح بارك: «لا ينبغي أن يستنتج مما قيل قبل قليل أن سكان مختلف الفضاءات الطبيعية بالمدينة يمكن أن يعتبروا متجانسين. والخلاصة هي أن الناس يعيشون معا لا لأنهم متشابهون، ولكن لأنهم نافعون لبعضهم البعض. وهذا صحيح بالنسبة للمدن الكبرى بالخصوص، حيث يتم الحفاظ

15- انظر مقال بارك «المدينة كمختبر اجتماعي» المترجم في القسم الرابع.

على المسافات الاجتماعية، بالرغم من القرب الجغرافي، وحيث تكون لكل مجموعة كل الحظوظ لتتكون من أناس يعيشون معا في علاقات لا يصح كثيرا وصفها بالاجتماعية بقدر ما يصح القول عنها بأنها علاقات تعايش»[16].

إن هذه الفضاءات الطبيعية هي في نفس الوقت فضاءات «أخلاقية» أو «روحية»، لأن كل فضاء طبيعي يصبح مقرونا بما يميز ساكنته «إن كل جزء خاص من المدينة لابد وأن يُطبع بالأحاسيس الخاصة بالسكان الذين يقطنونه، إن المجال الجغرافي البسيط يتحول هكذا إلى حي (quartier) أي مجال متمتع بأحاسيس، وتقاليد، وتاريخ خاص» ولذلك فالحي يعتبر بدوره «فضاء طبيعيا» وروحيا، وبهذا الصدد يقول بارك: «من الحتمي أن الأفراد الذين يبحثون عن نفس الأحاسيس والمشاعر، سواء تعلق الأمر بسباق خيل أو قاعة أوبرا كبيرة، سيتواجدون من حين لآخر في نفس الأماكن، بشكل يجعلنا ندرك في التنظيم التلقائي للحياة الحضرية أن السكان يتجهون من تلقاء أنفسهم إلى «التمييز» والتمايز ليس فقط بحسب مصالحهم، ولكن أيضا بحسب أذواقهم وأمزجتهم. إن التوزيع السكاني الذي ينتج عن ذلك، يمكن أن يكون مختلفا تماما عن التوزيع الذي يمكن أن تنتجه المصالح الاقتصادية أو المهنية. إن القوى المتدخلة في التوزيع والتمييز الذي تتعرض له الساكنة الحضرية يمكن أن تجعل كل حي يكتسي طابع «منطقة روحية» (région morale) وتلك هي حالة أحياء «الانحراف» التي نجدها في معظم المدن. إن المنطقة الروحية ليست بالضرورة المنطقة

16- نفس المرجع السابق.

التي نقطن بها: فقد يمكن أن تكون مكان المواعيد البسيطة، أو مكان اللقاءات العابرة[17]».

إن أكبر ما يمكن أن يشكل مشكلة المدينة الكبرى هو الطابع العدوائي للمناطق الروحية الواطئة، أو التي تهيمن فيها الظواهر الإنحرافية وسوء التنظيم الاجتماعي، «ففي المدينة الكبرى -يقول بارك- فإن التساكن المَرَضي المُعدي الذي يعيش فيه الفقير والمُدمن والمنحرف يجعل هذه الأنماط تتوالد بشكل لانهائي جسما وروحا (...) وينبغي علينا إذن أن نقبل هذه «المناطق الروحية» وكذلك الأفراد الهامشيون إلى حد ما الذين يعيشون فيها: إنهم يشكلون جزءً -بمعنى ما على الأقل- من حياة المدينة، إنهم جزء من حياتها الطبيعية، إن لم يكن من حياتها الأخلاقية[18]». وحتى لا يذهب البعض إلى اعتبار هذا التصور يكتسي طابع «حتمية أيكلوجية» لا يريد بارك أن تنعت سوسيولوجيته بها يزيد فيوضح: «ليس من الضروري أن نفهم من تعبير «منطقة روحية» مكانا أو وسطا إجراميا أو مرضيا بالضرورة، إنه تعبير ينبغي من الأولى تطبيقه على الأجزاء التي يهيمن فيها قانون أخلاقي متنافر، أي المناطق التي يكون فيها الأفراد خاضعين أكثر مما نكون في العادة، لذوق ما، أو رغبة ما، أو أي مصلحة متجذرة في الطبيعة الأصلية للفرد»[19].

إن جميع علماء اجتماع شيكاغو سيهتمون بوصف مختلف «المناطق الروحية» أو الأوساط «الاجتماعية»، ولكن أهم ما سيشغلهم هو كون هذه الأوساط أو المناطق تتواجد في نفس المدينة، الشيء الذي يؤدي بنا إلى التساؤل عن العلاقات وأنماط التبادل

17- R. E. Park, «La ville, suggestions…» *Op. cit.* p. 123.

18- *Ibid.* p. 126.

19- *Ibidem.*

القائمة أو الممكنة بينها، وفي القول التالي لبارك ما يوضح طبيعة التفاعل بين هذه الأوساط، يقول: «إن سيرورة التمييز (processus de ségrégation) ترسخ المسافات الروحية التي تجعل المدينة عبارة عن فسيفساء من العوالم الصغيرة، التي تتماس مع بعضها دون أن تتداخل. وهذا ما يعطي للأفراد إمكانية الانتقال بسهولة وبسرعة من وسط روحي (أخلاقي) إلى وسط آخر، ويشجع ركوب تجربة مغرية، وخطيرة في نفس الوقت، والتي تتمثل في العيش في عدة عوالم مختلفة، متجاورة بالفعل، ولكنها بالرغم من ذلك واضحة التميز عن بعضها البعض[20].

إن مثل هذا التصور للعوالم «الاجتماعية / الروحية» (الطبيعية) في المدينة، يجعلنا ندرك إمكانية، بل حتى خطورة تأثيرها في بعضها من خلال ساكنة لها القدرة على الانتقال بينها، (الحراك) وإذا كان هذا التأثير المجالي في الأفراد ممكنا، فإن ذلك ما يدفعنا إلى التساؤل عن مظاهر وحدود هذا التأثير، لأن هذا هو جوهر المنظور الأيكلوجي لعلماء اجتماع هذه المدرسة، الذين اكتفى رائدهم بطرح برنامج فكري يفتح آفاق عديدة للبحث، ولذلك يقول أولف هانيرز (Ulf Hannerz) تعليقا على آراء بارك هذه «من المرغوب فيه اليوم لو أننا نذهب أبعد في مثل هذا البحث حول المحددات السوسيو-بنيوية للسلوك الحضري[21]».

وبالإضافة إلى اهتمام بارك بمختلف الظواهر الحضرية، ودعوته إلى تناولها من وجهة النظر الأيكلوجية، هناك ظواهر حضرية أخرى استرعت انتباه بارك في المدينة وجعلته يخصها

20- *Ibid*, p. 121

21- Ulf Hannerz, *Explorer la ville*, *Op. cit*. p. 45.

ببعض الكتابات الهامة، ونخص بالتحديد هنا مسألة الحراك والهجرات، فكيف تناول بارك هذه الظاهرة، وكيف كانت نظرته للعلاقة بين التحضر والهجرة؟

4- بارك والمنظور الأيكلوجي للهجرات الإنسانية والتحضر

استلهاما للنموذج الأيكلوجي سيعتبر بارك الهجرات الإنسانية هجرات طبيعية كما هي هجرات النباتات والحيوانات، وفي هذا الإطار سيسعى للبحث عن مفاهيم أيكلوجية للتأكيد على أن ظاهرة الهجرات الإنسانية قابلة للدراسة العلمية، وكان من بين تلك المفاهيم مفهومان أساسيان هما مفهوم الخلافة أو «الاستخلاف» (succession) ومفهوم «التوازن» (équilibre).

إن مفهوم «الاستخلاف» قد استعمل بهدف إيجاد الأساس النظري لدراسة الهجرات: «فما هي الهجرات –يتساءل بارك- إن لم تكن استخلاف جماعة لجماعة أخرى على أرض معينة». إن هذا المفهوم مقتبس من الأيكلوجيا النباتية، ووجد تطبيقاته «العملية» في المجهود الذي كان يسعى لإيجاد تبرير «علمي» لموجات الهجرات الإستيطانية في عهد الاستعمار المباشر الذي شهدته مناطق عدة من العالم في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وكذا لتبرير الاستيطان بالعالم الجديد، وهكذا فإن «المهاجرين الأوائل لأمريكا جاؤوا لاستخلاف الهنود الحمر[22]» في إطار تحولات طبيعية. وهذا الاستخلاف ليس جغرافيا وديموغرافيا فحسب، بل هو –حسب بارك- استخلاف ثقافي أيضا (استبدال

22- R. Duchac, *Op. cit.* p. 133.

نمط عيش بآخر). وبهذا الصدد يذكر بارك بمبدإ شهير عند الإثنوغرافيين (وعند دوركهايم أيضا) مفاده «أن كل ثقافة بقدر ما تكون بدائية بقدر ما تكون الأرض التي تعيش عليها شاسعة بالنسبة لعدد أفرادها» الشيء الذي يعني أن «تركز السكان في المناطق الحضرية يبدو من وجهة نظر الأيكلوجيا الإنسانية كمؤشر على تقدم الحضارات»[23].

وبالإضافة إلى مفهوم الاستخلاف هذا، هناك مفهوم أيكلوجي آخر أثر كثيرا -ولا يزال- في دراسة الهجرات، ألا وهو مفهوم «التوازن». ولتوضيح استعمالات هذا المفهوم يبدأ بارك بالتذكير بأن عددا معينا من الناس لا يشكلون «مجتمعا» إلا إذا كانوا منظمين على مستوى المجال، وكانت تربطهم علاقات اجتماعية وميكانيزمات واضحة للضبط والتنافس، تكون نتيجتها الحفاظ على التوازن الطبيعي. وتعتبر الهجرة إحدى تلك الميكانيزمات، ولذلك فالهجرة حسب بارك هي أولا وقبل كل شيء ظاهرة تعمل على إعادة التوازن للمجتمع. فإذا ما أدى تغير ما على مستوى شروط الحياة الأيكلوجية في جماعة ما إلى اختلال التوازن الطبيعي بها، فليس أمام أفرادها من خيار سوى الهجرة أو الفناء. وفي هذا المعنى يقول بارك: «لما يصل ضغط السكان على الموارد الطبيعية مستوى معينا من الكثافة فإن شيئا ما سيحدث: فإما أن يتشتت السكان ويتحررون من ذلك الضغط عن طريق الهجرة (...) وإما أن يتحطم التكيف السابق للنوع تماما»[24]. إن مثل هذه الحالة ظاهرة طبيعية، ولذلك فهي في نفس الوقت إيجابية وميكانيكية

23- *Ibid*, p. 134.
24 *Ibid*, p. 136.

وتعرفها مختلف المجتمعات سواء كانت نباتية أو حيوانية أو إنسانية، ولكن الإنسان يسمو -كما يستدرك بارك- على النبات والحيوان بالثقافة التي تمنح الإنسان هامشا من التحرر بالنسبة لمحيطه الطبيعي. ولذلك يقول: «إن المجتمع الإنساني، على كل حال، وفي صورته الأكثر عقلانية، والأكثر اكتمالا، لا يشكل نظاما أيكلوجيا فقط، ولكنه أيضا نظاماً اقتصادياً وسياسياً وأخلاقياً[25].»

وسيربط بارك، في مختلف دراساته بين التغير الاجتماعي وقدرة الإنسان على التحرك وتغيير مكان تواجده وإقامته ولذلك يقول بارك: «إن العضوية الاجتماعية تتميز بشيء مُحير يتجلى في كونها مكونة من وحدات قادرة على التحرك من مكان لآخر. إن كون كل فرد قادر على تغيير مكانه في المجال يمكنه من تجربة فريدة خاصة به[26]». إن هذا الحراك الذي اعتبره بيرجيس (Burgess) عبارة عن «نبض التجمع السكاني»، يساعد على الترجمة المجالية للتغيرات الحضرية، ولذلك فهو مختلف عن مجرد تغيير المكان أو هجرات روتينية. ولذلك فالحراك من هذا المنظور وبتعبير بارك «يقيس التغير الاجتماعي، وسوء التنظيم الاجتماعي (désorganisation sociale)، لأن كل تغير اجتماعي يستتبع بالضرورة بتغير على مستوى الوضع في المكان، وأن كل تغير اجتماعي، وحتى ذاك الذي نعتبره تقدما، ينتج عنه سوء تنظيم اجتماعي»[27]. إن مفهوم الحراك عند بارك يتناقض مع الانكماش والعزلة، فبالإضافة إلى كونه يساعد الفرد على التفتح

25- *Ibid*, p. 138.
26- R. E. Park, «Communauté urbaine ...» *Op. cit.* p 204.
27- *Ibid*, p. 202.

واكتشاف عوالم مختلفة، واكتساب خبرات جديدة، ولذلك «من المقبول اليوم تماما أن ما نعتبره عادة نقص ذكاء عند بعض الأفراد أو الأجناس أو المجموعات يأتي في الغالب نتيجة للعزلة، هذا في الوقت الذي نجد فيه أن حراك سكان ما هو قطعا عامل حاسم في نموهم الفكري[28]». ولهذا فالحراك لا يقاس فقط بالمسافة، أو عدد التنقلات ولكن أيضا وأساسا «بعدد المثيرات (stimulations) التي يستجيب لها الفرد أو الأفراد المتنقلون[29]». إن الحراك بهذا المعنى مفهوم أوسع من الهجرة، فإذا كانت الهجرة تعني وتشير أساسا إلى الانتقال في المجال، فإن الحراك يعني بالإضافة لذلك تغيرا على مستوى الإدراك والتربية. إنه بهذا المعنى تغير مجالي متبوع ومحايث لتغير ذهني وفكري أيضا، قد يتم في إطار تنظيم اجتماعي سوي، أو في إطار تنظيم اجتماعي متفكك، أو سيء. من هذا المنطلق كيف ينظر بارك لظاهرة الهجرة، ولظاهرة الهجرة الوافدة على المدينة بالخصوص؟

لقد شكل موضوع الهجرة ومسألة اندماج المهاجرين في المجتمع الأمريكي المادة الأساس لأغلب دراسات جامعة شيكاغو، ويلخص إرنست بيرجيس اهتمامات زملائه في هذا الإطار بقوله: «إن اكتشاف كون الجماعات الإثنية عبارة عن ميكانيزم دفاعي سوسيولوجي ضخم تساعد على بقاء وتأقلم المهاجرين –وهي نفسها الجماعات التي كان المهاجرون يريدون التخلص منها بعد الهجرة– قد شكل النتيجة الكبرى للبحث السوسيولوجي حول المدينة ما بين 1920 و1930. وبما أن الأمر كان يتعلق بمشكلة سياسية

28- R. E. Park, «La ville, suggestions…» *Op. cit.* p. 97.
29- *Ibidem.*

حادة، ونظرا لوجود تعددية كبرى في المجموعات المكونة من المهاجرين، فإن علماء الاجتماع كانوا ينجذبون للبحث الإثنوغرافي الحضري. ولم يكن أي عمل من أعمالهم مجرد وصف، كما كان الشأن بالنسبة للتقليد الأنتربولوجي في ذلك الوقت. بل وعلى العكس من ذلك فقد كانت أعمالهم تحليلية، وكانت تركز على توضيح سمات السلوك، وسيرورات التأقلم والتغيرات التي تطرأ على المهاجرين في بيئتهم الاقتصادية الجديدة»[30].

في خضم هذا الإنشغال العام بظاهرة الهجرة الوافدة على المجتمع المريكي، ينطلق روبرت بارك من نظرة تتضمنها أغلب المقاربات السوسيولوجية المستلهمة لفلسفة معينة للتاريخ، وذلك ما تعبر عنه هذه المسلمة التي ينطلق منها بارك لدى تناوله لظاهرة التحضر والتي تقول: «إن المدينة هي السكن الطبيعي للإنسان المتحضر». وهذا يعني أن بارك يعتقد أن الهجرة إلى المدينة تدخل في اتجاه مسلسل التقدم البشري الذي مكن من الانتقال من العيش في وسط طبيعي (تحت رحمة الطبيعة) إلى العيش في وسط ثقافي (من صنع الإنسان). وتأكيدا لنفس التصور يضيف «إن المدينة والبيئة الحضرية يمثلان وبكل المقاييس المحاولة الأكثر انسجاما والأكثر نجاحا من أجل تغيير عالمنا الذي نعيش فيه وفقا لرغبتنا الخاصة[31]». إن هذه المدينة التي يصنعها الإنسان ليست مجرد «طرقات، وعمارات، وإنارة كهربائية، وحافلات، وهاتف إلخ.؛ وهي أيضا شيء أكبر من مجرد مؤسسات وأجهزة إدارية: محاكم، مستشفيات، مدارس، مراكز شرطة، وأعداد من موظفين

30- A. Coulon, *l'école de Chicago,Op. cit.* p. 36.

31- R. E. Park, «*la ville comme laboratoire social*», *Op. cit.* p 163.

من مختلف الأنواع. إن المدينة هي أولا وقبل كل ذلك حالة ذهنية (un état d'esprit)»[32].

ولذلك فإن هذا الوسط الذي صنعه الإنسان يتميز بثقافته الخاصة التي تختلف عن «الثقافة القروية»، ولكنه وسط لم تعد تحكمه أعراف وتقاليد جامدة ومتوارثة، وإنما «الرأي العام والقانون الوضعي»، اللذين يغيرهما الإنسان باستمرار، أي أن الإنسان بانتقاله من العيش مشتتا في قبائل إلى العيش مجتمعا في حواضر قد عمل بذلك على استبدال «الفوضى» القائمة على حرية الصراع من أجل البقاء، بنظام قائم على «الضبط الاجتماعي» (contrôle social) والحرية معا، ولذلك يقول بارك:

«إن الفلاح الذي يأتي للمدينة للعمل والعيش فيها، يتحرر قطعا من ضغط الأعراف التليدة، ولكنه في نفس الوقت لم يعد مسنودا من طرف الحكمة الجماعية لمجموعته القروية: لقد أصبح سيد نفسه. إن حالة الفلاح نموذجية. إن كل واحد سيد نفسه إلى حد ما في المدينة. والنتيجة هي أن الإنسان الذي انتقل للمدينة قد أصبح بالنسبة لنفسه، وبالنسبة للمجتمع مشكلة لا سابق لطبيعتها وحجمها. إن النظام القديم المبني على الأعراف والتقاليد، كان مطلقا ومقدسا، وكان يتضمن بالإضافة إلى ذلك شيئا من الطبيعة ذاتها، ولقد كان هذا النظام قد بلغ مستوى من النضج جعل الناس يأخذونه كما وجدوه، تماما كما هو الشأن بالنسبة للطقس والزمن، أي كجزء من النظام الطبيعي للأشياء. والنظام الإجتماعي الجديد، على العكس من ذلك هو إلى حد

32- *Ibid*, p. 79.

ما ابتكار مصطنع، ولذلك فهو ليس مطلقا ولا مقدسا، وإنما هو نظام واقعي وتجريبي»[33].

إن هجرة الفلاح للمدينة ليست إلا أنموذجا بسيطا من عملية دائمة ومستمرة عبر التاريخ، ولكنها تتحول إلى مشكلة اجتماعية في المدينة حيث يتم السعي إلى حلها عن طريق الإدماج الحضري أو ما يسميه بارك عملية «الانصهار» (assimilation) أو تمثل المهاجر الوافد للقيم والتقاليد والعادات الحضرية. وهذا ما يستدعي الانخراط في سيرورة يشير إليها بتعبير «دورة العلاقات الإثنية» (cycle des relations ethniques)، فما الذي يقصده بارك بذلك؟

5- دورة العلاقات الإثنية ومسألة انصهار المهاجرين الوافدين عند بارك

في إطار النموذج الأيكلوجي المقتبس من العلوم الطبيعية وطبقا للتصور السوسيولوجي الذي تبناه بارك والذي يسير فيه على خطى أستاذه جورج سيمل، والذي يعتبر المجتمع كنسق من التفاعلات والسيرورات الاجتماعية في الأساس، ومن خلال دراساته الوصفية لعمليتي سوء التنظيم الاجتماعي وإعادة التنظيم التي تهيمن على التفاعلات بين المجموعات الأصلية والمجموعات المهاجرة فقد انتهى بارك إلى محورة كل «إشكاليته وبنائه النظري حول أربعة مفاهيم أساسية، أو أربعة سيرورات كبرى هي: التنافس (compétition) والصراع (conflit) والتأقلم (accommodation) والإستيعاب (assimilation)»[34].

33- R. E. Park, «*la ville comme laboratoire social*», *Op. cit.* p 165.
34- P. J. Simon, *Histoire de la sociologie*, *Op. cit.* p. 478.

إن التنافس حسب بارك يعتبر الشكل الأولي للتفاعل، ولذلك فهو عام وأساسي، إن التنافس هو «التفاعل بدون اتصال اجتماعي»، وانعدام الاتصال بين الأفراد هذا يساعد على ظهور الصراع، ثم التأقلم ثم الإستيعاب، وهذه المراحل الثلاث الأخيرة على خلاف الأولى مرتبطة بالضبط الاجتماعي. إن التنافس من وجهة نظر البيولوجيين وأنصار نظرية التطور بالخصوص يعني الصراع من أجل الحياة: الصراع من أجل المجال، من أجل الخيرات المادية، من أجل السلطة والحظوة .وهي كلها خطوات ومراحل أساسية في التغير الاجتماعي.

والمرحلة الثانية هي الصراع والذي ينجم بشكل طبيعي عن التنافس بين جماعات مختلفة. إن مرحلة الصراع تعني بلوغ التنافس أعلى درجاته، وهي مرحلة يكون الوعي فيها تاما لأن سائر الأفراد يشعرون أنهم معنيون به لما يحلون ببيئة جديدة، ولذلك فإن الصراع يقوي التلاحم بين الأقليات التي تأخذ من خلال ذلك في الانخراط في النظام السياسي القائم.

والمرحلة الثالثة هي التأقلم، وهي عبارة عن مرحلة تحول، بحيث تتطلب من الأفراد والجماعات العمل من أجل التفاعل والانسجام مع المؤسسات التي انبثقت عن مرحلتي التنافس والصراع. وهكذا فإن التأقلم عبارة عن ظاهرة اجتماعية تهم الثقافة عامة، كما تهم العادات الاجتماعية ومختلف التقنيات والمهارات السائدة في المجتمع. وفي هذه المرحلة يتم الوعي بالاختلاف بين الجماعات، وقبول ذلك الاختلاف، وذلك بواسطة قواعد مقبولة للضبط الاجتماعي بغرض استمرار حالة الأمن في المجتمع.

والمرحلة الأخيرة والتي تهمنا أكثر هي مرحلة الإستيعاب، والانصهار، والتي تأتي كنتيجة طبيعية لمرحلة التأقلم، وفي هذه المرحلة تخف وتختفي بالتدريج الخلافات بين الجماعات المكونة للمجتمع، كما تتقوى وتتعدد أشكال الاتصال والتواصل بينها ويأخذ الوعي الجمعي في التشكل «إن التداخل والإنصهار يتمان لما يبدأ الأفراد في التمتع بذاكرة وأحاسيس ومواقف الآخرين، ولما يبدؤون في مشاركتهم نفس التجربة ونفس التاريخ». إنها مرحلة تشكل الإجماع المبني على قوانين موضوعة ومقبولة من طرف الجميع.

إن مفهوم الاستيعاب عند بارك مفهوم مركزي وأساسي، ولقد اهتم به منذ 1914، ففي مقال نشره في تلك السنة «رفض الفرضية الشائعة والمقبولة من طرف الجميع والتي مؤداها أن الوحدة الوطنية تفرض توفر الانسجام الإثني في المجتمع. وعلى العكس من ذلك كان بارك يُعرف الاستيعاب كسيرورة من خلالها تشارك مجموعة من الأفراد بفعالية في سير المجتمع وذلك مع الحفاظ على خصوصياتها (...) وبالرغم من كون المجتمعات الصناعية تساعد على تأجيج الاختلافات العرقية من خلال التعليم وتقسيم العمل بالخصوص، فإن انصهار مختلف الجماعات الاثنية والثقافية يتحقق مع ذلك من خلال تبني لغة واحدة وتقاليد وتقنيات مشتركة[35]». ولذلك فإن استيعاب المهاجرين يتم من خلال عدة وسائل يتم تفعيلها من أجل أن يصبح لهم وللأقليات الوافدة نفس الثقافة ونفس اللغة ونفس نمط العيش الذي لدى أفراد المجتمع الآخرين. وبذلك يصبح

35- A. Coulon, *l'école de Chicago*,*Op. cit.* p. 40.

للتربية والمدرسة بالخصوص دور أساسي في تكوين المهاجر الوافد وتسهيل اكتسابه لروح مواطنة جديدة.

ولما ينتهي مسلسل الاستيعاب فإن ذلك لا يعني أن الاختلافات الفردية قد انمحت تماما، أو أن التنافس والصراع قد انتهيا نهائيا. وإنما يطرأ تحول في الوعي يساعد على إدراك أن ذلك التنافس وذلك الصراع يتمان من الآن فصاعدا في إطار نفس المجموعة الثقافية. ولكن ذلك لا يعني وحتى في نهاية هذه المرحلة أن «الأفكار العنصرية المسبقة» ستنمحي نهائيا، وذلك ما استنتجه بارك من دراساته ونضالاته إلى جانب السود في أمريكا.

لقد كتب بارك يقول «إن المجتمع والحضارة الإنسانيين ينتجان عن التقاء الشعوب والأعراق المختلفة، والذين يجتمعون ويتعاونون في إطار ما نطلق عليه اسم مجتمع». ويرى بارك من نفس المنظور أن المدن تنبثق من الاختلافات العرقية والاثنية، ويؤكد أن استيعاب هذه الاختلافات لا يصبح ممكنا إلا عندما تختلط هذه الاختلافات في ما يسميه «بوتقة الانصهار» الحضري (melting-pot urbain)، وهل ينبغي التذكير من جديد بأن الحياة الحضرية عبارة عن حركة حتمية تنتهي إلى اندثار الاختلاف والتعدد. «لقد قسم بارك سكان العالم إلى قسمين: **أولئك الذين وصلوا إلى المدينة، وأولئك الذين لم يصلوا بعد.**[36]»

في ختام استعراض أهم آراء بارك عن التحضر والهجرة، يمكن القول بأن سعيه إلى محاولة خلق أيكلوجيا حضرية انطلاقا من استلهام نموذج الأيكلوجيا النباتية بالخصوص، هي إلى حد

36- M. J. Deegan, «Robert Park et la sociologie de Chicago, Tapisserie théorique» in revue *Sociétés*, N° 52, (1996), éd. Dunod, Paris.

ما محاولة إعادة للتشبيه الذي اعتمده سبنسر بين الكائن الحي والكائن الاجتماعي (المدينة). ولذلك كان بارك يرى على المستوى الأيكلوجي أن بنية المدينة «**تجد جذورها في الطبيعة الإنسانية**»، بحيث إن المدينة تتكون وتنمو بشكل لم يخطط له ولا يمكن السيطرة عليه. إن مثل هذا التصور يلتقي مع «النظرية الاجتماعية الطبيعانية» (théorie sociale naturaliste) والتي تقول بوجود قوى اجتماعية تشتغل بمعزل عن الإرادات الفردية.

6- الهجرة والهامشية عند بارك

إلى جانب اهتمام بارك بالعلاقات بين الجماعات والأقليات المهاجرة ودورة اندماجها في المجتمع المستقبل سيخصص جزء من اهتمامه لظاهرة «الهجرة والهامشية». إن مصطلح الهامشية كمصطلح سوسيولوجي والذي كان من وضع بارك سيلازم كل الدراسات عن الهجرة إلى المدينة منذ أن نشر هذا الكاتب مقالته عن «الهجرة الإنسانية والإنسان الهامشي» سنة 1928، حيث سيطرح ويوضح لأول مرة أن ظاهرة الهجرة لا تطرح بالنسبة لعلماء اجتماع شيكاغو مشاكل إحصائية وديموغرافية ومجالية فقط، وإنما مشاكل شخصية وسيكلوجية أيضا[37].

إن اهتمامات بارك في هذا المقال تبدو قريبة جدا من اهتمامات الأنتربولوجيا الثقافية، والسؤال الأساس الذي كان يطرحه باستمرار هو: ما هي العوامل المفسرة للاختلافات بين الأعراق والشعوب؟

37- R. Duchac, *La sociologie des migrations aux Etats-Unis*, *Op. cit.* p. 121.

إن هذا السؤال الذي أملته طبيعة الهجرات في الولايات المتحدة سيظل في صميم اهتمامات سوسيولوجيا الهجرات التي تركز أكثر على قضية اندماج أو عدم اندماج المهاجرين في مكان وصولهم، وهذا ما يطرح أساسا مسألة احتفاظهم بثقافتهم الأصلية ودرجة ووتيرة تمثلهم لثقافة المجتمع المستقبل.

ومن بين الأفكار التي انتهى إليها بارك في هذا المقال، الربط بين الهجرات والتقدم الثقافي «لأن تقدم أي ثقافة يبدأ بمرحلة هجرات جديدة». وهكذا فإن نتيجة كل حراك هجري هي تشكل وظهور نمط «الشخصية المُقسَّمة»، أي الشخصية الموزعة بين ثقافتين، ولهذا يحس المهاجر الجديد بالعزلة داخل الوسط المستقبل، وهذه العزلة تفجر لديه مفهومه الخاص للقيم والعادات والتقاليد. وهذا ليس أمرا سلبيا تماما في نظر بارك، لأن أهم ما يميز الإنسان الهامشي هو خاصية عدم الاستقرار والشعور بالحرية والاستعداد الدائم لخوض غمار تجارب جديدة وابتداع أشكال متميزة من العلاقات الاجتماعية. وبهذا المعنى فإن المهاجر يعيش في وخارج ثقافتين ولذلك يعرفه بارك بالقول إنه «إنسان الثقافتين، وإنسان المجتمعين[38]». إنه الفرد الذي يجد نفسه على الهامش، أي الإنسان الذي –كما يقول بارك- «حَكَمَ عليه القدر بالعيش في مجتمعين وفي ثقافتين، ليسا مختلفين فحسب ولكن متناقضين (...) عالمين يكون فيهما إلى حد ما غريبا (...) ليجد نفسه يعكس في روحه تناقضات وتناغمات هذين العالمين، وكذلك طردهما وجذبهما له في نفس الوقت[39].» وتلك هي وضعية أو حالة

38- *«L'homme de deux cultures et de deux sociétés»*, cité in : R. Duchac, *Op. cit.*

39- J. P. Simon, *Histoire de la sociologie*, *Op. cit.* p. 486.

الهجرة، والتي يعتبرها بارك «حالة أزمة» سيكلوجية، ولكنها أزمة إيجابية لأنها هي التي تجعل من المهاجر «المحرك الأفضل لتقدم الحضارات». ولأن كل مرحلة تقدم بشري جديد، تبدأ بمرحلة هجرات جديدة[40].

إن هذه الأفكار التي استوحاها بارك من مقالة سيمل عن «الغريب»، وكذلك من كتاب «الفلاح البولوني» لطوماس وزنانيكي، سيعمل بدوره على نشرها بين تلامذته، وبالخصوص تلميذيه بوكاردوس (Bogardus) و ستونيكويست (Stonequist). فقد نشر بوكاردوس عام 1928 أطروحته عن «الهجرة والمواقف العرقية»، والذي يعتبر امتدادا وتعميقا لأفكار بارك مع التركيز دائما على العوامل السوسيونفسية، والقلق النفسي، ومختلف أنواع الإحباط والضغط التي تنتجها حالة الهجرة. وفي هذا الصدد يقول بوكاردوس: «إن أهم ما يميز المهاجر في مكان الوصول، وباعتباره إنسانا في حركة دائمة، هو أساسا حراكه الذهني (sa mobilité mentale)، إنه متوتر بفعل الإحباطات والرغبات غير الملباة والتي كانت دافعه الأصلي للنزوح (...) إن الوصول إلى مقصد الهجرة هو بالنسبة للمهاجر زمن الإكتئاب، فهو لا يجد ما كان ينتظره، بينما ما لم يكن ينتظره يجده في كل مكان وفي كل ركن. إن أنماط الحياة الجديدة تزعجه وتحرجه. إن الصراع يتأجج داخل نفسه، إن تيهه ويأسه يكبران وتضطرب شخصيته. إن المهاجر يصبح منذ وصوله غريبا، فهو لم يجد الاستقبال الحار الذي كان ينتظره، بل أصبح موضوع سخرية وتهكم. وبعد أن كان شخصا مهما في قريته الأصلية، ها هو ذا يصبح واحدا من الناس وسط

40- R. Duchac. *Op. cit.* p. 121.

حشد جماهيري غريب. إن الهجرة التي كان يتوقع أن ترفعه قد أوقعته في الهاوية[41].»

ورغم معاناة عملية الاندماج وإحباطاتها الأولى، فإن المهاجر يبقى مع ذلك -من وجهة نظر بارك- «إنسان مهم... لأنه أداة نقل ثقافة، وجزء من كل الوجود الإنساني الذي سبقه[42]».

وإلى جانب بوكاردوس، سيهتم أحد طلاب بارك الآخرين وهو ستونيكويست بمشاكل وصراعات الإنسان الهامشي، وسيجعل من هذا الإنسان موضوعا لأطروحته للدكتوراة سنة 1930، حيث سيركز على مفهوم «الهامشية» من خلال ما أسماه «الوضعيات الثقافية الهجينة». إن الإنسان الهامشي -حسب ستونيكويست- ليس هو الوافد الجديد الذي يجد نفسه بين ثقافتين تتجاذبانه كما يذهب إلى ذلك بارك، وإنما هو الفرد الذي يعيش «حالة الهامشية»، وهي حالة يمكن أن نصادفها حتى داخل نفس المجموعة الثقافية أو العرقية الأصلية، كما هو الشأن مثلا بالنسبة لمن ينتقل من القرية إلى المدينة، أو لمن يغير مهنته أو دوره الاجتماعي. ومن الطبيعي أن عملية الاندماج تكون أيسر لما يستقر المهاجر الوافد بين أفراد جماعته الأصلية، أو في الأحياء التي يتواجدون بها بكثرة.[43]

وبالإضافة إلى ذلك سيطرح ستونيكوست مسألة جديدة لم يتطرق إليها أي عالم اجتماع قبله وهي مشاكل «الجيل الثاني»، هذا الجيل الذي تصبح حظوظ نجاح اندماجه أكثر سهولة. إن أفراد الجيل الثاني الذين ينحدرون من الجيل الأول يجدون أنفسهم على ملتقى ثقافتين يشعرون أنهم ينتمون إليهما معا. ويعتبر الزواج

41- *Ibid*, p. 344.
42- *Ibid*, p. 345.
43- *Ibidem.*

المختلط حسب ستونكويست دليل على تغلبهم على العوائق العرقية والثقافية، ومن ثمة بدء قبولهم من طرف الثقافة المستقبلة وتقبلهم لها أيضا، وخروجهم بالتالي من «حالة الهامشية» واقترابهم أكثر من «النموذج الحضري المثالي».

وعلى العموم ستظل سوسيولوجيا الهجرات في مدرسة شيكاغو تنظر للهجرة والمهاجر من منظورين اثنين: منظور يعتبر المهاجر الفرد الأكثر نشاطا وإنتاجية وأداة لنقل الثقافة وتقدم الحضارات. ومنظور مضاد يعتبر المهاجر نفسه أداة مساعدة على ظهور وانتشار سوء التنظيم الاجتماعي، وذلك ما يتجلى في تواجده ونشاطه كفاعل اجتماعي في أحياء الفقر والإجرام والفساد الأخلاقي. وتلك نتيجة طبيعية للتغير الاجتماعي من وجهة نظر روبرت بارك الذي يقول: «إن الحراك يقيس التغير الاجتماعي وسوء التنظيم الاجتماعي، لأن التغير الاجتماعي ينتج عنه دائما تغير على مستوى الوضع في المجال، وكل تغير اجتماعي حتى ذاك الذي نتصوره كتقدم، ينتج عنه سوء تنظيم اجتماعي[44].»

في ختام هذا العرض المسهب لأهم آراء بارك بصدد ظاهرتي التحضر والهجرة يمكن القول، على المستوى السوسيولوجي / الابستملوجي، إن الغاية من التصور الأيكلوجي الطبيعاني الذي اعتمده بارك وزملاؤه في قسم الاجتماع بجامعة شيكاغو، كان يستهدف تحقيق غرض علمي / تأسيسي يؤكد على إمكانية الدراسة «العلمية» للظواهر الحضرية، وذلك ما يتجلى لنا من خلال السعي إلى إضفاء طابع علمي معين على الدراسات التي كان بارك يوجهها. وهكذا، وعلى سبيل المثال، فإن الدليل الذي

44- R. Park, La communauté urbaine, *Op. cit.* p. 202.

أعد لتوجيه الطلبة في العمل الميداني آنذاك كان ينص على أنه مع اعتماد «مفهوم «الفضاء الطبيعي» (aire naturelle) أصبحت الدراسة العلمية لأجزاء منعزلة من المدينة أمرا ممكنا[45]».

وهاجس العلمية هذا نفسه، هو الذي حدا بعلماء اجتماع شيكاغو إلى التركيز على أهمية «المجال» بالنسبة للعلوم الاجتماعية، ولذلك فإنهم كانوا يعتبرون أجزاء المدينة عبارة عن وحدات مجالية تتنافس، من أجل الوصول إلى توازن شبيه بالتوازن الذي يحصل على مستوى الكائنات النباتية. إن منطلق رواد هذه المدرسة هو أن «كل ماهو اجتماعي يتحرك ويتغير». وأن «الحراك مؤشر على حيوية الكائن الاجتماعي». وبما أنه لاعلم إلا مع إمكانية القياس، وبما أن المجال وحده يمكن أن يكون موضوعا للقياس، فإن المدينة باعتبارها مجالا تصبح مختبرا اجتماعيا. يقول بارك: «نظرا لكون العلاقات الاجتماعية هي في الغالب جدا وحتميا مرتبطة بعلاقات مجالية، ولأن المسافات الجغرافية هي، أو تبدو كما لو كانت مؤشرات على مسافات اجتماعية، فإن للإحصائيات بعض الأهمية بالنسبة لعلم الاجتماع. وهذا حقيقي في النهاية، لأنه فقط ونظرا لكوننا نستطيع تحويل أو إرجاع الظواهر الاجتماعية أو النفسية إلى ظواهر مجالية، فإنه بالإمكان قياسها بطريقة أو أخرى[46]». وإذا ما تم ذلك فإننا سنتمكن حسب بارك من إيجاد «حل سعيد لبعض المشاكل المنطقية والابستمولوجية الأساسية في السوسيولوجيا». ولهذا تابع يقول، موجها الخطاب لقرائه وطلابه: «ارجعوا كل علاقة اجتماعية إلى علاقة مجالية،

45- D. Berselau «Robert Park et l'écologie humaine», in : *Actes de la recherche en sciences sociales,* N° 74, 1988.

46- R. E. Park, «Communauté urbaine ...» *Op. cit.* p 207.

وعندئذ يمكنكم أن تطبقوا على العلاقات بين الناس المنطق الأساسي للعلوم الفيزيائية. إن الظواهر الاجتماعية يمكن إرجاعها للحركات الأولية للأفراد، تماما كما هو الشأن بالنسبة للظواهر الفيزيائية، والتفاعلات الكيميائية، وخصائص المادة، كالحرارة، والصوت، والكهرباء التي يمكن إرجاعها كلها للحركات الأولية للذرات[47]».

سيترك روبرت بارك لتلامذته بعد مغادرة جامعة شيكاغو إرثا سوسيولوجيا متنوعا حاول من خلاله التمهيد لظهور ما أسماه أحيانا أيكلوجيا حضرية، وأحيانا أخرى أيكلوجيا إنسانية لينتهي فيما بعد إلى ضرب من سوسيولوجيا الثقافة. ولا يمكن للمتتبع إلا أن يسجل بهذا الصدد أن تلك المغادرة كانت بعد أن كان «مشروعه الإبستملوجي قد اكتمل: فقد انطلق من الطبيعة لينتهي إلى الثقافة، لقد جاء من الأيكلوجيا لينتهي إلى «العلم الأخلاقي». وتلك هي النقطة التي سينطلق منها خلفاؤه وبالخصوص لويس وورث وروبرت ردفييلد[48]» (R. Redfield). وسنخصص الفقرات التالية لتناول المجهود الذي قام به لويس وورث من أجل تعريف الظاهرة الحضرية. وتحديد الموضوع النظري الخاص بالسوسيولوجيا الحضرية.

47- *Ibid*. p 202.

48- Y. Shemeil, *Op. cit*. p. 650.

الفصل التاسع

التعريف السوسيولوجي للظاهرة الحضرية: لويس وورث

إن أشهر تلامذة بارك على الإطلاق هما روبرت ردفييد (R. Redfield) ولويس وورث (L.Wirth)، ومن خلال تقسيم خاص للعمل بينهما سيهتم الأول ومن منظور انتربلوجي واضح بتحديد خصائص المجتمع القروي التقليدي، وسينتهي انطلاقا من هذا المنظور إلى صياغة نظرية «المتصل الريفي الحضري» (Continium rural-urbain) وهي النظرية التي تقر بصعوبة القول في زماننا الحاضر بوجود «مجتمع حضري خالص» و«مجتمع قروي خالص» وتقول بأن نفس الخصائص والسمات تتوفر فيهما معا والفروق بينهما ليست سوى في درجة بروز تلك السمات وليس في نوعها. ونظرا للحذر المعرفي الكبير الذي تحلى به ردفييلد في صياغته لهذه النظرية فإنها لازالت تلقى الكثير من الصدى في الدراسات السوسيولوجية الحديثة التي تهتم بالعلاقة بين البوادي والمدن.

ومن منظور أكثر سوسيولوجية سيهتم لويس وورث بالعمل على تحديد خصائص المجتمع الحضري الحديث، وذلك سيرا على نفس الخط الذي وضعه كل من ماكس فيبر، ودوركهايم، وسيمل، وروبرت بارك. وذلك ما سيخلفه لنا في «أحد أشهر

المقالات التي كتبت في العلوم الإجتماعية» وهو مقال «التحضر كنمط عيش[1]» والذي نشره سنة 1938. إذ أصبح منذ ذلك التاريخ يحظى بأهمية قصوى في تاريخ السوسيولوجيا الحضرية، بحيث لا نعثر على أي تحليل سوسيولوجي للظاهرة الحضرية لا يرجع لهذه المقالة. ورغم الانتقادات التي يوجهها بعض مؤرخي السوسيولوجيا لبعض تصورات وورث فإن صاحب أشد تلك الانتقادات، ونعني مانويل كاستيل (M. Castells) لم يتردد في الاعتراف بأن لويس وورث تلميذ بارك اللامع قد أنجز من خلال مقالته هذه: «أهم مجهود نظري لم يسبق له مثيل داخل السوسيولوجيا من أجل وضع موضوع نظري (وبالتالي مجالا للبحث) خاص بالسوسيولوجيا الحضرية[2]». ولذلك يرى هنري شومبار دولوف (P. H. Chombard De Lauwe) أن عمل وورث يعتبر أنجح عمل تركيبي أنجز في ميدان السوسيولوجيا الحضرية والذي «يركز على ثلاثة مظاهر أساسية هي التي تساعد على فهم التحول من الوسط الحضري إلى الوسط القروي[3].»

1- لقد تم نشر هذا المقال من طرف صاحبه بالعنوان التالي:

- «urbanism as a way of life», in: *American Journal of Sociologie*, Juillet 1938, pp. 1-24.

وتمت ترجمته للغة الفرنسية ب:

- «Le phénomène urbain comme mode de vie» in : *Ecole de Chicago, Op. cit.* pp. 251-277.

ولذلك فضلنا ترجمة هذا العنوان ب: «التحضر كنمط عيش» وأثبتنا في القسم الرابع ترجمة هذه المقالة للعربية.

2- M. Castells, *La question urbaine*, *Op. cit.* p. 106.

3- P. H. Chombard De Lauwe, «esquisse d'un plan de recherche sur la vie sociale en milieu urbain» in : *Des hommes et des villes*, éd. Payot, Paris, 1963, p. 51.

إن ما يعطي لهذه المقالة أهمية إضافية هو أن صاحبها «يختلف فيها بوضوح مع التوجهات المتضمنة في أعمال مدرسة شيكاغو. وفي هذا الإطار يؤكد رغبته في التميز عن تلك الأعمال لما يقول بأنه بالرغم من أن أعمال بارك ممتازة فإنها لا تشكل مع ذلك خطاطة نظرية منتظمة ومنسجمة يمكن أن تقوم عليها الأبحاث المقبلة. وهذا ما يتأكد منذ التوجهات الأولية لوورث. وهناك عنصرين يبدو أنهما يسجلان قطيعة واضحة مع أعمال مدرسة شيكاغو السابقة. هناك أولا غياب أي عودة أو رجوع للأيكلوجيا الحيوانية أو النباتية، ثم ثانيا الأهمية المحدودة التي يعطيها للمظاهر الأيكلوجية للمدينة[4].»

إن أهمية هذا المجهود النظري المتميز للويس وورث تبدو أيضا من خلال تدشينه الواضح للمقاربة الثقافة للظاهرة الحضرية، وهذا ما يفسر كون هذا المجهود ينخرط أيضا في إطار «الأنتربلوجيا الثقافية»، ومن ثنايا هذه المقالة سينطلق الحديث عن «**الثقافة الحضرية**» بل هناك من يعتبر «أنها كانت تسعى بالأساس إلى تعريف السمات **المميزة للثقافة الحضرية** وإلى تفسير سيرورة إنتاجها من خلال محتوى هذا الشكل الأيكلوجي المميز الذي هو المدينة[5]».

في مقدمة تمهيدية حول «المدينة والحضارة المعاصرة» يحاول وورث، وسيرا على خطى أستاذه بارك أن يوضح أهمية المدينة بالنسبة للإنسان في العصور الحديثة: «إن انطلاق كل ما يمكن نعته بالحديث في حضارتنا يجد أفضل دليل عليه في نمو وتطور المدن الكبرى (...)ولم تكن الإنسانية عبر تاريخها الطويل أكثر بعدا

4- J. Rémy et L. Voyé, *La ville et l'urbanisation*, *Op. cit.* p. 188.
5- M. Castells, *Op. cit.* p. 106.

عن حياة الطبيعة أكثر مما هي عليه اليوم في ظل شروط حياة المدن الكبرى. فالعالم المعاصر لم يعد على صورة الجماعات الصغرى المعزولة والمكونة من كائنات إنسانية مشتتة على رقعة أرضية شاسعة، كما كان الشأن بالنسبة للمجتمعات البدائية (...) إن الخاصية المميزة لنمط عيش إنسان الأزمنة الحديثة هي تركزه في تجمعات عظمى منها تشع الأفكار والأفعال التي نسميها حضارة[6]».

إن هذا الانتشار للظاهرة الحضرية ولنمط العيش المرتبط بها والذي تعرفه مختلف مناطق المعمور لا يعني حسب وورث اندثار المجتمع التقليدي وإنما تراجعه، ولذلك يعتقد أن تأثير أنماط العيش الحضرية الحديثة «لا يمكنها أن تمحو بعد كليا أنماط الاجتماع الإنساني المهيمنة سابقا. ونتيجة لذلك فإن حياتنا الاجتماعية لا تزال تحمل، بقدر معين، طابع المجتمع التقليدي السابق (...) إن هذا التأثير التاريخي قد تقوى نظرا لكون ساكنة المدينة نفسها تنحدر في غالبيتها من البادية، حيث يسود نمط عيش لا زال يحتفظ بملامح من شكل الوجود القديم هذا. ولذلك لا ينبغي أن نتوقع وجود قطيعة أو انفصال بين نمطي الشخصيتين الحضرية والقروية. إن المدينة والبادية يمكن اعتبارهما قطبين تتوزع التجمعات الإنسانية انطلاقا منهما[7]». وهنا يلتقي وورث مع نظرية «المتصل الريفي الحضري» لردفييلد.

انطلاقا من هذه الاعتبارات والتصورات سيطرح وورث في هذه المقالة أهم «تعريف سوسيولوجي للظاهرة الحضرية» والذي أثار ولا زال يثير حوله الكثير من النقاش.

6- L. Wirth, *Op. cit.* p. 251.

7- *Ibid*, p. 253.

1 - التعريف السوسيولوجي للمدينة

قبل عرضه للتعريف الذي يقترحه للمدينة، بدأ وورث باستبعاد وانتقاد التعاريف السائدة للمدينة وبالخصوص منها التعريف الديموغرافي الكمي الذي يعتمد في الإحصاءات العامة: «إن تخصيص مجموعة ما بصفة الحضرية اعتمادا على الحجم وحده ينطو على الكثير من التعسف الواضح. ومن الصعب الدفاع عن التعريف الحالي الذي يعتمده الإحصاء العام، والذي يعتبر كل مجموعة مكونة من 2500 نسمة فأكثر جماعة حضرية، والجماعات الأخرى قروية (...) وأخيرا يجب الاعتراف بأن تعاريف الإحصاءات العامة تعتبر المدينة دائما ومن دون مبرر مقبول، وتحت تأثير وجهة النظر الإحصائية، مجرد مفهوم إداري[8]». إن المدينة لا تحد بحدود فيزيقية أو رقم من الأرقام لأنه لاحدود لإشعاعها، لأن عهدنا الحديث سهل التواصل والاتصال بين مختلف أجزاء المجتمع، و»قوى من دور المدن وجعلها العناصر المهيمنة في حضارتنا، وساعد بشكل كبير على نشر نمط العيش الحضري إلى ما وراء حدود المدينة نفسها[9]». انطلاقا من هذه الاعتبارات سينتهي وورث إلى صياغة التعريف التالي للمدينة:

«من المنظور السوسيولوجي، يمكننا تعريف المدينة كتوطن مهم الحجم نسبيا، كثيف ودائم لأشخاص غير متجانسين اجتماعيا[10].»

إن هذا التعريف الغامض نسبيا سيتضح لنا أكثر لما يشرح وورث ويفسر ما يقصده بالعناصر الثلاث المكونة له وهي:

8- *Ibid*. p. 254.

9- *Ibid*, p. 255

10- *Ibid*, p. 258.

حجم التجمع السكاني (La dimension du groupement de population)، والكثافة (La densité)، وعدم التجانس الاجتماعي (L'hétérogénéité sociale)، وذلك ما حاول عرضه في إطار ما أسماه: «نظرية الظاهرة الحضرية».

2- نظرية الظاهرة الحضرية

يلاحظ وورث في البداية غياب نظرية منسجمة عن الظاهرة الحضرية، وكذلك انعدام وضوح آفاق البحث بالنسبة للدراسات المنتمية للسوسيولوجيا الحضرية، وذلك راجع بالأساس إلى ندرة ومحدودية الاجتهادات في هذا الميدان. وفي هذا الإطار يسجل: «أن أفضل المقاربات التي نتوفر عليها بصدد نظرية نسقية عن الظاهرة الحضرية لا نعثر عليها إلا في المحاولة الثاقبة لماكس فيبر والمتجلية في كتابه «المدينة»، وفي مقال روبرت بارك المأثور «المدينة: اقتراحات للبحث في السلوك بالوسط الحضري. لكن حتى هذه المساهمات الرفيعة نفسها، تظل مع ذلك، بعيدة عن أن تشكل إطارا نظريا منظما ومنسجما يمكن للبحث أن يعتمده للتقدم بشكل مفيد[11]».

اعتبارا لهذا الواقع وفي محاولة لتجاوزه سيعمد وورث إلى طرح ما يعتبر أنه السمات العامة المميزة للمدينة، وذلك اعتمادا على «النظرية السوسيولوجية العامة والبحث الأمبريقي». وهذه السمات هي تلك المتضمنة في التعريف السوسيولوجي للمدينة والتي ستتضح لنا أكثر لما نعرض في ما يلي للمضامين التي يعطيها لها صاحبها.

11- *Ibid*, p. 259.

2-1- حجم اجتماع السكان

يرى وورث أن حجم المدينة كلما كان كبيرا كلما كانت الاختلافات بين الأفراد كبيرة أيضا، ونفس الشيء يحدث بالنسبة للتمايز الاجتماعي، وهذا ما يؤدي إلى تلاشي العلاقات التعاونية الجماعية لتعوض بميكانيزمات للضبط الصارم والتنافس الاجتماعي. ومن جهة أخرى فإن تعدد علاقات وتفاعلات الإنسان في المدينة يؤدي إلى تجزئة العلاقات الاجتماعية وإفراز وتقوية الطابع الإنفصامي للشخصية الحضرية. ومن ثمة فإن الخصائص المميزة لمثل هذا النمط من السلوك هي: التجاهل المتبادل، والسطحية، وعلاقات اجتماعية حضرية مهزوزة وعابرة.»إن المدينة تتميز بالعلاقات الثانوية أكثر مما تتميز بالعلاقات الأولية. إن الاتصالات في المدينة يمكن أن تكون بالفعل وجها لوجه، ولكنها تظل مع ذلك سطحية، وعابرة، وتجزيئية. إن الحذر والتحفظ واللامبالاة، ومواقف الضجر التي نلاحظها في علاقات المدينيين فيما بينهم يمكن أن تكون للتحصن ضد المطالب الشخصية والتطلعات التي يمكن أن تكون لدى الآخرين[12].»وهذا ما يؤدي إلى تقوية الطابع الأنومي للشخصية الحضرية، وانكماشها على نفسها، وتميزها بعدم المشاركة.

إن لهذه الوضعية آثارها على التطور الاقتصادي والنظام السياسي، فمن جهة هناك التجزيئية، ونفعية العلاقات الحضرية التي تؤدي إلى التخصص الوظيفي للأنشطة، والتقسيم الكبير والمتواصل للعمل، واقتصاد السوق. ومن جهة أخرى فإن الدفاع عن مصالح الأفراد يتم بالنيابة عنهم نظرا لاستحالة التواصل المباشر.

12- *Ibid*, p. 263.

2-2- الكثافة

إن الكثافة السكانية المرتفعة في المدينة عوض أن تقوي الاتصال والانسجام بين الأفراد تؤدي إلى تقوية التباعد والاختلافات بينهم، ذلك أنه من «مميزات الحياة الحضرية هو أنه بقدر ما تكون اتصالاتنا البدنية فيها متقاربة بقدر ما تكون اتصالاتنا الاجتماعية فيها متباعدة[13].» ذلك أن الجوار لا ينتج عنه التفاعل والاتصال بين الأوساط الاجتماعية المختلفة، الشيء الذي يؤدي إلى طغيان الفردية والعلمانية في المجتمع الحضري، لأن الأفراد لا يكترثون فيه إلا بما يتصل بأهدافهم الخاصة فقط. لذلك فإن التساكن والتجاور لا يؤدي إلى انفتاح الأفراد بعضهم على بعض بل يؤدي على العكس من ذلك إلى التوحش الفردي، وإلى العدوانية في النهاية.

2-3- عدم التجانس الاجتماعي

يؤدي عدم التجانس الاجتماعي في الوسط الحضري إلى «فسخ صرامة الفوارق بين الطبقات المغلقة وتعقيد البنية الطبقية، مؤديا بذلك إلى إطار من التراتب الاجتماعي أكثر تفتتا وأكثر تنوعا من ذاك الذي نصادفه في المجتمعات الأكثر اندماجا. إن الحراك الكثيف للفرد، والذي يجعله تابعا لفعل عدد كبير من الأشخاص المتباينين، ويُخضعه لوضع متذبذب داخل جماعات اجتماعية متباينة هي التي تشكل البنية الاجتماعية للمدينة، يعمل في اتجاه جعلنا نعتبر عدم الاستقرار، وانعدام الأمن في العالم كمعيار مقبول. وهذا الواقع هو الذي يساعد أيضا على تفسير طابع

13- *Ibid*, p. 266.

التأنق والتنوع والتغير الذي يميز سلوك الإنسان الحضري[14].» إن الشعور بعدم الانتساب إلى أية فئة أو طبقة معينة، أو بالانتساب المؤقت لها فقط، هو ما يجعل الفرد الحضري يعيش وضعية انتقالية لا تنتهي. هناك إذن تجمع للسكان وليس اجتماع لهم. إن عدم التجانس الاجتماعي هذا ينتج عنه أيضا تنوع على مستوى اقتصاد السوق والحياة السياسية المبنية على الحركات الجماهيرية. إن وضعية الاختلاف والتعدد وعدم الاستقرار التي يعيش فيها الإنسان الحضري تحدث ولا شك خللا كبيرا في شخصيته، الشيء الذي يفسر ارتفاع معدلات الجريمة والانتحار والارتشاء والانحراف والحمق في المدن العملاقة.

تلك هي أبرز السمات والخصائص المميزة لنمط العيش الحضري، وبهذا المعنى تصبح المدينة عبارة عن «محتوى ثقافي خاص»، يعتبر هو المتغير المستقل الذي يفسر كل الظواهر الحضرية الأخرى.

بعد توضيح أهم مضامين ومستلزمات تعريفه السوسيولوجي للمدينة، يخصص وورث بعد ذلك فقرات هامة من مقالته هذه للتطرق للعلاقة بين نظرية الظاهرة الحضرية والبحث السوسيولوجي، وفي هذا الإطار يرى «أن الظاهرة الحضرية إذا ما اعتبرت كنمط عيش متميز، يُمكن أن تُتناول امبريقيا انطلاقا من ثلاث منظورات متصلة فيما بينها: 1) كبنية مادية تقوم على قاعدة من السكان، وعلى تكنلوجيا، ونظام أيكلوجي؛ 2) كنسق للتنظيم الاجتماعي المتضمن لبنية اجتماعية متميزة، وشبكة من المؤسسات الاجتماعية، ونمط خاص من العلاقات الاجتماعية؛ 3) كمجموعة

14- *Ibid*, p. 267.

من المواقف والأفكار، ومجموعة من الأشخاص المشتركين في أشكال نمطية من السلوك الجماعي والخاضعين لميكانيزمات متميزة من المراقبة الاجتماعية.»[15]

إن هذا التصور للعلاقة بين النظرية الاجتماعية ومقتضيات وميادين البحث السوسيولوجي الحضري يبدو أكثر واقعية، لأنه لا يركز فقط على الأبعاد السوسيوثقافية للظاهرة الحضرية، وإنما يتناولها من ثلاثة أبعاد متكاملة هي البعد المادي (الأيكلوجي) والبعد التنظيمي (المؤسساتي)، ثم البعد السلوكي (الثقافي). وهي الأبعاد التي سيخصص وورث الصفحات الأخيرة من مقاله لتوضيحها وبنفس هذه العناوين تقريبا. وهذا ما يجعل مجهوده التنظيري يلتقي في نهاية المطاف مع مجهود أستاذه بارك الذي صاغه في مقالته الرائدة «المدينة: اقتراحات للبحث في السلوك في الوسط الحضري». ولكن الفرق بين بارك ووورث هو أن هذا الأخير كان واعيا بقيامه بمحاولة تأسيسية في إطار السوسيولوجيا الحضرية، وليس الأيكلوجيا الإنسانية، كما أنه كان يرى أن هذه المحاولة يمكن أن تتحسن وتتدقق أكثر لما نبنيها على نتائج أبحاث ميدانية فعلية. وذلك ما يعبر عنه وورث في آخر المقالة بقوله:

«لما يصبح لعالم الاجتماع تصور واضح عن المدينة كوحدة اجتماعية، ونظرية للظاهرة الحضرية قابلة للاستعمال، آنذاك فقط يمكنه أن يأمل في تطوير نسق موحد من المعارف الثابتة، وهذا ما لا يوفره حاليا وبكل تأكيد ما يتم تداوله على أنه «سوسيولوجيا حضرية». ولما ننطلق هكذا من نظرية للظاهرة الحضرية كما حاولنا توضيحها في الصفحات السابقة، وذلك بغاية تهييئها، واختبارها

15- *Ibid*, p. 270.

ومراجعتها على ضوء تحليل أكثر عمقا وبحث امبريقي، فمن حقنا أن نأمل التمكن من تحديد معايير صدق وثبات المعطيات المبنية على وقائع. إن التشكيلة المتنوعة من المعلومات المتفرقة التي تم إدراجها لحد الآن في مطولات السوسيولوجيا عن المدينة يمكن أن تغربل وتدمج هكذا في إطار من المعارف المنسجمة. وبنظرية كهذه فقط يمكن لعالم الاجتماع أن يفلت عَرَضًا من تلك العادة العبثية المتمثلة في التعبير باسم العلم السوسيولوجي عن مجموعة من الأحكام، غير المقبولة في الغالب، والمتعلقة بمشاكل مثل الفقر، والسكن، والتخطيط الحضري، والحفاظ على الأمن، وتنظيم الأسواق، والنقل، وغيرها من المسائل التقنية. وبينما لا يمكن لعالم الاجتماع أن يحل أيا من هذه المشاكل العملية -بنفسه، على الأقل- فإن بإمكانه، في حالة وعيه بوظيفته الخاصة، المساهمة بشكل كبير في فهمها وإيجاد حل لها. وآفاق النجاح بهذا الصدد، تبدو مشرقة من خلال المقاربة الشمولية والنظرية، أكثر مما لو تم الاقتصار فقط على مقاربة خاصة ومحدودة»[16].

وبهذا نكون قد انتقلنا من دائرة الأفكار والتأملات والفلسفات الاجتماعية عن المدينة والحياة المدينية إلى محاولة واضحة لتحديد الحقل العلمي «للسوسيلوجيا الحضرية»، حيث يتم الربط بين البناء النظري والبحث الميداني. ولذلك يرجع مؤرخو السوسيولوجيا الحضرية النشأة الفعلية لهذا الصنف من المعرفة إلى وورث الذي يبدو أن عمله يعتبر «كتركيب أو بالخصوص كعملية نسقية تختزل كل المجهود الذي قامت به مدرسة شيكاغو[17]».

16- *Ibid*, p. 276- 277.

17- F. Aballéa «Les modes de vie», in *Recherche sociale*, N° 110, 1987, (N° spécial sur : Les apports de la sociologie à l'urbanisme opérationnel).

3- في نقد «نظرية الظاهرة الحضرية» عند وورث

لا يمكن أن تمر محاولة يحركها طموح جامح لوضع نظرية شاملة للظاهرة الحضرية دون أن تثير ردود فعل كثيرة ومستمرة. ويرى فرنسوا أباليا (F. Aballéa) أن الانتقادات التي توجه لمدرسة شيكاغو تنقسم إلى ثلاثة أصناف: «هناك نمط أول من النقد يستهدف الجانب الماضوي إلى حد ما، أو الضد-حضري للاتجاه الأيكلوجي-الثقافي. والنوع الثاني من الانتقادات يستهدف الاستنتاجات الأمبريقية التي أنتجها علماء اجتماع شيكاغو، أي أن الوقائع الملاحظة تبدو متناقضة ولا تسمح بإطلاق التعميمات التي تمت على أساسها. والنوع الثالث من النقد يبدو أكثر أهمية، لأنه يضع موضع تساؤل حتى مبدأ العلاقة بين الثقافة والمجال ذاته، والذي يعتبره مبدأ أيديولوجيا[18]».

إن كل هذه الانتقادات نجدها موجهة بالأساس ضد وورث، ونجدها بالأساس عند مانوييل كاستيل. الذي سيخصص فصلا من كتابه «المسألة الحضرية»، أسماه «أسطورة الثقافة الحضرية» لسرد مختلف المحاولات السوسيولوجية التي اهتمت بتوجيه النقد لأطروحات وورث انطلاقا من نتائج أبحاث ميدانية تفند كلها -حسب كاستيل- في الغالب تلك الأطروحات.

وفي هذا الإطار يرى كاستيل أن آراء وتصورات وورث الواردة في مقالته هي التي ستمهد لظهور وانتشار ما سيسمى فيما بعد مفهوم «الثقافة الحضرية»، ذلك «أن أهم ما تتضمنه مختلف الأطروحات المتعلقة بالثقافة الحضرية بمعناها الدقيق ليست سوى تلوينات

18- *Ibidem.*

وتفريعات تنطلق كلها من افتراضات وورث. وهي الأطروحات التي سيتم استعمالها كأداة للتفسير التطوري للتاريخ الإنساني، وذلك انطلاقا من نظرية المتصل الريفي الحضري التي وضعها ريدفيلد والتي ستكون لها أصداء واسعة في سوسيولوجيا التنمية[19]».

وهناك العديد من علماء الاجتماع الذين اختبروا نظرية وورث وأوضحوا بعض جوانب قصورها، ويسوق كاستيل عدة نماذج نكتفي منها بالمعارضة التي أبداها بعضهم بالنسبة «للعلاقة السببية المفترضة بين أشكال مجالية من المدينة، والمحتوى الاجتماعي المميز ل «الثقافة الحضرية». وعلى هذا المستوى الإمبريقي جدا سيبرهن رايس (Reiss) ومنذ زمن بعيد الاستقلال الإحصائي (في المدن الأمريكية) ل«الثقافة الحضرية» بالنسبة لحجم وكثافة السكان. وأكثر من ذلك، وفي بحث واسع، لم يجد دينكان (Duncan) أي ترابط بين حجم السكان من جهة، ومن جهة أخرى بين الدخل- وفئات الأعمار- والحراك- والتمدرس- وحجم الأسرة- والانتماء الإثني، والسكان النشيطين، أي كل العوامل التي يمكن أن تميز «محتوى» حضري معين» (...) كما أبرز ريمون لودريت (R. Ledrut) وبتفصيل خصوصية مختلف الأنماط التاريخية للأشكال الحضرية، ومحتوياتها الاجتماعية والثقافية المتباينة جدا، والتي لا يمكن وضعها على مُتَّصَل، لأن الأمر يتعلق بتعابير مجالية واجتماعية تختلف كيفيا عن بعضها البعض.[20]»

انطلاقا من هذه الانتقادات سيعتبر مانويل كاستيل أن ما اعتبره لويس وورث «نظرية للظاهرة الحضرية» ليس في واقع

19- M. Castells, *La question urbaine*, *Op. cit.* p. 108.
20- *Ibid*, p. 110 – 111.

الأمر سوى تهافت وراء «أسطورة ثقافة حضرية»، وأن الأطروحات الضد حضرية (Anti-urbaine) لمدرسة شيكاغو تنطلق من الأفكار الرومانسية المسبقة لهذه المدرسة والتي لم يتمكن روادها من رؤية التطور والنمو الحضري وما يتبعهما من تغيرات اجتماعية خارج «النمط القروي التقليدي» باعتباره النموذج المثالي للحياة الاجتماعية السوية. و من منظوره الفلسفي المادي التاريخي يواصل كاستيل انتقاداته لنظرية وورث متسائلا: «لماذا لا ننهي الأمر بأن نقبل إطلاق تسمية "ثقافة حضرية» على نسق السلوك المرتبط بالمجتمع الرأسمالي؟» هذا المجتمع الذي بلغ أعلى درجاته التنافسية المتوحشة في المدن الأمريكية في القرن العشرين.

ورغم اعترافه بأهمية محاولة وورث وريادتها في مجال دراسة المدينة فإن أولف هانيرز (U. Hannerz) ورغم بعض الانتقادات التي يوجهها لووث فإنه، مع ذلك، يذكرنا بأن هذا الأخير لم يقل بأن جميع السمات تتوفر في كل المدن وبنفس القدر، وإنما هي تختلف باختلاف مستوى الحجم والكثافة ودرجة عدم الانسجام الاجتماعي. ولذلك يعتبر أن ما حاول وورث وضعه بالنسبة للمدينة هو تحديد «النموذج الحضري المثالي» بالمعنى الفيبيري. ولكن هذا النموذج المثالي ذهب ضحية تصور «اعتبار المدينة كنسق مغلق». بحيث لا يوضح وورث بما فيه الكفاية مدى تأثير المدينة في المجتمع الكلي الذي توجد فيه ومدى تأثرها به أيضا[21].

إن النزعة التشاؤمية الواضحة التي تشتم في كتابات وورث عن المدينة، ترجع لما كانت تعرفه المدن الأمريكية من مشاكل.

21- U. Hannerz, *Explorer la ville, Op. cit.* pp. 92 – 93.

وبالرغم من ذلك فلا يمكننا إلا أن نسجل أن وورث رغم كونه يشيد -كأستاذه بارك- بالمدينة ويعتبرها مهد التقدم والحضارة، فإنه لم يعط هذا الوجه الآخر للمدينة كل ما يستحق من أهمية، «لأن المدينة الكبرى -كما يقول ريمون لودريت- «لا تحمل شرا في ذاتها. إن ثقافة أصيلة قد ولدت فيها، كما أن إنسانا خاصا بدأ يرى فيها النور. إن الوحدة التي يشعر بها الفرد في المجتمع الجماهيري يمكن أن تكون أساس أسلوب جديد في الحياة أكثر غنى من الأساليب الأخرى. إن مجتمعات الماضي، حضرية كانت أم قروية، مثقلة بنصيب من التبعية والعبودية اللذين غالبا ما نتناساهما. إن المدن الكبرى تجعل الفرد أكثر استقلالا، كما أنه يجد فيها طبيعة من نوع آخر ومحيطا آخر أو غابة أخرى حسب الظروف، ومن خلال الاندماج فيها يتحرر أكثر. إن نظرة جديدة للعالم، وثقافة جديدة، وأخلاق جديدة، هي في طريقها للتشكل في المجتمع الجماهيري، وهي بدورها يمكنها أن تنمو في المدينة الكبرى وتبنيها في نفس الوقت.[22]»

إن ما يمكن أن نستنتجه من مختلف الآراء الواردة في هذا الفصل والفصل السابق هو أن علماء الاجتماع الذين اهتموا بالظاهرة الحضرية قد أشاروا كلهم إلى وجود نمطين من العيش في مختلف المجتمعات، نمط تقليدي قروي، ونمط تجديدي حضري. ولذلك فإن هؤلاء العلماء لا يختلفون بالنسبة لمسألة وجود «ثقافة حضرية»، وإنما يختلفون في المضامين التي نعطيها لهذه الثقافة، وكذلك درجة تأثر الأفراد بها وكيف، «لأن المدينة هي ذاك المجال المفضل للظاهرة الدائرية المتمثلة في تأثير الإنسان على الإنسان.

22- R. Ledrut, *Sociologie urbaine*, ed. P.U.F. Paris, 1973. p. 211.

إن المدينة عبارة عن وسيط، فهي من صنع الناس، ولكنها تربي الناس[23]». ولذلك كان الفلاسفة الاجتماعيون وعلماء الاجتماع يتحدثون وسيبقون يتحدثون عن التحضر كنمط عيش، سواء بالمضمون الذي نجده عند وورث أو بمضامين أخرى قد تتغير بدورها مع تغير المجتمع والتاريخ.

23- *Ibid*, p. 186.

خاتمة

لقد حاولنا على امتداد صفحات فصول هذه الدراسة التطرق لمدرسة شيكاغو وعوامل نشأتها، وتبين لنا من خلالهما الدور الكبير الذي لعبه رواد هذه المدرسة (طوماس، بارك، وورث) في وضع اللبنات الأولى للسوسيولوجيا العامة، وللبحث السوسيولوجي الميداني بالخصوص. كما تبين لنا أن جميع دراسات وأبحاث هؤلاء الرواد كانت تنصب كلها على سوسيولوجيا التحضر والهجرة والبحث الميداني الحضري. وشكلت بالإضافة إلى ذلك أساس باقي فروع السوسيولوجيا الحديثة. وفي هذا الصدد يقول ستين (Stein) : «إن الاهتمام الكبير الذي أولاه أعضاء مدرسة شيكاغو للتحضر قد قادهم إلى إنجاز دراسات هي التي أعطت لأغلب التفريعات العادية في السوسيولوجيا شكلها ومادتها. إن فروعا مثل السوسيولوجيات الحضرية والعائلية والجريمة ودراسة العلاقات الإثنية والمشاكل الاجتماعية والتغير الاجتماعي، وسوسيولوجيات وسائل الاتصال الجماهيري والرأي العام والشغل، وأيضا سوسيولوجيا السياسة وعلم النفس الاجتماعي وعلم النفس المرضي الاجتماعي، كل هذه الفروع ستلقى دعامتها وانطلاقتها الأولى إن لم نقل تعريفها الأول من المجهودات النظرية

والإمبريقية لهذه المدرسة[24]». ورغم ما يمكن أن يقال بصدد هذا المجهود المتكامل لهؤلاء الرواد، وبالرغم من الانتقادات التي توجه لمحاولاتهم التأسيسية، فمن الأكيد أن مدرسة شيكاغو أصبحت بفضلهم «تشكل جزء لا يتجزء من تاريخ السوسيولوجيا، وعلى خلاف المحاولات الفردية للرواد الأوروبيين، فإن هذا العلم في شكله كعلم مُنظم ومتمتع بمؤسساته التمثيلية المستقلة قد نشأ في شيكاغو. كما أنه تم في إطار هذه المدرسة ترسيخ نمط من التحقيقات الميدانية التي أصبحت مكتسباتها تشكل جزء من ممارساتنا وأنشطتنا[25]». ولذلك يقول نيكولا هيربان (N. Herpin) «إذا كان علماء الاجتماع الأمريكيون لم يخلقوا السوسيولوجيا، فإنه في الولايات المتحدة أصبحت السوسيولوجيا مهنة.[26]»

إن الإشكاليتين المركزيتين اللتين شغلتا رواد هذه المدرسة، كما رأينا، هما الهجرة والاندماج من جهة ثم العلاقة بين الثقافة والمجال الحضري من جهة أخرى. وهما الإشكاليتان اللتان حاولنا اختصارهما في هذه الدراسة في مفهوم «التحضر»، على اعتبار أن هذا المفهوم يتضمن بعدين أساسيين: بعد ديموغرافي / مجالي (انتقال لأفراد من البادية إلى المدينة)، ثم بعد سوسيولوجي / ثقافي (مسألة الاندماج، واكتساب الثقافة الحضرية). وذلك ما لايمكن اختباره إلا بانتقالنا من مجال البحث السوسيولوجي النظري إلى مجال البحث الميداني التجريبي لتتبع واختبار إشكالية «التحضر والهجرة» وسيرورة «التنشئة الحضرية» في زمان ومكان مغايرين: المجتمع المغربي في بداية القرن الواحد والعشرين، وذلك ما سنخصص له مؤلفا مستقلا.

24- J. Rémy, L. Voyé , *La ville et l'urbanisation, Op. cit.* p. 156
25- J. Pennef, *La méthode biographique*, *Op. cit.* p. 35.
26- Cité par P. J. Simon, in: *Histoire de la sociologie, Op. cit.* p. 453.

القسم الرابع

نصوص لرواد مدرسة شيكاغو

1- نص وليام إسحاق طوماس : **تعريف الوضعية**

2- نص روبرت إزرا بارك : **المدينة كمختبر اجتماعي**

3- نص لويس وورث : **التحضر كنمط عيش**

تعريف الوضعية*[1]

وليام إسحاق طوماس

إن ملكة اتخاذ القرارات من طرف الإنسان نفسه، بدل أن يراها تفرض عليه من الخارج، تشكل إحدى أكبر السلط التي تم امتلاكها على امتداد التطور الحيواني. إن الأنواع الحية الدنيا لا تتخذ قرارات، بالمعنى الذي نعطيه لهذه الكلمة، ولكنها تتحرك تحت تأثير جذب أو نبذ عناصر كيماوية – الحرارة، الضوء، الخ – تماما كما هو الشأن بالنسبة لقطعة الحديد التي يجذبها أو ينبذها المغناطيس. حقا إننا نلاحظ أحيانا عند هذه الأنواع سلوكات متكيفة مع بعض الظروف. إن جماعة من القشريات، مثلا، سينتابها الذعر إذا ما تم نفث مادة استركنين السامة (strychnine) في الحوض الذي تم وضعها فيه. وإذا ما عملنا على استبدال مادة الأستركنين بعصير لحم العجل فإنها ترتمي عليه كما ترتمي الخنازير على العصيدة (pâtée). ولكن الأمر هنا لا يتعلق سوى بتعبير عن

---

1 * هذا النص مقتبس في الأصل من كتاب إسحاق وليام طوماس:

- *«The Unadjusted girl : with cases and standpoint for behavior analysis»* Boston , Little Brown & co, 1923.

ولقد تمت الترجمة اعتمادا على النص الوارد في الطبعة الثانية من كتاب إيف كريفمايير وإسحاق جوزيف:

«L'Ecole de Chicago, Naissance de l'écologie urbaine» éd. champs urbain, Aubier, Paris, 1990, (378 p).

ميول أو نفور عضويين بالنسبة لهذه المادة أو تلك، ولا ينبع بأي حال من اختيار أو إرادة حرة. إنه، إن شأنا القول، يتعلق بقواعد سلوك، ولكنها قواعد أشبه ما تكون بتأقلم ميكانيكي للعضوية الحية مع وضعيات تتكرر مرات عديدة، ولا يمكن لهذه العضوية بأي حال من الأحوال أن تغير القاعدة.

إن للحيوانات العليا، وللإنسان خصوصا، القدرة على عدم الخضوع لمثير ما، حتى ولو سبق لهم أن فعلوا من قبل. فمن الممكن أن تكون للاستجابة لذلك المثير نتائج وخيمة في الماضي. وهذا ما يعني أن قاعدة السلوك في هذه الوضعية قد تم تغييرها. ولنسم هذه الملكة بالقدرة على التراجع (أو الكف) والتي يبدو أنها مرتبطة بدورها بمدى قدرة النظام العصبي على الاحتفاظ في الذاكرة أو حمل آثار التجارب الماضية. وعند هذا المستوى فليست المصادر الخارجية وحدها هي التي تحدد الفعل، ولكنها العضوية الحية نفسها، ومن الداخل.

إن كل سلوك ذاتي التحديد يكون مسبوقا بحالة من التفحص والتداول، وهي الحالة التي يمكننا أن نطلق عليها «**تعريف الوضعية** (Définition de situation). وحقيقة الأمر هي أنه ليست الأفعال الواقعية وحدها هي التي تستدعي تعريفا للوضعية. إن مسيرة الحياة كلها، وكل الشخصية ينبثقان فعليا وتدريجيا من سلسلة التعاريف المماثلة.

ولكن الطفل يأتي للعالم في جماعة تكون قد عرفت كل الأنماط الكبرى للوضعيات الممكن حدوثها، ووضعت من قبل أيضا قواعد السلوك الملائمة لها. إن الطفل الذي يولد في هذه الجماعة ليس له أدنى حظ في وضع تعاريفه الخاصة، أو اتباع رغباته الشخصية دون

أن يقع في الخلط. إن الناس قد عاشوا معا في جماعات. وسواء كانت الإنسانية مزودة بغريزة طبيعية فعلية، أو أن الجماعات تتمكن من البقاء بفضل المصلحة المحضة، فإن الأمر لا يهم. والأكيد هو أن الرغبات لا يمكن أن تلبى على العموم إلا في المجتمع. ولكن يكفي أن نلقي نظرة على القانون الجنائي لكي نكون فكرة عن تعدد وتنوع الحالات التي تدخل فيها الرغبات الفردية في صراع مع رغبات المجتمع. ومن المعلوم أن القانون الجنائي يترك جانبا العديد من الأفعال والرغبات غير المعاقب عليها، والتي يعمد المجتمع إلى قمعها عن طريق الإقناع أو الأقاويل.

هناك دائما إذن تنافس وتعارض بين التعريف الذي يكونه الفرد تلقائيا عن وضعية ما وبين التعريف الذي يضعه المجتمع الذي ينتمي إليه رهن إشارته. إن الفرد يتجه أكثر إلى تفضيل مُتعي للأنشطة: المتعة أولا. بينما المجتمع من جهته يقوم باختيارات نفعية: الأمن أولا. المجتمع يتمنى أن يكون أفراده عمالا، جديرين بالثقة، مواظبين، قانعين، منتظمين، غيورين. والفرد يتمنى الأقل من كل ذلك، والمزيد من التجارب الجديدة. والمجتمع المنظم يسعى من ثمةإلى تضبيط الصراعات والمنافسات التي تنشب بالضرورة بين أعضاءه وهم يسعون لتحقيق رغباتهم. فالرغبة في الغنى، وكل الرغبات الأخرى المعاقب عليها من طرف المجتمع، لا يمكن إرضاؤها على حساب عضو آخر في المجتمع: عن طريق القتل أو السرقة أو الكذب أو النصب، أو المساومة.

وفي مثل هذه الوضعية ينمو ويتطور قانون أخلاقي – مجموعة القواعد ومعايير السلوك التي تتوخى تضبيط التعبير عن الرغبات – والذي يتبلور بتواز مع تعاريف الوضعيات. وعمليا

فإن الإفراط (التجاوز) هو الذي يسبق القاعدة، ولتفادي تكراره يتم خلقها. فالأخلاقية (La moralité) هي إذن تعريف الوضعية المقبول عامة أكثر، سواء عبر عن نفسه من خلال الرأي العام، أو القانون العرفي، أو القانون الوضعي، أو من خلال التعاليم والمحرمات الدينية.

والأسرة هي الخلية الاجتماعية الأصغر، وهي أيضا أول مزود ومنتج للتعاريف. فما أن يصبح الطفل حرا في حركاته، وما أن يبدأ في جر أو تمزيق أو حشر أنفه في كل شيء، وفي التنقل بين رجلي والديه، حتى يشرع هؤلاء في تعريف الوضعية إما عن طريق اللغة، أو بواسطة إشارات أووسائل ضغط أخرى: «كن متأدبا»، «استقم»، «امسح أنفك»، «اغسل وجهك»، «استمع لأمك»، «كن لطيفا مع أختك»... الخ. وهنا يكتسب بيت الشعر الذي قاله وورسوورث (Worsworth) كل معناه: «إن ظلال السجن تتقوى تدريجيا حول الطفل وهو يكبر». إن رغباته وحركاته تبدأ تتعرقل، وشيئا فشيئا وباستمرار التعاريف التي يتلقاها في الأسرة، وفي المدرسة، ومع الأصدقاء، والتعاليم الدينية، وفي المجموعة، وخلال قراءاته المدرسية، ومن خلال إشارات الاستحسان أو الاستهجان، يتعلم الطفل قانون سير مجتمعه.

وتنضاف المجموعة للأسرة كفاعل تعريفي. واليوم أصبح مفهوم المجموعة من الضعف واللبس بحيث لم يعد بإمكانها تقمص نفس السلطة التضبيطية التي كانت الجماعة المحلية القديمة تمارسها على مختلف أنماط السلوك. وفي الأصل كانت المجموعة تشكل عالما صغيرا بالنسبة لأعضائها. فقد كانت تتكون من أسر تربطها علاقات الدم أو الزواج، ولم تكن كثيرة العدد بحيث

كان يمكن لكل أعضائها أن يلتقوا في اجتماع واحد. إنها جماعة الوجه لوجه. طلبت ذات يوم من فلاح بولوني إلى أي مدى يمتد «الأوكوليكا» (okolica) (الجوار). وأجابني : «إنه يمتد إلى أبعد نقطة يمكن أن يُتحدث فيها عن إنسان ما أو يجعل الناس يتحدثون عنه». وفي مثل هذه المجموعات نشأ القانون الأخلاقي الذي لازلنا نعترف حتى اليوم بصلاحيته. إن تقاليد المجموعة هي عبارة عن ممارسات شعبية، معترف بها ومدمجة في القوانين الرسمية للدولة وللكنيسة.

إن المجموعة النموذجية تنقرض، ولم يعد لا من الممكن ولا من المرغوب فيه إسترجاعها في شكلها القديم. إنها لا تتلاءم مع التوجه الحالي لتطور المجتمع، ولم يعد من المثير للسعادة العيش في مثل تلك الشروط. ولكن من خلال العلاقات المباشرة ومشاركة الجميع في كل شيء، فإنها تمثل شيئا ما نشعر أننا افتقدناه، وينبغي علينا من دون شك إعادة خلقه، من خلال أي شكل من أشكال التعاون، وذلك من أجل ضمان مجتمع سوي ومتوازن. أي الوصول إلى تراض يتلاءم مع الطبيعة الإنسانية.

وليام إسحاق طوماس (1923)

ترجمة ع. المالكي

المدينة كمختبر اجتماعي[1]

روبرت إزرا بارك

1 - الطبيعة الإنسانية والمدينة

لقد تم وصف المدينة على أنها السكن الطبيعي للإنسان المتحضر: ففي المدينة تطورت الفلسفة والعلم، ليجعلا من الإنسان، ليس حيوانا عاقلا وحسب، وإنما حيوانا رفيعا. وهذا يعني في المقام الأول، أنه في الوسط الحضري -أي في عالم من صنع الإنسان- وصل هذا الإنسان ولأول مرة إلى حياة فكرية، واكتسب الخصائص التي تميزه أكثر عن الحيوانات الدنيا وعن البدائيين. وبالفعل فإن المدينة والبيئة الحضرية يمثلان وبكل المقاييس المحاولة الأكثر انسجاما، والأكثر نجاحا، من أجل تغيير عالمنا الذي نعيش فيه وفقا لرغبتنا الخاصة. ولكن إذا كانت المدينة هي العالم الذي خلقه الإنسان، فإنها أيضا هي العالم الذي أصبح محكوما على هذا الإنسان أن يعيش فيه من الآن فصاعدا. وهكذا وبطريقة غير مباشرة، وبدون ان يكون لديه وعي واضح بطبيعة ما أنشأه، فإن الإنسان من خلال خلقه للمدينة قد أعاد خلق نفسه من جديد.

وبهذا المعنى وفي هذا الإطار يمكننا اعتبار المدينة مختبرا اجتماعيا.

1- عنوان هذا المقال باللغة الفرنسية هو: (La ville comme laboratoire social) وقد تمت ترجمته نقلا عن كتاب:

- L'Ecole de Chicago, *Naissance de l'écologie urbaine*, Traduction et présentation de Y. Grefmeyer et I. Joseph, ed. Champs urbain, Paris, 1979.

وبالفعل، فإن الحضارة والتقدم الإجتماعي في مدننا الحديثة قد تشكلا على نحو يشبه التجريب المراقب. فالتقدم يتجه في اتجاه اكتساب هذه الخاصية، ومثال ذلك، هو أنه في جميع الأمكنة، أصبحت دراسة الوقائع تسبق التشريع، والإصلاحات تُهيأ من طرف الخبراء وليس الهواة. إن التحقيقات الإجتماعية ومصالح الأبحاث البلدية تشهد على بروز ضرب من السياسة أكثر تجريبية وأقل أيديولوجية.

إن المشكلة الإجتماعية هي أساسا مشكلة حضرية: يتعلق الأمر إذن بالسعي في إطار الحرية المميزة للمدينة للوصول إلى نظام اجتماعي، وإلى ضبط اجتماعي، مشابهان لما تبلور طبيعيا في الأسرة، والعشيرة، والقبيلة.

إن الإنسان المتحضر، هو إلى حد ما وافد جديد. ومن المنظور التاريخي البعيد المدى، فإن ظهور المدينة، والحياة الحضرية، هما حدثان قريبان. إن الإنسان قد تشكل واكتسب معظم خصائصه الغريزية والوراثية في وسط كان يحيا فيه حياة قريبة جدا من حياة الحيوانات الدنيا. أي في تبعية مباشرة للطبيعة. وفي دوامة التغيرات التي طرأت مع تطور المدينة والحياة الحضرية، لم يستطع الإنسان التأقلم جذريا وبيولوجيا مع وسطه الجديد.

وما دام الإنسان يعيش في حدود القبيلة، فإن الأعراف والتقاليد تستطيع تلبية كل حاجاته الطبيعية في الحياة، كما أن سلطة القادة الطبيعيين تكون كافية لمواجهة كل الأزمات الدورية التي قد تعترض وجوده المستقر نسبيا. ولكن إمكانيات الحياة الإنسانية قد اتسعت مع نشأة المجموعات الحضرية. ومع الحرية الجديدة، واتساع تقسيم العمل اللذين أتى بهما النظام الإجتماعي الجديد، أصبحت المدينة هي مركز وبؤرة كل التغيرات الإجتماعية

التي انتهت امتداداتها وتعقيداتها المتزايدة إلى جعل كل متربول حضري مركزا محليا لاقتصاد عالمي، ولحضارة تتجه فيها كل الثقافات الجهوية والقبلية، التي توجد اليوم في حالة انصهار، إلى الإنقراض النهائي القريب.

وفي المدينة حيث تم تعويض العُرف بالرأي العام والقانون الوضعي، أصبح الإنسان مجبرا على الإعتماد على عبقريته وليس على غريزته أو على التقليد: ونتيجة لذلك سينبثق الفرد كوحدة للتفكير والفعل.

إن الفلاح الذي يأتي للمدينة للعمل والعيش فيها، يتحرر قطعا من ضغط الأعراف التليدة، ولكنه في نفس الوقت لم يعد مسنودا من طرف الحكمة الجماعية لمجموعته القروية: لقد أصبح سيد نفسه. إن حالة الفلاح نموذجية. إن كل واحد سيد نفسه إلى حد ما في المدينة. والنتيجة هي أن الإنسان الذي انتقل للمدينة قد أصبح بالنسبة لنفسه، وبالنسبة للمجتمع مشكلة لا سابق لطبيعتها وحجمها. إن النظام القديم المبني على الأعراف والتقاليد، كان مطلقا ومقدسا، وكان يتضمن بالإضافة إلى ذلك شيئا من الطبيعة ذاتها، ولقد كان هذا النظام قد بلغ مستوى من النضج جعل الناس يأخذونه كما وجدوه، تماما كما هو الشأن بالنسبة للطقس والزمن، أي كجزء من النظام الطبيعي للأشياء. والنظام الإجتماعي الجديد، على العكس من ذلك هو إلى حد ما ابتكار مصطنع، ولذلك فهو ليس مطلقا ولا مقدسا، وإنما هو نظام واقعي وتجريبي. وتحت تأثير وجهة النظر البراغماتية كفت التربية عن أن تظل محض طقس اجتماعي، وأصبحت السياسة تجريبية، وأصبح الدين اليوم عبارة عن طبع أكثر مما هو تقليد، أي شيئا ينبغي البحث عنه، أكثر مما ينبغي نقله وتلقينه.

إن العلم الطبيعي قد نشأ من مجهود إنساني بغاية السيطرة على العالم الفيزيائي. والعلم الإجتماعي يسعى اليوم من خلال نفس مناهج الملاحظة والبحث المجردة إلى تمكين الإنسان من ضبط ومراقبة الإنسان. وبما أن المشكلة السياسية، أي مشكلة الضبط الإجتماعي، قد نشأت في المدينة، ففي المدينة ينبغي أن ندرسها إذن.

2 - الدراسات المحلية الأولى

إن الدراسات المحلية، ودراسات الإنسان في سكنه وفي شروط عيشه الفعلية هي التي ساهمت في إعطاء العلوم الإجتماعية الطابع الواقعي والموضوعي الذي اكتسته في السنوات الأخيرة.

وكما يمكن أن يتوقع المرء ذلك، فإن الدراسات المحلية الأولى كانت عملية أكثر مما كانت نظرية: لقد كانت دراسات عن الصحة والسكن، وعن الفقر والجريمة. وتم استعمالها كقاعدة لسلسلة من الإصلاحات: المساكن النموذجية، مجالات اللعب، إحصائيات ديموغرافية. ولقد ولدت هذه الدراسلت اهتماما جديدا ورومانسيا بالأكواخ؛ وازدهر أدب جديد، يحكي لنا كيف يعيش النصف الآخر من المدينة، مُولدا فينا في نفس الوقت إحساسا جديدا مفاده أن الفقراء والمهاجرين الوافدين هم بشر مثلنا.

إن المؤسسات الإجتماعية التي تأسست في أواخر القرن التاسع عشر في إنجلترا وأمريكا، ستصبح مواقع متقدمة للملاحظة والدراسة المعمقة للشروط الإجتماعية في قطاعات من المدينة ظلت إلى حدود ذلك التاريخ قارات مجهولة، إلا بالنسبة لرواد السوسيولوجيا الحضرية الذين كانوا هم رجال السياسة والشرطة. لقد كان كتاب«Hull House Maps and Papers» المنشور من طرف جان أدامس (Jane Addams) ومساعديه في شيكاغو

سنة 1895، وكذلك كتاب «The City Wilderness» وكتاب «Américans in Process»، المنشوران سنوات بعد ذلك من طرف روبرت وودس (Robert Woods) في بوسطون، كانت كلها كتب من طبيعة استكشافية، أو ذات مهمة تعريفية، تهيء الميدان للدراسات التي ستليها فيما بعد، والتي تكون أكثر نسقية وأكثر دقة. لنلاحظ إذن أنه من بين هذه الدراسات الأخيرة هناك سلسلة التحقيقات عن ظروف السكن التي أنجزت في شيكاغو تحت إشراف سوفونيسبا ب بريكينريدج وإديت أبوت (Sophonisba P. Breckinridge et Edith Abbot)، والتي انطلقت منذ 1908 بطلب من المفتش العام للصحة في شيكاغو وتحت رعاية شعبة الدراسات الإجتماعية (بمؤسسة ريسل ساج Russel Sage) بالمدرسة الخيرية والمدنية بشيكاغو. وكانت الدراسات الأولى حول: السكن الجماعي للعزاب؛ أسر الشقق المفروشة؛ الحي الواطئ في الدائرة 29؛ الويست سايد معاينا من جديد؛ جنوب شيكاغو على مدخل معامل الصلب؛ مشكل السود؛ حيان إيطاليان؛ الوسط السلوفاكي في الدائرة 20؛ التوانيون في الدائرة 4 ؛ اليونانيون والإيكاليون في حي هول هاوس (Hull House)[2].

وفي نفس هذا الوقت كان شارل بوث (Charles Booth) قد بدأ في إنجلترا في حوالي 1888 دراسته المأثورة عن الحياة والعمل غي لندن[3]. وستظهر بعد ذلك سنة 1901 دراسة أكثر دقة عن الفقر في نيويورك والتي سيقوم بها رونتري (Rountree)[4]. لقد

2- هذه عبارة عن سلسلة من المقالات عن شروط السكن في شيكاغو ظهرت في «المجلة الأمريكية لعلم الإجتماع» ما بين سنوات 1910 و1916.

3- Charles Booth, *Life and Labor of the People of London*, 9 Vol., Londres, 1892.

4- B. Seebohm Rountree, *Povrety: a study of Town Life*, Londres, 1901.

كانت تلك دراسات حالات على المدى الواسع : وما كان يميزها هو أنها كانت تعبيرا عن مجهود وطيد، وإلى حد ما مُتكلف من أجل مطابقة الوصف المدهش للباحثين والملاحظين مع المقترحات الأكثر دقة والأكثر شمولية للبيانات الإحصائية. لقد كان بوث يقول[5]:

«لا أحد يمكنه أن يقوم، كما فعلت أنا، بوصف ساكنة كل طريق من طرق هذا الحي الضخم (حي شرق لندن)، لقد تناولته منزلا منزلا، وأسرة أسرة -بكل التفاصيل المثيرة المجمعة من أفواه الزوار انطلاقا مما دونوه هم بأنفسهم-، ولا أحد يمكنه أيضا أن يضع موضع الشك أصالة المعلومات وصدقها. وليس لدي أي شك في غنى المادة التي جمعتها. إنني في الواقع محرج بكمها، وبحرصي على ألا أستعمل أي واقعة لا أستطيع أن أعطيها قيمة كمية. إن المواد المتعلقة بالحكايا المثيرة تملأ كل مفكراتنا، ولكن، إذا كان لدي الحذق الكافي لاستعمال موادي بهذا الشكل -وتلك هي موهبة الخيال المسمى «واقعية»-، فإنني لا أريد استخدامه هنا. فأن يوجد فقراء يتخبطون، وأشخاص محرومون من كل شيء، والذين يعانون الجوع، والذين أصبحوا مدمني خمر، والذين أصبحوا شرسين ومجرمين، إن كل هذا موجود ولا أحد يشك في ذلك. إن غايتي كانت هي البحث من أجل البرهنة على العلاقة الرقمية بين الفقر والبؤس والفساد، وبين المداخيل القارة، والرخاء النسبي، ووصف شروط حياة كل طبقة».

ولم تكن مع ذلك إحصائيات بوث، هي التي جعلت من دراساته هذه المساهمة المأثورة والحاسمة فيما يتعلق بمعرفتنا بالطبيعة الإنسانية وبالمجتمع، وإنما كانت كذلك بفضل وصفه الواقعي لوجود الطبقات العاملة - شروط حياتها وعملها، وأهوائها،

5- C. Booth, *Op. cit.*, I, p. 5-6.

وأنماط ترفيهها، ومآسيها العائلية، وفلسفات الحياة التي تسمح لكل طبقة بمواجهة الأزمات الخاصة بها-. والحصيلة المستقاة من كل هذه المجلدات إذن، هي عرض مفصل ودقيق لمرحلة من مراحل الحضارة الحديثة في آخر القرن التاسع عشر، كما تتجلى في حياة العامل في لندن. إن هذه المجلدات كانت تشكل في زمانها دراسة سوسيولوجية؛ ولكنها اليوم بالنسبة لنا وثيقة تاريخية.

ومما أعطى هذا الإزدهار الكبير للدراسات المحلية في الولايات المتحدة الأمريكية، هو خلق مؤسسة ساج (Fondation Sage) في 1906، ونشر ما بين 1909 و1914 لنتائج التحقيق عن بيتسبيرج (L'enquête de Pittsburg) : ولقد تم اختيار بيتسبيرج من طرف بول كيلوج (Paul U. Kellog) ومساعديه كمجال للبحث لأن هذه المدينة كانت تمثل في نظرهم نموذجا واضحا جدا لمفعول القوى والإتجاهات الناشئة عن الحياة الصناعية وعن النمو السريع الذي تعرفه أمريكا. لقد كانت بيتسبيرج تبدو وبجلاء كمدينة صناعية أساسا. وكانت أمريكا كلها في طور التحول الصناعي: وكانت بيتسبيرج إذن تقدم كمادة اكلنيكية لدراسة الحضارة الأمريكية. وكان يبدو من الممكن انطلاقا من حالة مدينة واحدة إبراز كيف يؤثر التنظيم الصناعي لذلك الوقت في الحياة الفردية والثقافية لشعب ما. ولهذه الغاية أنجز التحقيق المذكور.

إن «تحقيق بيتسبيرج» قد جاء في الوقت المناسب: لأنه ظهر في زمن كان كل الأشخاص المتنورين في الولايات المتحدة الأمريكية يبحثون عن إضاءات بصدد المشاكل التي لم تعد بعد الوسائل التقليدية المرتبطة بأشكال وعادات سياسة الأحزاب قادرة على حلها. إنها الفترة التي كان الإصلاحيون فيها يبحثون عن كيفية إبقاء الإصلاحات بمنأى عن السياسة، أي سياسة الأحزاب

بالضبط. إن «تحقيق بيتسبيرج» يقدم منهجا جديدا في التربية السياسية، وفي العمل الجماعي بالنسبة للشؤون المحلية، منهجا لا يأخذ بعين الإعتبار المسائل الحزبية، ولم يكن يعني شيئا أكثر ثورية من تغيير طريقة تدبير الحكم المحلي.

لقد أصبحت التحقيقات الإجتماعية وقتها «موضة»، وتم إجراء كل أنواع الدراسات المحلية، في كل أرجاء البلاد. إن التنوع الكبير لمجالات الإهتمام التي لامستها تلك الدراسات يبرز من خلال ذكر مواضيع أكثرها أهمية. إن التحقيق عن سبرينجفييلد (L'enquête sur Springfield) كان يتوخى تغطية كل حقل السياسة الإجتماعية: الصحة العمومية، التربية، والخدمات الإجتماعية، في كل مجالاتها[6]. و«تحقيق عن العدالة الجنائية في كليفلاند» (Enquête sur la justice criminelle à Cleveland) والمنشور في 1922. فضلا عن دراسة العلاقات بين الأعراق في شيكاغو بعد الإنتفاضة العنصرية والمنشورة في نفس السنة تحت عنوان: «الأسود في شيكاغو» (Le Noir à Chicago)، تلكم فقط مجرد أمثلة.

وككل دراسة محلية، فإن هذه التحقيقات تحمل بصمة التاريخ المحلي والمعاصر. إنها تركز على خصوصيات الوضعيات المبحوثة، ولكنها في نفس الوقت دراسات حالة. إن الشروط الخاصة بمدينة معينة توصف بشكل يجعلها قابلة للمقارنة مع الشروط التي يمكن مصادفتها في مدن أخرى. إنها لا تنتج عموميات كبرى ذات قيمة كونية، ولكنها تعطي كما من المواد التي تثير الأسئلة، وتوحي بفرضيات قابلة لأن تكون موضوع تحليل إحصائي، ونص من طبيعة كمية.

6- *The Springfield Survey : a Study of social conditions in an American City*, dirigé par Shelby M. Harrison, 3 vol., New York, Russel Sage Foundation, 1918 - 1920.

3 - المجموعة الحضرية

في كل هذه الأبحاث، أو كلها تقريبا، توجد هناك ضمنيا فكرة مفادها أن المجموعة الحضرية، في نموها وتنظيمها، تمثل مركبا من الاتجاهات والأحداث التي يمكن ان تَتَمَفْهم، وأن تشكل موضوعا لدراسة مستقلة. وكل هذه الابحاث تحتوي على فكرة ضمنية عن المدينة باعتبارها وحدةً تتمتع بتنظيم متميز وتاريخ نموذجي، وهذه الفكرة هي أن مدنا مختلفة تتشابه كثيرا إلى حد أننا وفي حدود معينة يمكننا القول بأن ما نتعلمه عن الواحدة منها يمكن أن يصدق على الأخريات.

وهذه الفكرة شكلت الموضوعة المركزية لسلسلة من الدراسات الخاصة عن المجموعة الحضرية لشيكاغو: البعض منها تم نشره من قبل، والبعض الآخر هو في الطريق[7]. وثلاث منها هي: «الهوبو» لنيلز أندرسون (Nels Anderson) و«الغيتو» للويس وورث (Louis Wirth) والكولد كوست آند ذو سلوم ل هارفي زوربوغ (Harvey W. Zorbaugh)، تتناول كل واحدة منها أحد «**الفضاءات الطبيعية**» في المدينة. فكتاب «الهوبو» هو كتاب فريد، يتناول العامل المؤقت في سكنه، أي في قطاع المدينة الذي تمأسست فيه مصالحه وعاداته. و»الغيتو»، من جهته، هو دراسة للحي اليهودي، ولكنه في نفس الوقت عبارة عن التاريخ الطبيعي لمؤسسة الحياة اليهودية، وهي مؤسسة نشأت وازدهرت في العصر الوسيط، ولازالت مستمرة بشكل من الأشكال إلى أيامنا هذه. وعلى كل حال فإن استمرار هذه المؤسسة يعني أنها كانت تؤدي وظيفة معينة، كانت تسمح لنمطين متميزين من السكان من العيش معا، كل واحد منهما يشارك في نفس الاقتصاد، ولكنه يحافظ

7- R. E. Park, E. Burgess *et al.*, *The city*, Chicago, 1925.

في نفس الوقت على وحدته العرقية والثقافية الخاصة. بينما يعتبر كتاب «ذو جولد كوست آند ذو سلوم» دراسة في منطقة «نورث سايد»، والتي لا تعتبر مجرد «فضاء طبيعي» ولكنها مجموعة من الفضاءات الطبيعية، وذلك لأنها تضم «صقلية الصغرى» (La petite Sicile)، و«الشاطىء الذهبي» (The Gold Coast)، وبينهما قطاع وسيط هام مليء بالعمارات المعدة للكراء[8].

نطلق تعبير «فضاء طبيعي» على قطاع ما من المدينة، لما يكون نشأ من دون تصميم مسبق، ويؤدي في نفس الوقت وظيفة، بالرغم من كون هذه الوظيفة، كما هو الشأن بالنسبة لأحياء الأكواخ، يمكن أن تكون ضد رغبة كل واحد على حدة: إنها فضاء طبيعي، لأن لها تاريخا طبيعيا. إن وجود هذه الفضاءات الطبيعية، والتي لكل واحد منها وظيفته الخاصة، تعطينا بعض الاشارات لما ستكون عليه المدينة عند التحليل، ليس كما افترضنا ذلك أعلاه، محض حادث مصطنع (artefact)، ولكنها، بمعنى ما، وإلى حد ما، عضوية حية (un organisme).

إن المدينة، في الواقع، هي تشكيلة من الفضاءات الطبيعية، لكل واحد منها مركزه الخاص، وكل واحد يؤدي وظيفته الخاصة داخل الاقتصاد الكلي للمدينة. وأهم ما يعبر عن العلاقة بين مختلف الفضاءات الطبيعية الحضرية، هو علاقة المدينة مع ضواحيها. وتبدو هذه الضواحي كمحض امتدادات للمجموعة الحضرية. وكل ضاحية في نموها التوسعي في اتجاه البادية، تسعى لاكتساب طابع خاص يميزها عن كل الضواحي الأخرى. إن المتربول، إذا صح القول، عبارة عن آلية ضخمة للفرز والتصفية، فمن خلال طرائق

8- للاطلاع على التصاميم التي توضح المجموعات المحلية لشيكاغو، انظر:
-*The Gold Coast and the Slum*, p. 126 et 133,

لا زلنا لم نتمكن بعد من إدراكها كلية، تنتقي بدقة وصرامة من مجموع السكان الأفراد الأكثر جدارة وقدرة على العيش في قطاع معين وفي وسط معين. وبقدر ما تكون المدينة كبيرة بقدر ما تكون ضواحيها أكثر عددا وأكثر تنوعا كذلك. إن المدينة تنمو من خلال الامتداد والاتساع، ولكنها تحتفظ دوما بطابع الانتقاء والتمييز بين سكانها، بحيث إن كل واحد ينتهي في آخر المطاف إلى إيجاد المكان الذي يمكنه أن يعيش فيه، أو الذي يجب عليه أن يعيش فيه[9].

إن دراسات أخيرة عن شيكاغو قد أظهرت المدى المدهش الذي يمكن أن يبلغه هذا التمييز. إن هناك قطاعات من شيكاغو بدون أطفال تقريبا؛ وهناك قطاعات نصف أطفالها الذين في سن المثول أمام محكمة الأطفال يُحْصون على الأقل مرة واحدة في السنة كمنحرفين[10]؛ وفي قطاعات أخرى لاوجود للطلاق، وفي أخرى هناك نسب أعلى من حالات الطلاق، والهجر، وهي قريبة، فيما عدا بعض الاستثناءات، من النسب المسجلة في المقاطعات الأخرى من الولايات المتحدة[11].

إن توزع الجماعات بحسب السن والجنس يُظهر العديد من التباينات العجيبة في مختلف أجزاء المدينة، وهذه التباينات تعتبر مؤشرات ثابتة عن اختلافات أخرى على مستوى الثقافة والطباع وسط السكان.

ولا ينبغي أن يستنتج مما قيل قبل قليل أن سكان مختلف الفضاءات الطبيعية بالمدينة يمكن أن يعتبروا متجانسين. والخلاصة

9- انظر مقال إرنست بيرجيس (E. W. Burgess):
- «The Growth of the City», dans, R. E. Park *et al.*, *the City*, p. 47-62.

10- Cf. Clifford R. Shaw, *Delinquency and Crime Areas in Chicago,* Chicago, 1929.

11- Ernest R. Mower, *Family Disorganisation*, p. 116-123.

هي أن الناس يعيشون معا لا لأنهم متشابهون، ولكن لأنهم نافعون لبعضهم البعض. وهذا صحيح بالنسبة للمدن الكبرى بالخصوص، حيث يتم الحفاظ على المسافات الاجتماعية، بالرغم من القرب الجغرافي، وحيث تكون لكل مجموعة كل الحظوظ لتتكون من أناس يعيشون معا في علاقات لايصح كثيرا وصفها بالاجتماعية بقدر ما يصح القول عنها بأنها علاقات تعايش.

ومن جهة أخرى، فإن كل مجموعة هي إلى حد ما وحدة ثقافية مستقلة، لها مُثُلها الخاصة، وتصورها الخاص لما هو لائق، ومناسب، وجدير بالتقدير والاحترام. ولما يرتفع أو ينحدر الأفراد في تنافسهم من أجل المكانة في المجموعة، فإنهم يتجهون دوما، وتبعا لذلك، للانتقال من قطاع سكني لآخر؛ إنهم قد يصلون إلى «الشاطىء الذهبي» (Gold Coast)، أو يجنحون في اتجاه الأحياء السفلى، أو قد يحتلون موقعا مقبولا في مكان ما بين الإثنين. وفي كل الأحوال، فإنهم يتعلمون كيف يتأقلمون، كليا إلى حد ما، مع ظروف ونظام القطاع الذي استقروا به. إن ملفات المؤسسات والمصالح الاجتماعية، تسمح بتتبع هجرات الأفراد، والأسر، ومعرفة ما وقع بهم. ومن الممكن في الغالب الذهاب بهذه الأبحاث أبعد، والحصول على معلومات، وعلى نبذة عن تجارب هؤلاء الأفراد، وهاته الأسر: مواقفهم، حالتهم النفسية، آفاقهم، وأولا وقبل كل شيء تطور وتغير الأفكار التي يكونونها عن أنفسهم تحت تأثير انتقالهم من وسط لآخر. إن حكايات حياة المهاجرين العديدة التي تم نشرها في السنوات الأخيرة تمنحنا مواد من هذا النوع.

وكلما فهمنا مواقف الأفراد وتاريخهم الشخصي فهما أفضل، كلما كان بإمكاننا معرفة المجموعة التي يعيشون فيها أحسن. ومن جهة أخرى، كلما عرفنا أكثر عن الوسط الذي يعيش أو عاش فيه

الفرد، كلما أصبح سلوكه قابلا للفهم. وهذا صحيح لأنه إذا كان المزاج موروثا، فإن الطبع والعادات يتشكلان تحت تأثير الوسط.

وفي الواقع، فإن أغلبية مشاكلنا السلوكية العادية، تحل فعليا، إذا كان لها حل، من خلال تنقيل الفرد من بيئة يكون فيها سلوكه سيئا، إلى أخرى يمكن أن يتصرف فيها أحسن. وهنا أيضا فإن العلم الإجتماعي قد بلغ مدى يمكن أن يكون تقريبا هو مستوى التجريب في المختبر. ولتحقيق هذه التجارب، فإن المدينة من خلال قطاعاتها الطبيعية، تشكل «إطارا مرجعيا»، أي جهازا لمراقبة ملاحظاتنا للشروط الاجتماعية في علاقتها بالسلوك الانساني.

4 - الفرد

بفعل الطبيعة الخاصة للمجتمع والعلاقات الاجتماعية، فإن مشاكلنا الاجتماعية توجد متقمصة عادة في أشخاص وسلوكات فردية. وبما أن المشاكل الاجتماعية كثيرا ما تنتهي إلى مشاكل سلوك فردي، وبما أن العلاقات الاجتماعية هي في نهاية الأمر، وأساسا، علاقات فردية، فإن موقف وسلوك الأفراد يعتبران المصدرين الرئيسيين لمعرفتنا بالمجتمع.

إن المدينة كانت على الدوام مصدرا غنيا بالمواد الاكلينيكية لدراسة الطبيعة الانسانية، لأنها كانت دوما مصدر ومركز التغير الاجتماعي. وفي المجتمع المستقر تماما، والذي يبلغ فيه الانسان التوازن البيولوجي والاجتماعي الأكمل، فمن النادر أن نرى ظهورا للمشاكل الاجتماعية، كما أن القلق، والصراعات الداخلية، والمطامح، التي تغذي طاقة الانسان المتحضر، والتي تجعل منه مشكلة بالنسبة لنفسه وللمجتمع، ستكون منعدمة في هذه الحالة.

ولم تظهر للوجود دراسات الشخصية إلا مع ظهور من ينعتهم جورج سيمل (G. Simmel) بأعداء الداخل - أي الفقير والمجرم والأحمق -. ولذلك لم يعد الفقر والانحراف والحمق إلا منذ عهد قريب من مشاكل الشخصية والسلوك. واليوم، صحيح أنه تم الانتهاء إلى الاعتراف بالعمل الاجتماعي كفرع من فروع الطب، كما أن «العامل الاجتماعي في ميدان الطب النفسي»، قد انتهى إلى تعويض أو إنضاف إلى عمل الزائر المتطوع. إن مندوب الحرية المحروسة، والمربي في المنزل، ومدير ميدان اللعب العمومي، قد حصلوا جميعا على وضع مهني جديد، وذلك منذ اللحظة التي تم فيها قبول فكرة كون المشاكل الاجتماعية هي في الأساس مشاكل سلوك.

ولقد تم إعطاء دفعة جديدة لدراسة مشاكل الشخصية مع إنشاء أول محكمة خاصة بالأطفال في مدينة شيكاغو سنة 1899. وستصبح محاكم الأطفال هذه مباشرة، وبحسب الظروف التي نشأ ت فيها، بمثابة مصحات سلوكية. ولوضع المنحرف على المحك، كانت تتم دعوته للمشاركة في تجربة تحت إشراف مندوب للحرية المحروسة، وذلك بهدف إعادة إدماجه.

وبعد إحداث معهد علم النفس المرضي الخاص بالأطفال، والذي كانت له صلة بمحكمة الأطفال بشيكاغو، سيشرع هيلي (Healy) في إنجاز دراساته المنتظمة، والتي ستشكل قاعدة لكتابه المتميز: «الفرد المنحرف» (The Individual Delinquent)، الذي نشر سنة 1915. وسيتبع ذلك إنجازات أخرى منها: إنجاز دراسات مماثلة تحت رعاية مؤسسة جادج بيكر (Judge Beker) ببوسطون، وخلق معاهد أخرى لدراسة الطفولة، و«مصحات سلوكية» (Cliniques de comportement) في كل مناطق البلاد، وبالخصوص: مركز البحث حول حماية الطفولة في جامعة إييوا (Iowa)،

ومعهد البحث حول حماية الطفولة في جامعة مينوسيتا (Minnesota)، ومعهد البحث حول حماية الطفولة في تيتشرز كوليج (Teachers College) بمدينة نيويورك، ومعهد توجيه الطفولة، والمؤسسات المدعمة محليا لتوجيه الطفولة، والذي أنشىء بمبادرة من البرنامج العمومي لتمويل الوقاية من الانحراف في سانت لويس، ودالاس، ولوس أنجلوس، ومينيبوليس، وسانت بول، وكليفيلاند، وفيلادلفيا.

إن دراسة انحراف الشباب ومشاكل السلوك على العموم قد قامت على أسس صلبة في شيكاغو، وذلك من خلال تنظيم صندوق البحث حول السلوك في ماي 1926 من طرف كل من الدكتور هيرمان (Herman) والدكتور أدلير (Adler)؛ وكان هذا الأخير قد جمع مجموعة بارزة من الباحثين والخبراء، ووضع جهازا إداريا لجمع الملاحظات العلمية الدقيقة، الطبية-النفسية والاجتماعية. وقد شكل تراكم هذه الملاحظات خزانا من المعطيات والمعلومات التي يتم إخضاعها حاليا لتحليلات إحصائية متقدمة تعطي نتائج مدهشة وذات أهمية كبرى.

إن دراسات معهد البحث في الطفولة وصندوق البحث في السلوك تعتبر إلى حد ما فريدة: إنها في نفس الوقت دراسات طب-نفسية واجتماعية، أي أنها لا تهتم فقط بالفرد وسلوكه، ولكنها تنصب أيضا على البيئة والوضعية التي يأتي ذلك السلوك استجابة لها. وهذا ما يتيح إمكانية تطبيق -في شكل برنامج مدقق- فكرة كانت موضوع عدة مؤتمرات جمعت أطباء نفسانيين وممثلي مختلف العلوم الإجتماعية الأخرى، الذين كانوا يسعون لتحديد العلاقات بين الدراسات الطب-نفسية والدراسات الاجتماعية،

والدور الذي يمكن أن يلعبه الطب النفسي بتعاون مع العلوم الاجتماعية من أجل استكشاف ومعالجة المشاكل الاجتماعية.

ولم يعد أحد اليوم يضع موضع الشك -على افتراض أنه تم ذلك من قبل- إن الفكرة التي يكونها الفرد عن نفسه، والدور الذي يلعبه في كل مجتمع، وكذلك الطبع الذي ينتهي إلى اكتسابه، تحدد كلها إلى حد كبير بالعلاقات التي يخلق، وبالعالم الذي يعيش فيه بصفة عامة. إن المدينة عبارة عن مركب مكون من عوالم من هذا النوع؛ عوالم تتماس، ولكنها لا تتداخل أبدا بصفة كلية.

ومن دون أدنى شك فإن الفضاءات الحضرية تختلف عن بعضها البعض بنوع ومميزات الحياة الاجتماعية التي تتكرس فيها وبأنماط الحياة أو أثمنة الأرض السائدة فيها في نفس الوقت. ومن بين أكبر أهم سلاسل الدراسات المحلية التي أنجزتها جامعة شيكاغو هناك الدراسة التي استهدفت تحديد وتمييز كل الفضاءات المهمة في المدينة. وترتكزهذه الدراسة على مُسلمة مفادها أن معرفة أكثر اكتمالا بأمكنة وناس المدينة ستلقي ضوءً جديدا على التنوع المدهش -بحسب مختلف الفضاءات الحضرية- لكم وامتداد إهمال الأسرة، وحالات الطلاق، والأفعال الجنحية، والجرائم، ومختلف الشواهد الأخرى المعبرة عن سوء التنظيم الاجتماعي (Désorganisation sociale). ومن ثمة فإن هذه الدراسة ستكون مفيدة بالنسبة لكل خدمة اجتماعية تسعى للإهتمام بصورة مباشرة أو غير مباشرة بهذه المشاكل. ولكنها ومن خلال تحديدها -بأكبر ما يمكن من الدقة- لمختلف الظروف الفعلية التي ستجري فيها عمليات التجريب الاجتماعي، ستجعل من المدينة من الآن فصاعدا مختبرا اجتماعيا.

5 - المؤسسات

لقد تم تشكيل المدينة كموضوع للبحث انطلاقا من وجهات نظر مختلفة. فهناك أدبيات مهمة متوفرة عن جغرافيا المدينة، إلى جانب عدد كبير من الدراسات المتعلقة بالمدينة باعتبارها واقعا فيزيقيا، بما فيها بعض الدراسات عن السكن، والتخطيط الحضري والهندسة المدنية. ولقد جعل ن.س.ب. كراس (Gras) في كتابه «مدخل للتاريخ الإقتصادي» من المدينة الموضوع الرئيس بالنسبة لتاريخ اقتصاد مر بمراحل هي: القرية، والمدينة الصغيرة، والمدينة الكبرى، وصولا إلى اقتصاد المتربول المميز لزمننا الحاضر. وتبعا لذلك، سيكتسي التاريخ الاقتصادي معنى جديدا بفعل كتابته انطلاقا من وجهة نظر أيكلوجية وجهوية، ولما سيتم اعتبار المدينة وسوقها بمثابة النقطة المحورية في تراب تتسع حدوده باستمرار، فإنها ستنتشر وتقوي هيمنتها عليه ومراقبتها له.

إن المشاكل السياسية والادارية التي تعج بها المدن قد انتهت بها إلى حد احتلال مكانة متعاظمة باستمرار في علم السياسة، وذلك بتواز مع ازدياد عدد سكان المدن الذي يؤشر بدوره إلى ازدياد تأثيرها وتعقدها.

وأخيرا، وباعتبارها اليوم كما كانت دائما بوتقة انصهار مختلف الأعراق والثقافات، فإن المجموعة الحضرية هي المكان الذي تنبثق فيه مؤسسات جديدة، في نفس الوقت الذي تضعف أو تتحول أو تندثر مؤسسات سابقة.

إن لأسرة، على الأقل في أصلها الأول، ليست مؤسسة: والأرجح أنها هي الشكل الأول والأكثر بدائية للمجتمع -إنها شكل

تم الحفاظ عليه بالرغم من التغيرات المستمرة التي يتم إدخالها عليه بحسب تغير ظروف المسار المتقلب للإنسانية. ويبدو أن الأسرة شكلت النموذج القاعدي لكل أنماط الحضارات، باستثناء حضارتنا إن الحضارة الغربية تأسست على المدينة، على «البوليس» (la polis) كما كان يسميها الإغريق؛ وكانت في الأصل سياسية أكثر مما كانت عائلية. ففي المدن-الدول (cités-Etats) التي عرفتها اليونان وروما سيتم استبدال المجتمع القائم على أساس القرابة والعرف والعائلة بمجتمع قائم على أساس حقوق المواطن والتنظيم السياسي.

إن الأسرة اليوم في طور التغير والتفكك في كل أرجاء العالم المتحضر، بما فيها حتى المناطق التي استطاعت أن تظل محافظة فيها ولزمن طويل على شكلها الأصلي: أي اليابان والصين. ومع ذلك فإن التحولات التي تعرضت لها الأسرة كانت أسرع في المدينة أكثر مما في سواها. وكل ما هو مميز للحياة الحضرية: كحراك السكان، والتقسيم القوي للعمل، وتعدد المؤسسات البلدية، والمؤسسات الجماعية بمختلف أشكالها، قد ساهم في إحداث هذه التغيرات. إن المدارس والمستشفيات وكل المنظمات المهتمة بمساعدة وخدمة الفرد، والتي أخذت الواحدة تلو الأخرى تحتل مكان البيت والأسرة بالنسبة لبعض الوظائف، قد ساهمت بشكل غير مباشر في تقويض المؤسسة القديمة وتقليص أهميتها الاجتماعية.

وكما عرفت الأشكال القديمة للأسرة تراجعها وتلاشيها في البيئة الحضرية، فكذلك في المدينة ستتم أيضا معظم تجارب الأشكال الجديدة للحياة الأسرية. ولهذا يمكننا أن ندرس مؤسسة الأسرة في المدن أحسن مقارنة مع دراستها في أي مكان آخر.

إن المدينة وشروط الحياة التي تفرضها قد ساهما معا في علمنة (sécularisation) كل أشكال الحياة الاجتماعية، الشيء الذي أثر في العمق على تنظيم الكنيسة. إن العديد من الدراسات المحلية قد اتخذت من الكنائس الحضرية والقروية موضوعا لها في السنوات الأخيرة، ولكن أيا منها لم تنجز بهدف إيضاح مدى اتساع التغيرات التي مست بنية ووظيفة الكنيسة باعتبارها مؤسسة اجتماعية.

ومع ذلك فلا شك أن هناك العديد من التغيرات في طور الحدوث. بعدما بدأ اهتمام ومناهج العلوم الاجتماعية ينصب أساسا على الإنسان المتحضر بعد الاهتمام بالانسان البدائي، فمن الأكيد أن التغيرات الجارية في المؤسسات الدينية المعاصرة، ستأخذ أهمية لا يبدو أنها تكتسيها في الوقت الراهن.

وبمبادرة من الأستاذ شارل أو. ميريام[12] (Charles E. Merriam) وتحت توجيهه تم مؤخرا وبالخصوص في شيكاغو الشروع في إنجاز دراسات أكثر واقعية انصبت على الاشتغال الفعلي للسيرورة السياسية كما تتم في شروط وظروف الحياة الحضرية الحديثة.

إن السيرورة السياسية، في معناها الواسع، أشمل وأبعد كثيرا من مجرد صياغة القوانين من طرف المؤسسات التشريعية، وتأويلها من طرف المحاكم: إنها تشمل دورة بكاملها من الأحداث تنطلق مع نوع من القلق العام منه تنبثق المواضيع السياسية، وتنتهي مع التبني العام، في عادات وتقاليد المجموعة إلى قاعدة جديدة من السلوك أو -حتى نستعمل تعبيرا جعله و.إ. طوماس (W.I.Thomas) متداولا- إلى تعريف جديد للوضعية.

12- Cf. Charles E. Merriam, *New Aspects of politics*, Chicago, 1925; *Four American Party Leaders*, New York, 1926; Chicago : *a More Intimate View of Urban Politics*, (-).

إن السيرورة السياسية تشمل النقاش السياسي وتعريف المشاكل؛ وتكوين الرأي السياسي والتعبير عنه؛ وانتخاب المشرعين؛ وصياغة وإصدار التشريع؛ وتأويل وتطبيق القانون، وأخيرا امتثال ورضى كل المجموعة لمختلف تطبيقاته. وبهذه الطريقة ينتهي القانون إلى أن يصبح جزء من العادة، ويترسخ في تقاليد المجموعة. إن السيرورة السياسية تشمل كل أنشطة الحكومة، وبما أن المجتمع هو أساسا عبارة عن تنظيم للضبط الاجتماعي، فإن هذه السيرورة تشمل في النهاية كل مظاهر الحياة الاجتماعية. إن تنظيم مكاتب للدراسات البلدية في كل من نيو يورك وشيكاغو وغيرهما، والدراسات الحديثة عن الادارة والعدالة الجنائية في كليفلاند وسان لوي (Cleveland et Saint Louis) تبرز كلها اتجاه وتقدم البحث في هذا الميدان.

إن دراسات مجموعة العلوم السياسية في جامعة شيكاغو، لا توضح فقط التوجه نحو نظرة أكثر واقعية للسيرورة السياسية: ولكنها تسعى أيضا، إلى إدخال مناهج علمية في وصف السلوك السياسي والتنبؤ به؛ وذلك ما نستشفه على سبيل المثال، في مشاريع البحث التي سبق نشرها؛ ونذكر منها «Non Voting» (الامتناع عن التصويت) لشارل أو. ميريام وهارولد ف. كوسنيل (Charles E. Merriam et Harold f. Gosnell)؛ و«Getting out the vote» (التواجد خارج الاقتراع) ل هارولد ف. كوسبيل؛ و«The Chicago Primary of 1926: a study in Election Methods» (إنتخابات 1926 في شيكاغو: دراسة في مناهج الإنتخاب) ل كارول هـ. وودي (H. Woody Carroll)؛ و«Carter H. Harrison: a Study in political Leadership» (كارتر هـ. هاريسون: دراسة في الزعامة السياسية) ل ك. او. جونسون (C. O. Jonson)؛ و«The

Leonard D.) (المسير الحضري) ل ليونار د. وايت «city Manager
.(White

يقول سمنر (Sumner) بأن هناك نوعين من المؤسسات : 1) تلك التي تنمو و2) تلك التي تخلق بمرسوم. ولكن المؤسسات ليست أبدا نتاجا خالصا للمرسوم - وبتعبير أدق إننا نكتشفها ونبدعها. إن الواقع يبدو كما لو أن المؤسسات تنمو دائما، ولكن نموها يتم عادة من خلال تتابع وتراكم الابداعات الخاصة[13].

ومن بين الدواعي التي تجعل من المدينة مجالا مناسبا جدا لدراسة مؤسسات الحياة الاجتماعية على العموم، هو أن هذه المؤسسات تنمو وتتطور بسرعة في شروط الحياة الحضرية. إنها تتطور تحت أنظارنا. إن سيرورة نموها قابلة للملاحظة، وللتجريب في نهاية الأمر.

ومما يجعل المدينة المجال الأنسب لدراسة الحياة الاجتماعية ويمنحها صفة المختبر الاجتماعي، هو أنه في المدينة تصبح كل خاصية من خصائص الطبيعة الانسانية ليست قابلة للرؤية فحسب ولكن مكبرة أيضا.

وفي جو الحرية الخاص بالمدينة، يجد كل فرد وكيفما كانت أطواره مجالا ما حيث ينشرح وينبسط، وحيث يمكنه أن يعبر بشكل من الأشكال عن خصوصية طبيعته. إن المجموعة الصغيرة يمكنها أحيانا أن تقبل الخروج عن المعتاد ولكن المدينة تكافؤه في الغالب. ومن دون أدنى شك فإن أحد عوامل جذب مدينة ما هو أن كل نوع من الأفراد فيها المجرم، المتسول، والإنسان العبقري أيضا

13- W. G. Sumner, *Folways*, p. 48-50.

يمكنه أن يجد في مكان ما الرفقة التي تلائمه، بحيث إن العيوب أو المواهب التي كانت مكممة في الدائرة الحميمية للأسرة، أو في الحدود الأضيق لمجموعة صغيرة ما، تجد هنا المناخ الروحي المناسب لتفتحها وازدهارها.

والنتيجة هي أن كل المطامح الخفية وكل الرغبات المكبوتة تجد فرصة ما للتعبير عن نفسها في المدينة. إن المدينة تضخم وتنشر وترسخ مظاهر الطبيعة الانسانية الأكثر تنوعا. وهذا ما يجعل المدينة مهمة بل مغرية. وهذا أيضا هو ما يجعل منها المكان الأنسب بامتياز لاكتشاف أسرار القلب الانساني ودراسة الطبيعة الانسانية والمجتمع.

(ر. إ. بارك) 1929

ترجمة ع. المالكي.

التحضر كنمط عيش[*1]

لويس وورث

1 - المدينة والحضارة المعاصرة

كما كان الشأن بالنسبة لبداية الحضارة الغربية والتي تميزت بالتوطن القار لشعوب ظلت تعيش على الترحال على امتداد الحوض المتوسطي، فإن انطلاق كل ما يمكن نعته بالحديث في حضارتنا يجد أفضل دليل عليه في نمو وتطور المدن الكبرى.

ولم تكن الإنسانية عبر تاريخها الطويل أكثر بعدا عن حياة الطبيعة أكثر مما هي عليه اليوم في ظل شروط حياة المدن الكبرى. فالعالم المعاصر لم يعد على صورة الجماعات الصغرى المعزولة والمكونة من كائنات إنسانية مشتتة على رقعة أرضية شاساعة، كما كان الشأن بالنسبة للمجتمعات البدائية التي وصفها سمنر[2] (Sumner). إن الخاصية المميزة لنمط عيش إنسان الأزمنة الحديثة هي تركزه في تجمعات عظمى منها تشع الأفكار والأفعال التي نسميها «حضارة».

[*1] عنوان هذا المقال باللغة الفرنسية هو: Le phénomène urbain comme mode de vie)
(وقد تمت ترجمته نقلا عن كتاب:
- L'Ecole de Chicago. *Naissance de l'écologie urbaine*, Traduction et présentation de Y. Grefmeyer et I. Joseph, ed. Champs urbain, Paris, 1979.

2- William Graham Sumner, *Folkways*, Boston, 1906, p. 12.

إننا لا نستطيع أن نقدر تماما وبدقة درجة «التحضر» التي بلغها العالم المعاصر من خلال نسبة ساكنة المدن فقط . إن تأثير المدن على الحياة الاجتماعية للإنسان أعلى بكثير مما يمكن أن يدل عليه معدل السكان الحضريين: وبالفعل، فإن المدينة ليست فقط، وبقسط يزداد ارتفاعا يوما عن يوم، مكان سكن وعمل الإنسان الحديث فحسب، بل إنها أيضا مركز تنشيط ومراقبة الحياة الإقتصادية، والسياسية، والثقافية. لقد استطاعت المدينة أن تستقطب في مدارها مجموعات العالم الأكثر بعدا، كما استطاعت أن تؤلف بين مجالات، وأناس وأنشطة متعددة لتجعل منها عالما منظما.

إن النمو الحضري وتحضر العالم يعتبران إحدى الوقائع الأكثر إثارة في الأزمنة الحديثة. ومن المستحيل قطعا أن نحدد بدقة نسبة الحضريين من سكان العالم -الذين يقدر عددهم ب: 1800 مليون نسمة - ولكن 69.2 % من مجموع سكان البلدان التي تميز بالفعل بين المناطق القروية والمناطق الحضرية هم حضريون[3]. وإذا ما أضفنا لذلك كون ساكنة العالم موزعة بشكل لامتكافىء جدا، وكون نمو المدن غير متقدم في بعض البلدان التي لم يمسسها التصنيع إلا مؤخرا، فإن هذا المعدل لايعكس المستوى الذي بلغه التركز الحضري في البلدان التي كان فيها وقع التصنيع أكثر قوة وقدما. إن هذا التحول من المجتمع القروي إلى مجتمع يغلب عليه الطابع الحضري، والذي تم في ظرف جيل واحد في المجتمعات المصنعة كالولايات المتحدة واليابان، كان مصحوبا بتغيرات عميقة، مست عمليا كل مظاهر الحياة الإجتماعية. إن هذه التغيرات وتفريعاتها

---

3 - S. V. Pearson, *The Growth and Distribution of Population*, New York, 1935, p. 211.

هي ما يستدعي توجيه اهتمام عالم الإجتماع لدراسة الفوارق بين طرق العيش في البادية وفي المدينة. إن تقص يمضي في هذا الإتجاه يعتبر أولوية ضرورية من أجل فهم، أو حتى إن أمكن، السيطرة على أحدى المشاكل المعاصرة الأكثر تعقيدا في الحياة الإجتماعية. إن مثل هذا التقصي من شأنه أن يفتح أمامنا أكثر الآفاق استشرافا من أجل فهم التغيرات الجارية في الطبيعة الإنسانية والنظام الإجتماعي[4].

وبما أن المدينة هي ثمرة مسلسل نمو أكثر مما هي ثمرة خلق لحظي، فينبغي أن نتوقع أن التأثيرات التي تمارسها على أنماط العيش، لا يمكنها أن تمحو بعد كليا أنماط الإجتماع الإنساني المهيمنة سابقا. ونتيجة لذلك، فإن حياتنا الإجتماعية لاتزال تحمل، بقدر معين، طابع المجتمع التقليدي السابق، والذي تعتبر الضيعة، والمنزل الريفي، والقرية، من الأشكال المميزة لوجوده. إن هذا التأثير التاريخي قد تقوى نظرا لكون ساكنة المدينة نفسها تنحدر في غالبيتها من البادية، حيث يسود نمط عيش لازال يحتفظ بملامح من شكل الوجود القديم هذا. ولذلك لاينبغي أن نتوقع وجود قطيعة أو انفصال بين نمطي الشخصيتين الحضرية والقروية. إن المدينة والبادية يمكن اعتبارهما قطبين تتوزع التجمعات الإنسانية انطلاقا منهما. وإذا ما اعتبرنا المجتمع الحضري-الصناعي، والمجتمع

4- بينما كانت الحياة القروية في الولايات المتحدة ولفترة طويلة موضوعا يحظى باهتمام عظيم من طرف المصالح الحكومية -والحالة التي تستحق أن تذكر كتقرير شامل هو ذاك الذي الذي رفعته لجنة الحياة القروية للرئيس تيودور روزفلت في 1909، والجدير بالذكر هنا أنه لم ينجز أي تحقيق رسمي مماثل عن الحياة الحضرية، وذلك إلى غاية خلق لجنة التعمير وذلك في إطار اللجنة الوطنية للموارد. (انظر):

- *Our Cities. Their Role in the National Economy*, Washington, Imprimerie gouvernementale, 1937.

القروي-التقليدي كنموذجين مثاليين للمجموعات البشرية، فإنه يمكننا بناء على ذلك فتح المجال لتحليل الأنماط القاعدية للإجتماع الإنساني كما تتبدى في الحضارة المعاصرة.

2 - التعريف السوسيولوجي للمدينة

بالرغم من الأهمية الكبرى للمدينة في حضارتنا، فإن معرفتنا بطبيعة الظاهرة الحضرية وبسيرورة التحضر ما تزال ضعيفة. لقد كانت هناك مع ذلك محاولات عديدة لعزل الخصائص المميزة للحياة الحضرية. ولقد عمد بعض الجغرافيين، والمؤرخين، والإقتصاديين، والسياسيين على التوالي إلى إدماج وجهات نظر علومهم، في تعاريفهم المختلفة للمدينة. ودون ادعاء الحلول محلهم بأية صفة من الصفات، فإن صياغة مقاربة سوسيولوجية للمدينة يمكن أن تساهم عَرَضًا في لفت الإنتباه إلى التداخلات الممكنة من خلال التركيز على المميزات الخاصة للمدينة باعتبارها شكلا من أشكال الإجتماع الإنساني. إن أي تعريف للمدينة لكي يكون ذا دلالة سوسيولوجية، ينبغي أن يستهدف انتقاء العناصر التي تدل على الظاهرة الحضرية، باعتبارها نمط عيش متميز لجماعة إنسانية.

إن تخصيص مجموعة ما بصفة الحضرية اعتمادا على الحجم وحده ينطوي على الكثير من التعسف الواضح. ومن الصعب الدفاع عن التعريف الحالي الذي يعتمده الإحصاء العام، والذي يعتبر كل مجموعة مكونة من 2500 نسمة فأكثر جماعة حضرية، والجماعات الأخرى قروية. ونفس الحكم يصدق لو اتخذ معيار 4000، أو 8000، أو 10000، أو 25000، أو حتى 100000 نسمة.

وبالفعل، فإننا وإن كنا سنحس، في الحالة الأخيرة، أننا نلتقي بمجموعة حضرية أكثر مما لو كنا أمام حجم أقل، فإنه لن يكون هناك أي تعريف مُرضي تماما للظاهرة الحضرية ما دمنا نعتمد الكم كمعيار وحيد. وأكثر من ذلك، فليس من الصعب البرهنة على أن هناك مجموعات مكونة من عدد من السكان أقل من المستوى المحدد تعسفا، ولكنها ونظرا لوقوعها في دائرة تأثير مدينة كبرى، فإنها تملك أسبابا أقوى للإعتراف بها كجماعات حضرية، وذلك بالمقارنة مع مجموعات أخرى، والتي بالرغم من حجمها الأكبر، فإنها تكون تعيش في عزلة داخل منطقة يهيمن عليها الطابع القروي. وأخيرا، يجب الإعتراف بأن تعاريف الإحصاءات العامة، تعتبر المدينة دائما ومن دون مبرر مقبول، وتحت تأثير وجهة النظر الإحصائية، مجرد مفهوم إداري. إن الحدود القانونية تلعب دورا حاسما في تحديد المناطق الحضرية. وهذا الأمر يظهر بالخصوص، وبشكل أكثر جلاء، في التجمعات السكانية الواقعة في ضواحي المتربولات الكبرى، والتي تتجاوز تعسفا الحدود الإدارية للمدينة، والجهة، والدولة، والأمة.

وما دمنا نعرف الظاهرة الحضرية بالوحدة الفيزيقية للمدينة، واعتبارها ببساطة مجرد وحدة مجالية محددة بشكل صارم، وما دمنا نتصرف كما لو أن الخصائص الحضرية تختفي فجأة بمجرد تجاوزنا لحدود مجالية تعسفية، فلن يكون باستطاعتنا أبدا الوصول إلى تصور شامل للظاهرة الحضرية باعتبارها نمط عيش. إن التقدم التكنلوجي في ميدان المواصلات والإتصالات، والذي يمثل في الواقع عهدا جديدا في التاريخ الإنساني، قد قَوى من دور المدن وجعلها العناصر المهيمنة في حضارتنا، وساعد بشكل كبير على

نشر نمط العيش الحضري إلى ما وراء حدود المدينة نفسها. إن هيمنة المدينة، وبالخصوص المدينة الكبرى، يمكن أن تعتبر كنتيجة نظرا لكون المدينة تحتكر المنشآت والأنشطة الصناعية والتجارية، والمالية والإدارية، ووسائل النقل والإتصال، والتجهيزات الثقافية، والترفيهية كالصحافة، ومحطات الإذاعة، والمسارح، والمكتبات، والمتاحف، وقاعات الحفلات، والأوبرات، والمستشفيات، ومؤسسات التعليم العالي، ومراكز البحث والنشر، والمنظمات المهنية، والمؤسسات الدينية، وهيآت المساعدة الإجتماعية. ولولا هذه الجاذبية وهذا التأثير اللذين تمارسهما المدينة من خلال هذه الوسائل على الساكنة القروية، لكانت الفوارق بين طرق العيش في المدينة وفي البادية أكبر كثيرا مما هي عليه الآن. إن التحضر لم يعد يعني فقط تلك السيرورة التي من خلالها يتم اجتذاب بعض الناس إلى مكان يسمى المدينة ليندمجوا في نسق عيشه. بل إنه يشير أيضا إلى التقوية التراكمية للخصائص المميزة لنمط العيش المرتبط بالنمو الحضري؛ وأخيرا فإن التحضر يشير إلى التطور في اتجاه أنماط العيش المتعارف عليها كحضرية، والتي تتجلى عند أشخاص تعرضوا -أينما وجدوا- للتأثير الذي تمارسه المدينة عليهم من خلال سلطة مؤسساتها وشخصياتها بفضل وسائل الإتصال والنقل.

إن العيوب التي تشوب تبني عدد معين من السكان كمعيار للظاهرة الحضرية هي نفسها العيوب التي تشوب تبني معيار الكثافة السكانية، وذلك سواء اعتمدنا كثافة 10000 نسمة في المايل المربع، كما اقترح ذلك مارك جيفرسون[5]، أو 1000 نسمة، والتي يفضل

5- . M. Jefferson, «The Anthropogeography of some Great Cities», *Bulletin de la Société américaine de géographie,* XLI, 1909, P. 537-566.

ويلكوكس اعتبارها معيارا للتجمعات الحضرية[6]. ومن الواضح أن الكثافة إذا لم يتم ربطها بخصائص اجتماعية مُمَيزة، فإنها لن تعطينا سوى أساسا تعسفيا للتمييز بين المجموعات الحضرية والقروية. وبما أن إحصاءنا العام يَعُد الساكنة الليلية لمجال ما وليس ساكنته النهارية، فإن مركز المدينة الذي يعتبر مسرح الحياة الحضرية غالبا ما يكون ضعيف الكثافة السكانية، والمناطق الصناعية والتجارية للمدينة التي تحفل بالأنشطة الإقتصادية الأكثر تمييزا وارتباطا بالمجتمع الحضري، لن تعتبر حضرية بأي وجه من الوجوه إذا ما تبنينا حرفيا الكثافة السكانية كسِمَة مميزة للواقعة الحضرية. ومع ذلك فإن المجموعة الحضرية تتميز أساسا بعدد ساكنتها الكبير، وتركزها الكثيف نسبيا، وهذا ما لا يمكن أن يَتجاهله أي تعريف للمدينة، ولكن هذه المعايير يجب أن تؤخذ في علاقتها بالسياق الثقافي العام الذي تنشأ فيه المدن وتحيا. فهي لن تكون دالة سوسيولوجيا إلا بقدر ما تنشط كعوامل مكيفة للحياة الإجتماعية.

إن نفس النقد يصدق على معايير أخرى مثل مهنة السكان، أو وجود بعض التجهيزات المادية المعينة، أو بعض مؤسسات وأشكال التنظيم السياسي. إن السؤال لا ينحصر في معرفة هل المدن في حضارتنا أو في غيرها، تمتلك بالفعل هذه السمات المميزة، ولكنه يكمن في معرفة ما هي القدرة التي تمتلكها هذه المدن حتى تتمكن من تكييف نمط الحياة الإجتماعية وتوجيهها في اتجاه اكتساب شكلها الحضري الخاص. ولايمكننا أن نسمح لأنفسنا ونحن بصدد صياغة تعريف خصب للمدينة، أن نتجاهل

6- Walter F. Willcox, «A Definition of «City» in Terms of Density», In E. W. Burgess, *the Urban Community*, Chicago, 1926, p. 119.

الإختلافات الكبيرة بين المدن. واعتمادا على تصنيف للمدن مبني على الحجم، والموقع ، والقدم ، والوظيفة، والذي قمنا بوضعه في تقريرنا الأخير المقدم للجنة الوطنية للموارد، اتضح لنا أنه بالإمكان تصنيف المجموعات الحضرية بدء من المدن الصغرى التي تصارع من أجل إثبات وجودها إلى المتروبولات العالمية الثرية، ومن المراكز التجارية المعزولة وسط المناطق الفلاحية إلى الموانئ الدولية المزدهرة وإلى المدن المتصلة التجارية والصناعية. إن مثل هذه الإختلافات والتصنيفات تبدو صعبة التحديد، لأن تأثيرات هذه «المدن» مختلفة ومتنوعة بشكل كبير.

إن التعريف الإجرائي للظاهرة الحضرية، لا ينبغي أن يشير فقط إلى الخصائص الأساسية المشتركة بين جميع المدن -على الأقل بالنسبة للمدن المنتمية لثقافتنا-، ولكن أيضا ينبغي أن يسعى إلى اكتشاف اختلافاتها. ومن وجهة النظر الاجتماعية، فإن مدينة صناعية ما ستختلف بصورة واضحة عن مدينة تجارية، أو مدينة منجمية، أو ميناء للصيد البحري، أو محطة للإصطياف، أو مدينة جامعية، أو عاصمة. كما أن مدينة الصناعة الوحيدة ستكون لها مجموعة من الخصائص الإجتماعية المختلفة بالمقارنة مع مدينة الصناعات المتعددة، كما تختلف أيضا المدينة المتوازنة صناعيا عن المدينة **الصناعية المختلة التوازن**. كما تختلف الضاحية عن المدينة الكوكب (ville satellite) (المدينة التابعة)، وكذلك الضاحية السكنية بالمقارنة مع الضاحية الصناعية. وكذلك الشأن بالنسبة للمدينة المندمجة في منطقة متروبولية والتي لامقارنة بينها وبين مدينة تقع خارج هذه المنطقة، ونفس الأمر بالنسبة لمدينة قديمة ومدينة جديدة، ومدينة جنوبية ومدينة من أنجلترا الجديدة

(La Nouvelle-Angleterre)، ومدينة من الميدل ويست ومدينة على المحيط الهادئ، أو مدينة في أوج ازدهارها ومدينة جامدة أو في طريق الإنهيار.

يبدو إذن أن التعريف السوسيولوجي للمدينة يجب أن يكون من الغنى والشمول بحيث يستطيع أن يستوعب كل الخصائص الأساسية المشتركة بين كل هذه الأصناف من المدن باعتبارها وحدات اجتماعية، ولكن هذا التعريف لا يمكنه في نفس الوقت أن يبلغ الدقة التي تمكنه من أن يأخذ بعين الإعتبار كل الإختلافات الضمنية في التصنيفات العديدة التي تطرقنا إليها منذ حين. ويمكننا أن نفترض أن بعضا من خصائص المدن هي أكثر تأثيرا من غيرها في تكييف طبيعة الحياة الحضرية، ويمكننا أن نتوقع أن تكون السمات المميزة للمشهد الإجتماعي الحضري تتغير بحسب الحجم، والكثافة، والإختلافات بين أنماط الوظائف في المدن. وزيادة على ذلك يمكننا أن نؤكد على أن الحياة القروية تحمل البصمة الحضرية، على اعتبار أنها من خلال الاتصالات والمواصلات تتعرض لتأثير المدينة. وربما سنساهم في توضيح مقترحاتنا اللاحقة أكثر إذا ما كررنا القول أنه كلما كان المجال الهندسي للظاهرة الحضرية كنمط عيش يتركز، بصفة واضحة، في المجالات التي تستوفي الشروط التي سنحددها لتعريف المدينة، فإن الظاهرة الحضرية حينئذ لن تبقى محصورة في أماكن بعينها، بل إنها ستتجلى وبدرجات متباينة في أي مجال تصله تأثيرات المدينة.

من الأكيد أن الظاهرة الحضرية، أو هذا النسق من السمات الذي يشكل نمط العيش المميز للمدن، والتحضر الذي يعني نمو وانتشار هذه العوامل، لا تُصادَفُ فقط في الفضاءات العمرانية

التي هي المدن بالمعنى المادي والديموغرافي للكلمة، ولكنها تجد مع ذلك تعبيرها الأكثر وضوحا في مثل هذه الفضاءات، وبالخصوص في المتربولات. وعند صياغة تعريف ما للمدينة لابد من الحذر، وذلك لتفادي المطابقة بين الظاهرة الحضرية كنمط عيش، وبين التأثيرات الثقافية المُكيفَة بالمحلية أو بالتاريخ، والتي وإن كان بإمكانها أن تؤثر بشكل بارز في الطابع الخاص لمجموعة بشرية ما، فإنها لا تعتبر هي المحددات الأساسية التي تمنح هذه المجموعة طابع المدينة.

ويبدو من الأهمية بمكان أيضا لفت الإنتباه إلى الخطر المتمثل في الخلط بين الظاهرة الحضرية وبين واقعتي التصنيع والرأسمالية الحديثة. إن ازدهار المدن في العالم الحديث ليس منفصلا تماما عن انبثاق التكنلوجيا الحديثة المبنية على الآلة، وعلى الإنتاج بالجملة، وعلى المقاولة الرأسمالية. وإذا كانت مدن العصور القديمة رغم أوجه الإختلاف بينها وبين مدننا الكبرى اليوم، قد نشأت ونمت في ما قبل الصناعة وما قبل الرأسمالية، فإنها كانت مدنا مع ذلك.

من المنظور السوسيولوجي، يمكننا تعريف المدينة كتوطن مهم الحجم نسبيا، كثيف ودائم، لأفراد غير متجانسين اجتماعيا. وعلى أساس المسلمات التي يفترضها هذا التعريف الأدنى، فإنه من الممكن صياغة نظرية للظاهرة الحضرية على ضوء ما تم التوصل إليه حاليا من معرفة بخصوص الجماعات الإجتماعية.

3 - نظرية الظاهرة الحضرية

إن المرء ليبحث دون جدوى، في الأدبيات الغزيرة التي اهتمت بالمدينة، عن نظرية للظاهرة الحضرية تقدم بطريقة نسقية

المعرفة المتوفرة عن المدينة باعتبارها كيانا اجتماعيا. إننا نتوفر من دون شك على نصوص نظرية رفيعة عن المشاكل الخاصة، كالنمو الحضري، منظورا إليه كتيار تاريخي وسيرورة متواترة[7]، كما نتوفر على العديد من الكتابات التي تعرض مقتطفات مستقاة من مصادر سوسيولوجية ومن دراسات امبريقية، والتي تعطينا معلومات دقيقة عن عدد كبير من المظاهر الخاصة بالحياة الحضرية. ولكن بالرغم من تعدد الأبحاث والمؤلفات عن المدينة، فإننا لا نتوفر بعد على مجموعة من الفرضيات المختصرة والتي يمكن أن تُشتق من مجموعة من المُسلمات الواردة ضمنيا في تعريف سوسيولوجي ما للمدينة، ومن معارفنا السوسيولوجية العامة التي أثبتها البحث الامبريقي. إن أفضل المقاربات التي نتوفر عليها بصدد نظرية نسقية عن الظاهرة الحضرية لا نعثر عليها إلا في المحاولة الثاقبة لماكس فيبر (M. Weber) والمتجلية في كتابه «المدينة» (Die Stadt)، وفي مقال روبرت بارك (R. Park) المأثور: «المدينة: اقتراحات للبحث في السلوك بالوسط الحضري»[8]. لكن حتى هذه المساهمات الرفيعة نفسها، تظل مع ذلك، بعيدة عن أن تشكل إطارا نظريا منظما ومنسجما يمكن للبحث أن يعتمده للتقدم بشكل مفيد.

وفي الصفحات التالية سنحاول أن نقدم عددا محدودا من السمات المُميزة للمدينة. وبعد طرح هذه السمات، سنوضح ما هي النتائج أو السمات العامة الجديدة التي ستنجم عنها على ضوء النظرية السوسيولوجية العامة والبحث الامبريقي. وإننا لنأمل أن نصل بهذه الطريقة إلى الاقتراحات الأساسية المتضمنة لنظرية عن

7- Cf. Robert E. Park, Ernest W. Burgess et al., *La ville*, Chicago, 1925.

8- Park, Burgess *et al. Op. cit.*, chap. 1.

الظاهرة الحضرية. وبعض هذه الاقتراحات يمكن أن تعزز بمجموعة هامة من مواد البحث المتوفرة حاليا؛ والبعض الآخر يمكن أن يشكل فرضيات تتضمن بعض الحدس، والتي تتطلب إخضاعها لاختبار أشمل وأدق. وعلى الأقل، وكما نتمنى ذلك، فإن طريقة للعمل مثل هذه ستساهم في عرض ما نتوفر عليه اليوم من أجل معرفة نسقية بالمدينة، وما هي الفرضيات الأساسية والخصبة بالنسبة للبحث في المستقبل.

إن المسألة الرئيسية بالنسبة لعالم اجتماع المدينة هي اكتشاف الأشكال النمطية للفعل والتنظيم الاجتماعيين اللذين ينبثقان في مستوطنات بشرية قارة نسبيا وكثيفة ولامتجانسة الأفراد. وينبغي علينا أن نستنتج من ذلك أيضا أن الظاهرة الحضرية ستأخذ شكلها الأبرز والأقصى بحسب نسبة حضور الشروط التي تخضع لها. وهكذا فإن مجموعة ما بقدر ما تكون كبيرة العدد وكثيفة ولامتجانسة بقدر ما تكون الخصائص المميزة للظاهرة الحضرية أكثر وضوحا فيها. وينبغي الإعتراف مع ذلك، أنه بالإمكان في العالم الإجتماعي أن نجد بعض الممارسات والمؤسسات التي تُتبنى وتدوم لدواع غير تلك التي كانت السبب في نشأتها، وأن نمط العيش الحضري تبعا لذلك يمكن أن يدوم ويبقى في شروط غريبة تماما عن السياق الأصلي لنشأته.

يبدو من اللائق أن نعطي بعض التبريرات فيما يتعلق باختيار التعابير الرئيسية المكونة لتعريفنا للمدينة، والذي اجتهدنا من أجل جعله الأكثر غنى والأكثر دلالة ما أمكن، وذلك دون إثقاله بالفرضيات الزائدة. فالقول بأن الأعداد الكبيرة ضرورية لتكوين المدينة، يعني بطبيعة الحال، أعدادا كبيرة بالنسبة لمجال ضيق،

أو بالنسبة لكثافة عالية من الإستيطان. وهناك مع ذلك، العديد من المبررات التي تجعلنا نعالج العدد الكبير والكثافة كعاملين منفصلين، نظرا لأنه من الممكن أن نَعزُو لكل واحد منهما نتائج اجتماعية مختلفة الدلالة. وبنفس الطريقة، يمكننا أن نتساءل عن الحاجة من إضافة عدم التجانس لحجم السكان كمعيار ضروري ومتميز للظاهرة الحضرية، نظرا لأنه من الممكن أن نتوقع رؤية عدد الفوارق يتزايد مع حجم المدينة. ويمكننا أن نقول في دفاعنا، إن المدينة تُبدي لاتجانسا سكانيا لايمكن تفسير طبيعته ودرجته بشكل كلي انطلاقا من قانون الأعداد الكبرى، أو أن يُمثل بدقة إحصائية من خلال منحنى للتوزيع العادي. وبما أن ساكنة المدينة لا تعيد إنتاج نفسها، فمن الضروري بالنسبة لها أن تستقطب مهاجريها من مدن أخرى، ومن البادية، أو -كما كان الأمر عندنا إلى عهد قريب- من دول أخرى. وهكذا كانت المدينة تاريخيا بؤرة التقاء الأجناس، والشعوب والثقافات، والمجال الأخصب لإنتاج تزاوجات بيولوجية وثقافية جديدة. إن المدينة لم تقبل الاختلافات الفردية فحسب بل كافأتها. لقد جمعت أناسا جاؤوا من أقصى المعمور لأنهم مختلفون، ومن ثمة كانوا أفيد لبعضهم البعض، ولم تجمعهم بسبب تجانسهم أو تشابه عقلياتهم[9].

هناك عدد وفير من الاقتراحات السوسيولوجية بصدد العلاقة بين: أ) حجم السكان؛ ب) كثافة التوطن؛ ج) لاتجانس الساكنة،

9- قد يبدو من الضروري إعطاء تبرير لإدراج تعبير «دائم» في التعريف. فإذا كنا لم نقف طويلا عند دلالة هذا الطابع المميز للحضر، فذلك لأنه يبدو لنا من البدهي أنه بدون استقرار مستمر نسبيا للمستوطنات الانسانية في موضع ما، فإن خصائص الحياة الحضرية لا يمكنها أن تظهر، وعلى العكس من ذلك فإن عددا كبيرا من الأفراد غير المتجانسين لا يمكنهم العيش معا في وضعية الكثافة العالية بدون تطوير بنية تكنلوجية إلى هذا الحد أو ذاك.

وبين الحياة الجماعية، التي يمكن أن نبينها اعتمادا على الملاحظة والبحث.

حجم اجتماع السكان

دائما، ومنذ كتاب «السياسة» لأرسطو[10]، تم القبول بأن تزايد عدد السكان وتجاوزه لمستوى محدد، يؤثر على العلاقات المتبادلة بين الناس وعلى طابع المدينة. إن الأعداد الكبرى تعني بالضرورة، كما أشرنا إلى ذلك من قبل، تشكيلة أكثر اتساعا من الإختلافات

10- انظر على وجه الخصوص الكتاب السابع الفصل 4 (ترجمة برتليمي-سانت-هيلير (Barthélémy-Saint-Hilaire):

«إن امتداد دولة ما يخضع لحدود معينة كأي شيء آخر، كالحيوانات، والنباتات، والأدوات. وحتى يمتلك كل شيء الصفات الخاصة به، فإنه لا ينبغي له، لا أن يكون كبيرا من غير حد، ولا صغيرا من غير حد؛ لأنه في هذه الحالة، إما فقد طبيعته الخاصة أو فسد. إن مدينة صغيرة جدا، لا ي مكنها أن تلبي كل حاجاتها، وهذا شرط أساسي؛ وإذا كانت واسعة جدا، فإنها ستلبي تلك الحاجات ولكن ليس كمدينة وإنما كوطن؛ وعندها لن يكون من الممكن قيام حكومة. فوسط هذا الحشد الهائل أي قائد سيستطيع فرض نفسه؟ وأي جهوري الصوت يمكن أن يصلح كمناد عمومي (Crieur public)؟

«إن المدينة تتكون بالضرورة في اللحظة نفسها التي يستطيع فيها الجمهور المتحد سياسيا من توفير كل متطلبات وجوده. وعند تجاوز هذا الحد، يمكن للمدينة أن توجد على نطاق أوسع، ولكن هذا التزايد له حدود كما تم القول. إن الوقائع بنفسها ستعلمنا ومن دون عناء ما ينبغي أن تكون عليه. والأفعال السياسية في المدينة من نوعين: السلطة، والطاعة. إن القاضي يأمر ويحكم. وللحكم في القضايا الخلافية، وتوزيع الوظائف بحسب الإستحقاق، من المفروض أن يكون المواطنون يتعارفون ويقدر بعضهم البعض؛ وإلا فإن الإنتخابات والأحكام لن تكون لها أية قيمة. وبهذا الصدد فإن أي قرار يؤخذ باستخفاف سيكون ضارا، وسيكون ذلك الضرر أكثر كلما كان عدد السكان أكبر. ومن جهة أخرى سيكون من السهل بالنسبة للمقيمين وللأجانب خرق قانون المدينة، وستمضي مخالفتهم دون عقاب في وسط الحشد المجتمع. يمكننا إذن أن نقول أن عدد السكان الأنسب بالنسبة للجسم السياسي، هو ببداهة العدد الأكبر الممكن من السكان الذين يستطيعون توفير حاجيات عيشهم، ولكن دون أن يكونوا من الكثرة بحيث ينفلتون من المراقبة السهلة. تلك هي مبادؤنا بصدد امتداد الدولة.»

الفردية. وبالإضافة إلى ذلك، كلما كان عدد الأفراد الذين يدخلون في نسق ما للتفاعل كبيرا، كلما كانت الإختلافات المحتملة بينهم أكبر. يمكننا أن نتوقع إذن أن تكون الخصائص الفردية، والحِرَف والحياة الثقافية وأفكار أعضاء مجموعة حضرية ما، تتوزع بين أقطاب أكثر اتساعا مما هو عليه الأمر عند القرويين.

ويمكننا أن نستنتج من ذلك بسهولة، أن ينشأ بالضرورة عن مثل هذه الاختلافات التمييز المجالي بين الأفراد بحسب لون بشرتهم، وموروثهم الإثني، ووضعهم الإقتصادي والاجتماعي، وأذواقهم وميولاتهم. إن العلاقات العائلية، والجوار والمشاعر التي تتولد عن الحياة الجماعية الممتدة لأجيال في إطار نفس التقاليد، من المحتمل جدا أن تغيب، أو في أحسن الظروف، أن تكون أقل نسبيا في تجمع سكاني ينتمي أفراده إلى أصول وتقاليد متنوعة ومتباينة جدا. وفي مثل هذه الأوضاع، فإن التنافس وميكانيزمات الضبط الرسمي ستقوم مقام علاقات التضامن التي يتم الاعتماد عليها للحفاظ على انسجام المجتمع التقليدي.

إن تزايد عدد سكان مجموعة ما وتجاوزه لبعض المئات يفرض الحد من قدرة كل فرد على معرفة الآخرين شخصيا. ومن خلال اعتراف ماكس فيبر بأهمية هذه الواقعة، فقد لاحظ أنه من وجهة النظر السوسيولوجية، فإن العدد الكبير من السكان وكثافة التجمعات السكانية يعنيان بأن التعارف الشخصي المتبادل بين السكان المعهود عادة في تجمعات الجوار الصغيرة يغيب هنا[11]. وهكذا فإن تزايد العدد يفرض أيضا حدوث تغير في العلاقات الإجتماعية. ويوضح سيمل ذلك بقوله:

11- Max Weber, *Op. cit.*, p. 514.

«إذا ماكان ينبغي على الإلتقاءات السطحية المستديمة بين أعداد كبيرة من الناس، أن تتقاطع مع عدد مماثل من التفاعلات الداخلية، كما هو الشأن في المحلات الصغرى حيث يعرف كل واحد كل من يلتقيهم تقريبا، ويقيم معهم علاقة فعلية، فإننا سنكون أمام حياة داخلية مجزأة تماما، وسنسقط في حالة ذهنية غير معقولة.[12]»

إن تزايد عدد الأفراد الذين يوجدون في وضعية تفاعل، وفي شروط يستحيل معها ربط علاقات شخصية بالفعل، ينتج هذه التجزئة التي تعرفها العلاقات الانسانية، والتي ينطلق منها أحيانا الإختصاصيون في الحياة الذهنية الحضرية لتفسير الطابع «الفُصامي» للشخصية الحضرية. وهذا لايعني أن الحضريين يعرفون عددا أقل من الناس مقارنة مع القرويين، لأن العكس أيضا يمكن أن يتحقق؛ إن هذا يعني على الأصح، أنهم لا يعرفون إلا نسبة ضئيلة من الأشخاص العديدين الذين يرونهم أو يحاذونهم في الحياة اليومية، وليست لديهم عنهم سوى معرفة سطحية.

وكعلامة نموذجية: فإننا نجد أن المدينيين يلتقون في أدوار تجزيئية جدا. إنهم -مقارنة مع القرويين- مضطرون من دون شك للارتباط بعدد أكبر من الناس لتلبية حاجاتهم الحيوية، وبذلك يجدون أنفسهم يتعاملون مع عدد أكبر من الجماعات المنظمة، ولكنهم أقل ارتباطا بأشخاص بعينهم، وتبعيتهم للآخرين تنحصر في مظهر جزئي جدا من أنشطة الآخر. وهذا ما نعنيه أساسا لما نقول بأن المدينة تتميز بالعلاقات الثانوية أكثر مما تتميز بالعلاقات الأولية. إن الاتصالات في المدينة يمكن أن تكون بالفعل وجها

12- Georg Simmel, «*die Grosstdte und des Geistesleben*», *die Grosstdte*, Theodor Peterman, Dresde, 1903, p. 187-206.

لوجه، ولكنها مع ذلك تظل سطحية، وعابرة، وتجزيئية. إن الحذر والتحفظ واللامبالاة، ومواقف الضجر، التي نلاحظها في علاقات المدينيين فيما بينهم يمكن أن تعتبر كأجهزة للتحصن ضد المطالب الشخصية والتطلعات التي يمكن أن تكون لدى الآخرين.

إن الطابع السطحي والتكتمي والعابر للعلاقات الاجتماعية في الوسط الحضري يفسر أيضا التصنع والعقلنة اللتين ننعت بهما المدينيين عادة. إن الأفراد الذين نعرفهم يسعون إلى التموضع في علاقة نفعية إزاءنا، بمعنى أن كل دور يلعبه أحدهم في حياتنا يعتبر عموما كوسيلة لبلوغ أهدافنا الخاصة. ومن ثمة فبقدر ما يربح الفرد، من جهة، درجة ما من التحرر أو الحرية بالمقارنة مع الضغوط الشخصية والعاطفية التي تمارسها الجماعات الصغرى الحميمية، بقدر ما يخسر، من جهة أخرى، التعبير العفوي عن الذات، والروح المعنوية، ومعنى المشاركة التي تقترن بالحياة في مجتمع مندمج. وهذا ما يشكل بالضبط حالة «الأنومي» (L'anomie) أو الفراغ الإجتماعي التي يشير إليها دوركهايم عند محاولة توضيحه لمختلف أشكال سوء التنظيم الاجتماعي في المجتمع التكنلوجي.

إن الطابع التجزيئي والملمَح النفعي للعلاقات بين الأشخاص في المدينة يجدان تعبيرهما في الانتشار الواسع للأعمال المتخصصة والتي تأخذ شكلها الأكثر تطورا في المهن الحرة. إن الأنشطة ذات الصلة بميدان المال تُفضي إلى علاقات الغش والنصب التي تنحو في اتجاه عرقلة السير السليم للنظام الاجتماعي، إذا لم يتم كبحها بواسطة القوانين المهنية ومساطير الحرف. إن الأولوية التي تُعطى للنفع والنجاعة تفترض إمكانية استعمال نسق الشركات من أجل تنظيم المقاولات التي لا يمكن للأفراد أن يلتزموا فيها إلا جماعيا.

إن الميزة التي للشركة بالمقارنة مع المقاول الفردي أو تجمع الشركاء في العالم الحضري-الصناعي، لاتأتي فقط من الامكانيات التي تتيحها من خلال مركزة موارد آلاف الأشخاص، أو من الحظوة القانونية الكامنة في المسؤولية المحدودة، أو في التوارث المستمر، ولكنها تأتي أيضا من واقعة كون الشركة لا روح لها.

إن تخصص الأفراد، وبالخصوص على مستوى المِهَن، لا يمكن أن يتم، كما أوضح ذلك آدم سميث، إلا على أساس سوق واسعة، الشيء الذي يُذكي بدوره تقسيم العمل. إن هذه السوق الواسعة لا تتوفر إلا جزئيا في ضواحي المدينة، إنها تتشكل أساسا وعلى نطاق واسع من أعداد الأفراد الذين تحتضنهم المدينة نفسها. إن هيمنة المدينة على ضواحيها المجاورة تصبح قابلة للتفسير من خلال تقسيم العمل الذي تتيحه الحياة الحضرية وتشجعه. إن الدرجة القصوى للترابط والتداخل والتوازن المتذبذب للحياة الحضرية، متصلين جدا بتقسيم العمل وتخصص المهن. وهذا الترابط وهذا التذبذب يتقويان من خلال سعي كل مدينة إلى التخصص في الوظائف التي تدر عليها أكبر نفع.

وفي المجموعة المكونة من عدد ضخم جدا من الأشخاص بحيث يستحيل التعارف الحميمي فيما بينهم، أو الاجتماع على نقطة معينة، يصبح من الضروري إذن التواصل بواسطة وسائل الاعلام، والتعبير عن المصالح الشخصية من خلال سيرورة التفويض والإنابة. ومن الأمور الخاصة بالمدينة أن المصالح يتم التعبير عنها بنجاعة من خلال النيابة. إن الفرد لا يؤخذ بعين الإعتبار إلا قليلا، ولكن صوت الممثل (représentant) يسمع باحترام يتناسب عموما مع عدد الانتدابات التي لديه.

حقا، إن خاصية الظاهرة الحضرية هذه، وبالرغم من كون مصدرها هو العدد الكبير، فإنها لا تَستنفذ بأيٍ شكل من الأشكال النتائج السوسيولوجية التي يمكن أن تُستخلَص من العلاقات الممكنة بين حجم جماعة ما والسلوك المميز لأعضائها. ولكن، وحتى لانُطيل، فإن الإثباتات التي ذكرنا يمكن أن تساعد على توضيح نمط الاقتراحات التي يمكن أن نُطور.

الكثافة

كما هو الشأن بالنسبة للعدد، فإننا نلاحظ أنه كلما كان هناك تركز بشري في مجال ضيق، كلما انبثقت عنه بعض النتائج الموافقة للتحليل السوسيولوجي للمدينة. ولا يمكننا هنا الاشارة سوى إلى عدد محدود منها.

وكما أوضح داروين (Darwin) ذلك بالنسبة للنبات والحيوان، وكما سجل ذلك دوركهايم[13] بالنسبة لحالة المجتمعات الإنسانية، فإن تزايد العدد في مجال محدد (أي ارتفاع الكثافة) يعمل على إنتاج الاختلافات والتمايزات. وبهذا الشرط الوحيد يمكن للمجال أن يتحمل العدد المتزايد. وهكذا فإن الكثافة تقوي مفاعيل العدد من أجل تنويع الناس والأنشطة والزيادة في تعقيد البنية الإجتماعية.

وبالنسبة للجانب الذاتي، فقد افترض سيمل (Simmel) أن اختلاطنا مع عدد كبير من الأفراد ينتج بالضرورة تغيرا في أنماط علاقتنا مع الوسط الحضري، ومع أمثالنا بالخصوص. ومن مميزات الحياة الحضرية هو أنه بقدر ما تكون اتصالاتنا البدنية فيها متقاربة

13- E. Durkheim, *De la division du travail social*, Paris, 1932, p. 248.

بقدر ما تكون اتصالاتنا الاجتماعية فيها متباعدة. إن العالم الحضري يفضل التعارف بالعين. إننا نرى الزي الموحد (uniforme) الذي يشير إلى دور ومهمة الموظفين، وننسى الأصالة الشخصية التي تختفي تحت ذلك الزي. إننا نتجه في اتجاه اكتساب وتطوير تقارب خاص مع عالم مصطنع، ونبتعد تدريجيا عن عالم الطبيعة.

إننا معرضون لتناقضات صارخة بين الرونق والبؤس، بين الغنى والفقر، بين الذكاء والجهل، بين النظام والفوضى. إن التنافس لقوي من أجل المجال، بحيث إن كل منطقة تسعى على العموم لأن تُخصص للاستعمال المدر لأكبر مردود اقتصادي. كما أن مكان العمل يتجه للابتعاد عن مكان السكن، لأن قرب منطقة ما من المنشآت الصناعية والتجارية يجعلها غير صالحة -اقتصاديا واجتماعيا معا- للغايات السكنية.

إن الكثافة، والقيم العقارية، وأثمنة الكراء، وإمكانيات الوصـــول (accessibilité) والسـلامة الصحيـة، والحظـوة، والاعتبارات الجمالية، وانتفاء أنواع الأذى مثل الضوضاء، والدخان، والأوساخ، هي التي تحدد مدى جاذبية كل منطقة من مناطق المدينة باعتبارها أماكن للاستقرار بالنسبة لمختلف شرائح السكان. إن المكان وطبيعة العمل، والدخل، والخصائص العنصرية والاثنية، والوضع الاجتماعي، والأعراف، والتقاليد، والأذواق، والميول، والمستبقات، كلها من العوامل الدالة والتي على ضوئها يتم انتقاء وتوزيع السكان الحضريين في إقامات متميزة إلى حد ما عن بعضها البعض. وهكذا فإن العديد من السكان لما يتركزون في فضاءات السكن الكثيف يتجهون لأن تتكون بينهم تمايزات تكون أكثر قوة بقدر ماتكون متطلباتهم وأنماط حياتهم غير متلائمة مع

بعضها، ويعارض بعضها البعض. ونفس الشيء بالنسبة للأفراد الذين تكون أوضاعهم وحاجاتهم متشابهة، والذين يتجهون للتواجد بنفس المنطقة وذلك إما بفعل حركة لا إرادية، أو بفعل اختيار واع، أو حتى بفعل ضغط الظروف. وبذلك تكتسب مختلف أجزاء المدينة وظائف متخصصة. وتتجه المدينة إلى أن تشبه فسيفساء مكونة من عوالم اجتماعية، يتم الانتقال من أحدها للآخر بشكل مفاجئ. إن تجاور شخصيات وأنماط عيش متباينة يتجه نحو إنتاج نظرة نسبية وحس تسامح تجاه الاختلافات التي يمكن أن تعتبر كشروط للعقلانية، والتي تنتهي إلى علمنة (sécularisation) الحياة[14].

إن فعل العيش والعمل معا وجنبا إلى جنب، يغذي عند بعض الأفراد الذين ليست لهم بعد روابط وأحاسيس عاطفية، روح التنافس، والتوسع، والاستغلال المتبادل. ومن أجل مواجهة اللامسؤولية والفوضى المحتملة، يتم اللجوء إلى المراقبات الرسمية. وبدون الانخراط التام والواضح في مسلكيات روتينية متوقعة، فإن مجتمعا كبيرا وكثيفا لايمكنه أن يستمر. إن الساعة العمومية وأضواء تنظيم المرور يرمزان إلى أساس نظامنا الاجتماعي في العالم الحضري. إن الاتصال البدني المستمر، المقرون بالمسافة الاجتماعية الكبيرة، يقوي الحذر المتبادل بين أفراد محرومين من أية رابطة، والذي إذا لم يعوض من خلال إمكانيات أخرى لرد الفعل، فإنه يؤدي إلى الوحدة والعزلة. إن الانتقالات المتعددة

14- من الصعب تحديد إلى أي حد يكون تأثير الكثافة مختلفا عن تأثير عدم التجانس وذلك على مستوى تمايز السكان في مناطق أيكلوجية وثقافية خاصة، وأيضا على مستوى مواقف التسامح والعقلانية والذهنية الدنيوية التي تنتج عنها. ومن المرجح جدا أننا هنا أمام ظواهر تنتج سوية من العاملين معا.

بالضرورة للعديد من الأفراد في وسط مكتظ بالسكان تسبب الاحتكاكات والانزعاج. إن التوترات النفسية التي تنجم عن مثل هذه الاحباطات الشخصية تتقوى بفعل الوتيرة السريعة والشروط التقنية المعقدة وفضاءات السكن الكثيف التي يجد الانسان نفسه مجبرا على العيش فيها.

عدم التجانس

إن التفاعل الاجتماعي بين كل هذه الأنواع من أنماط الشخصيات في الوسط الحضري، يعمل في اتجاه فسخ صرامة الفروق بين الطبقات المغلقة وتعقيد البنية الطبقية، مؤديا بذلك إلى إطار من التراتب الإجتماعي أكثر تفتتا وأكثر تنوعا من ذاك الذي نصادفه في المجتمعات الأكثر اندماجا. إن الحراك الكثيف للفرد، والذي يجعله تابعا لفعل عدد كبير من الأشخاص المختلفين، ويُخضعه لوضع متذبذب داخل جماعات اجتماعية متباينة هي التي تشكل البنية الاجتماعية للمدينة، يعمل في اتجاه جعلنا نعتبر عدم الاستقرار، وانعدام الامن في العالم كمعيار مقبول. وهذه الواقعة هي التي تساعد أيضا على تفسير طابع التأنق والتنوع والتغير الذي يميز سلوك الحضري. ولا توجد هناك أية جماعة يمكنها أن تحتكر انتماء وتشيع الفرد لها. ومختلف الجماعات التي ينتمي إليها الفرد لايمكن إخضاعها بسهولة لتصنيف تراتبي بسيط. وبالنظر لتنوع مصالحه الناتج عن اختلاف مظاهر الحياة الاجتماعية، فإن الفرد ينخرط في جماعات متباينة جدا، لاتصلح كل واحدة منها سوى بالنسبة لجزء من شخصيته. وهذه الجماعات لا تتخذ شكل دوائر متحدة المركز، بحيث تكون أصغرها داخل دائرة الجماعات الأكبر،

كما يمكن أن يكون عليه الأمر في المجموعة القروية أو المجتمعات البدائية. وبدل ذلك ينبغي القول بأن الجماعات التي ينتمي إليها الفرد بشكل متميز هي بالأحرى متماسة، أو متقاطعة، وذلك وفقا لكيفيات متباينة ومتنوعة جدا.

إن عدم الاستقرار البدني للسكان من جهة، وحراكهم الاجتماعي من جهة أخرى، تكون نتيجتهما في الغالب هي الدوران السريع للمشاركة في الجماعة. إن مكان الاقامة، ومكان ونوع العمل، والدخل والمصالح يعتريها الاضطراب، كما أن ضمان انسجام التنظيمات، والحفاظ على العلاقات الحميمية والمستمرة وتطويرها بين الأفراد، ليس بالمهمة السهلة. وهذا ما ينطبق بشكل جلي ومدهش على أجزاء المدينة حيث تقوم التمايزات بالاعتماد أكثر على الاختلافات في العرق، واللغة، والدخل، والمكانة الاجتماعية، وليس على أساس الاختيار، أوالانجذاب الذي قد نحس به تجاه أشخاص نعتبرهم أشباها لنا. وعلى العموم فإن ساكن المدينة ليس مالك بيته، وبما أن السكن العابر لاينتج التقاليد والمشاعر التي تخلق الروابط، فمن النادر أن يكون هناك جوار حقيقي. وقليلة هي الفرص المتاحة للفرد ليكون فكرة عن المدينة باعتبارها كلا، أو يحدد مكانته الخاصة في التصميم العام. ومن ثمة يبدو من الصعب عليه أن يحدد «ماهو الأفيد لمصالحه»، أو أن يفصل بحزم في المشاكل والزعامات التي تقترحها عليه مختلف أجهزة الاعلام الجماهيري. إن أفرادا كهؤلاء بدون ارتباط بمؤسسات منظمة تتيح وتسهل اندماج المجتمع، يشكلون الحشود المتذبذبة، التي تجعل السلوك الجماعي في الوسط الحضري أمرا من الصعب التنبؤ به، ويكتنفه من ثمة الكثير من الغموض.

حقا، إن المدينة من خلال استقطابها لأشخاص ذوي طبائع مختلفة، بقصد إنجاز مهامها المختلفة، ومن خلال تقوية تمايزهم بالتنافس، وإعطاء الأولوية للأصالة، والتجديد، والنجاعة، والخيال، فإنها تنتج سكانا متباينين جدا: ولكنها تمارس أيضا تأثيرا في اتجاه التسوية. ففي أي مكان يتجمع فيه عدد كبير من الناس من مكونات مختلفة، فإن سيرورة محو الشخصية (dépersonnalisation) تأخذ بدروها في العمل. إن هذا النزوع للتسوية محايث، في جزء منه، للأساس الاقتصادي للمدينة. إن تطور المدن الكبرى، اليوم على الأقل، جاء نتيجة للمركزة التي أتاحتها الطاقة البخارية. إن إزدهار المصنع قد أتاح الانتاج الجماهيري للسوق المجهول. ومع هذا فإن الاستغلال الأمثل لإمكانيات تقسيم العمل والانتاج الجماهيري لا يمكنه أن يتم إلا من خلال توحيد الطرائق والمنتوجات. إن الاقتصاد النقدي يتماشى بتواز مع نمط إنتاج من هذا القبيل. وشيئا فشيئا، ومع تطور المدن على أساس هذا النمط من الانتاج، فإن الشبكة النقدية التي يتطلبها البحث عن الخدمات والخيرات هي التي تقوم مقام العلاقات الشخصية كأساس للاجتماع. إن الفردية في هذه الحالة ينبغي أن تعوض بالفئات. فعندما يكون هناك العديد من الناس الذين ينبغي أن يستعملوا جماعيا تجهيزات ومؤسسات ما، فمن الواجب أن يحدث تراض فيما بينهم حتى يتم تكييف هذه التجهيزات والمؤسسات مع حاجات المُستعمِل المتوسط، وليس مع حاجات أشخاص بعينهم. إن الخدمات التي توفرها التجهيزات العمومية من خلال مؤسسات الترفيه، والتعليم، والثقافة، يجب أن تتم أقلمتها مع متطلبات الجمهور. ومن منظور مشابه، فإن المؤسسات الثقافية- كالمدارس، وقاعات السينما، والاذاعة، والصحف-

يجب بالضرورة، ونظرا لنوعية زبنائها المكونة من الجمهور، أن تعمل كأدوات للتوحيد والتسوية (nivellement). فلا يمكننا أن نفهم السيرورة السياسية كما تتبدى لنا في الحياة الحضرية، دون أن نأخذ بعين الاعتبار الدعوات الموجهة للجماهير، والتي ترسل إليها عبر مختلف التقنيات الحديثة للاشهار والدعاية. وإذا ما قدر للفرد أن يشارك ولو قليلا في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للمدينة، فإنه يجد نفسه مجبرا على التخلي عن جزء من فرديته لصالح متطلبات المجموعة، وبذلك يذوب في الحركات الجماهيرية.

4 - العلاقة بين نظرية الظاهرة الحضرية والبحث السوسيولوجي

إن مختلف ظواهر الحياة الحضرية المعقدة، وذات الأوجه المتعددة، يمكن أن تخضع للتحليل انطلاقا من فئات أساسية، وذالك بواسطة نسق نظري، كالذي حاولنا توضيحه بأمثلة. وبذلك تكتسب المقاربة السوسيولوجية للمدينة الوحدة والانسجام اللذين يسمحان لكل من أراد القيام بدراسة امبريقية، لا أن يمتلك نظرة دقيقة عن المشاكل والسيرورات التي تدخل في ميدان عمله الفعلي فحسب، ولكن أيضا أن يعالج مسائله بطريقة أكثر اندماجا ونسقية. ويمكننا أن نشير إلى بعض النتائج المتميزة لدراسات امبريقية حضرية- من خلال الرجوع إلى حالة الولايات المتحدة بالخصوص-، وذلك بغية تدقيق الاقتراحات النظرية التي عرضناها في الصفحات السابقة؛ كما يمكننا أيضا أن نُجمل بعضا من المشاكل العويصة التي قد تعترض البحوث المقبلة.

وعلى أساس المتغيرات الثلاث -عدد، وكثافة، ودرجة عدم تجانس- الساكنة الحضرية، سيكون من الممكن تفسير خصائص الحياة الحضرية، وعرض الاختلافات بين مدن من أحجام وأنماط متباينة.

إن الظاهرة الحضرية إذا ما اعتبرت كنمط عيش متميز، يُمكن أن تُتناول امبريقيا انطلاقا من ثلاث منظورات متصلة فيما بينها:

1) كبنية مادية تقوم على قاعدة من سكان، وتكنلوجيا، ونظام أيكلوجي؛

2) كنسق للتنظيم الاجتماعي المتضمن لبنية اجتماعية متميزة، وشبكة من المؤسسات الاجتماعية، ونمط خاص من العلاقات الاجتماعية؛

3) كتوليف من المواقف والأفكار، ومجموعة من الأشخاص المشتركين في أشكال نمطية من السلوك الجماعي والخاضعين لميكانيزمات متميزة من المراقبة الاجتماعية.

الظاهرة الحضرية من وجهة النظر الأيكلوجية

في حالة البنية المادية والسيرورات الايكلوجية، فإننا نكون في وضع يمكننا من التحرك على أساس مؤشرات موضوعية. وبذلك سيكون من الممكن التوصل إلى نتائج دقيقة للغاية، وكمية في الغالب. إن هيمنة المدينة على المناطق المجاورة لها، يمكن أن تفسر إذن من خلال الخصائص الوظيفية للمدينة والتي تنجم إلى حد كبير عن مفعولي العدد والكثافة. إن جزءا هاما من التجهيزات التقنية والكفاءات والتنظيمات التي تفرزها الحياة الحضرية،

لايمكنها أن تتطور وتزدهر إلا في المدن التي يكون فيها الطلب مرتفعا. إن طبيعة وأهمية الخدمات التي تؤديها هذه التنظيمات والمؤسسات، والامتيازات التي تتمع بها على التجهيزات الأقل تطورا في المدن الصغيرة، تُقوي من هيمنة المدينة الكبيرة، ومن تبعية جهات لا تكف عن الاتساع للمتربول المركزية.

إن تشكيلة الساكنة الحضرية تؤكد دور عاملي الانتقاء والتمييز. إن المدن تحتضن نسبة عالية من الناس في عز أعمارهم بالمقارنة مع المناطق القروية التي تحتضن عددا أكبر من الشيوخ ومن الصغار. وفي هذا الميدان كما في الكثير غيره، فإننا نلاحظ أن المدينة كلما كانت أكثر كبرا كلما كانت هذه السمة المميزة للظاهرة الحضرية أكثر بروزا فيها. وإذا ما استثنينا المدن الكبرى التي استقطبت القدر الأعظم من المهاجرين الذكور، وأيضا بعض أنماط المدن الخاصة، فإن النساء يفقن الرجال عدديا. إن لاتجانس الساكنة الحضرية يتعزز أيضا بالفوارق بين الأعراق والأجناس. إن المهاجرين الوافدين وأبنائهم يشكلان ما يقارب ثلثي العدد الإجمالي من سكان المدن التي يتعدى سكانها المليون نسمة. إن نسبتهم هذه في الساكنة الحضرية تتضاءل بتواز مع تراجع حجم المدينة، إلى أن لا تشكل سوى سدس السكان تقريبا في المناطق القروية. ويمكننا أن نلاحظ أيضا، وفي نفس الإطار، إن المدن الكبيرة قد اجتذبت عددا أكبر من السود والجماعات العرقية الأخرى أكثر من المدن الصغرى. وإذا ما اعتبرنا أن عوامل العمر، والجنس، والعرق، والأصل الإثني تشترك مع عوامل أخرى كالحرفة والمصلحة، فسيتضح جليا أن إحدى السمات الكبرى المميزة للانسان المديني هي اختلافه عن الآخرين. ولم يسبق أبدا من قبل ان اجتمعت في

رقعة ضيقة، مثل كل هذه الأعداد الضخمة من جماهير الناس ذوي الخصائص المختلفة كما يحدث اليوم في المدن الكبرى في أمريكا. وبصورة عامة، وبالخصوص في أمريكا، فإن المدن تحتضن خليطا من الأشخاص والثقافات، الذين ينتمون لأنماط حياة متباينة جدا، والذين تربطهم في الغالب أخف أنواع الاتصال، ويسود بينهم عدم الاكتراث الأقصى، والتسامح الأوسع، وأحيانا الصراع الأشرس، والتناقض الأعنف دائما.

وتبدو عدم قدرة الساكنة الحضرية على إعادة إنتاج نفسها كنتيجة بيولوجية لجماع من العوامل داخل مركب الحياة الحضرية؛ إن انخفاض معدل المواليد يمكن أن يعتبر في الغالب كإحدى العلامات الأكثر بروزا في التحضر الغربي. من الأكيد، أن نسبة الوفيات أعلى بكثير في المدينة منها في البادية؛ غير أنه هناك اختلاف جوهري على مستوى الأسباب التي تجعل مدن اليوم ومدن الأمس، لا تستطيع الحفاظ على عدد ساكنتها. فسبب ذلك في الماضي كان هو معدلات الوفيات المرتفعة بشكل مهول في المدينة، بينما اليوم، ونظرا لتحسن ظروف العيش والصحة في المدن، فإن ذلك السبب يعود بالأساس إلى معدلات الولادات المنخفضة. إن هذه الخصائص البيولوجية التي تميز الساكنة الحضرية، لها أهمية سوسيولوجية، لا فقط لأنها تعكس نمط العيش الحضري، ولكن أيضا لأنها تُكيف تطور المدن وشكل هيمنتها اللاحقة، وتنظيمها الاجتماعي القاعدي. وبما أن المدن تستهلك من البشر أكثر مما تنتج، فإن قيمة الحياة الانسانية، والتقدير الاجتماعي للشخص، لايمكن ألا يتأثرا بميزان الولادات والوفيات. إن نمط استعمال الأرض، والقيم العقارية، والأكرية، والمِلْكية، وطبيعة وسير البنيات المادية، والسكن، وتجهيزات النقلِ والاتصال،

والخدمات العمومية. كل هذا وغيره من الجوانب الأخرى من التجهيز المادي للمدينة، لاينبغي أن يعتبر ظواهر معزولة لا صلة لها بالمدينة كوحدة اجتماعية، بل هي على العكس من ذلك تتأثر بنمط العيش الحضري وتؤثر فيه بدورها أيضا.

الظاهرة الحضرية كشكل من أشكال التنظيم الاجتماعي

في الوصف السوسيولوجي للسمات المميزة لنمط العيش الحضري، غالبا ما نُسجل استبدال الاتصالات الأولية بالاتصالات الثانوية، وإضعاف علاقات القرابة، وتلاشي الدلالة الاجتماعية للأسرة، وانقراض الجوار، وتآكل الأسس التقليدية للتضامن الاجتماعي. ويمكن التأكد بقوة من كل هذه الظواهر بواسطة مؤشرات موضوعية. وهكذا، وعلى سبيل المثال فإن المعدلات الضعيفة لإعادة إنتاج السكان الحضريين، تجعلنا نفترض أن المدينة غير ملائمة لنمط الحياة الأسرية التقليدية، التي تتضمن تربية الأبناء، والحفاظ على البيت كمركز لدائرة من الأنشطة الحيوية. إن تنقيل أنشطة الإنتاج، والتربية، والترفيه إلى مؤسسات متخصصة خارج المنزل، قد حرم الأسرة من بعض وظائفها التاريخية الأكثر تمييزا لها. وللأمهات في المدن حظوظ أكبر للحصول على عمل، وبعض المكترين يصبحون في أغلب الأحيان جزء من الدار، والزواج أخذ يتجه نحو التأخر والتأجيل، ونسبة الأشخاص الذين يعيشون وحدهم وبدون روابط أصبحت أكبر. إن الأسر أصبحت قليلة العدد، وبدون أطفال أكثر مما هو عليه الأمر في البادية. إن المدينة كوحدة للحياة الاجتماعية أصبحت مستقلة عن جماعة القرابة الأكثر اتساعا كما هو الأمر في البادية، والأفراد الذين يكونونها يتبعون مصالحهم الشخصية المتضاربة سواء في

دائرة حياتهم المهنية، أو التربوية، أو الدينية، أو السياسية، أو في ممارساتهم الترفيهية.

إن وظائف مثل حماية الصحة، والإغاثة في المحن المرتبطة بانعدام الأمن الشخصي والاجتماعي، والمقتضيات الضرورية للتربية والترفيه، والتقدم الثقافي، قد كانت السبب في نشوء مؤسسات عالية التخصص على مستوى المجموعة، والدولة، وحتى الوطن. إن العوامل التي تسببت في انعدام الأمن الشخصي المتفاحش، هي أيضا الأسباب نفسها التي تجعلنا نقف على أكبر التناقضات بين الأفراد داخل العالم الحضري. وهكذا وبينما عملت المدينة على تحطيم الفوارق المتحجرة بين الطبقات المغلقة في مجتمع ما قبل الصناعة، فإنها قد عززت ومايزت جماعات الدخل والمكانة. وعموما، فإن نسبة السكان الراشدين المستخدمين بأجر أكبر في المدينة منها في البادية. إن فئة الياقات البيضاء، التي تشمل المستخدمين في التجارة، والخدمات، والمهن الحرة، هي أكبر عددا في المدن الكبرى والمتربولات، وحتى المدن الصغرى، مقارنة مع البادية.

وإجمالا فإن المدينة تثبط نمط الحياة الذي يسمح للفرد بامتلاك أساس للعيش يمكنه الاعتماد عليه في وقت الأزمات، كما تثبط أيضا كل سعي للفرد للعمل لفائدته الخاصة. وبينما نجد أن دخول الحضريين أعلى في المتوسط من دخول القرويين، فإن تكلفة العيش تبدو أكثر ارتفاعا في المدن الكبرى. إن تملك السكن الخاص في المدينة شيء نادر، وإذا ما تحقق فإنه يستدعي تحملات أكبر. إن الأكرية أكثر ارتفاعا، وتمتص جزءا هاما من الدخل. وبالرغم من كون الحضري يستفيد من عدد كبير من الخدمات العمومية، فإنه ينفق النسبة الكبيرة من دخله في مناحي عديدة كالترفيه، والتسرية عن

النفس، بينما يخصص نسبة أقل من أجل الغذاء. وكل ما لاتوفره له الخدمات العمومية ينبغي على الحضري أن يشتريه، ولم تعد هناك في الوسط الحضري أية حاجة من الحاجات الإنسانية تقريبا إلا وأصبحت موضوع استغلال تجاري. إن سلطة ذات أحاسيس قوية، وقدرة على توفير وسائل للإفلات من المهام المُضجرة، ومن الرتابة والروتين، قد أضحت إحدى أهم وظائف الترفيه الحضري المتعدد. وفي أحسن الأحوال، فإن هذا الترفيه يوفر وسائل التعبير الخلاقة عن النفس، وحياة جمعوية تلقائية، ولكن نتائجه الأكثر نموذجية في الوسط الحضري تتمثل في سلبية المشاهد من جهة، والإنجازات المثيرة التي تحطم الأرقام القياسية من جهة أخرى.

نظرا لحالة العجز المطلق التي بلغها كفرد، أصبح على الانسان المديني بذل الكثير من الجهد من أجل بلوغ غاياته، ولهذا يلتحق بأفراد آخرين لهم نفس المصلحة لينخرط معهم في جماعات منظمة. ومن ثمة هذا التكاثر الكبير للمنظمات التطوعية، والمتوجهة إلى نفس القدر من الأهداف المتنوعة، بقدر ما هناك من الحاجات والمصالح الإنسانية. فمن جهة ضعُفت الروابط التقليدية للاجتماع الانساني؛ ولكن في نفس الوقت، فإن الحياة الحضرية تستدعي درجة أكثر قوة من الترابط بين الناس، وشكلا هشا، ومتقلبا وأكثر تعقيدا من العلاقات البينية المتبادلة، والتي تظل العديد من جوانبها خارجة كليا عن مراقبة الفرد كفرد. وغالبا ما تكون العلاقة ضعيفة جدا بين الوضع الاقتصادي والعوامل القاعدية الأخرى التي تحدد وجود الفرد في المجتمع الحضري، وبين الجماعات التطوعية التي ينخرط فيها. وبينما يكون من الممكن عادة في المجتمع البدائي أو المجتمع القروي وانطلاقا من بعض العوامل المعروفة التنبؤ بمَن يملْك ماذا؟ ومن سينضم لمن؟ في كل علاقات الحياة تقريبا، فإننا

في المدينة، وبالمقابل، لا يمكننا سوى وضع أومعرفة النموذج العام لتكوين الجماعة، والانخراط في الجماعة، وهو النموذج الذي سيكشف العديد من التنافرات التناقضات.

الشخصية الحضرية والسلوك الجماعي

إن الحضري ينمي شخصيته ويعبر عنها بشكل كبير من خلال أنشطة الجماعات التطوعية، سواء كانت ذات أهداف اقتصادية، سياسية، تربوية، دينية، ثقافية أو ترفيهية. ومن خلال هذه المشاركة يكتسب مكانته، ويتمكن من ممارسة مجموع الأنشطة التي تشكل مجرى حياته. ومع هذا، يمكننا أن نستنتج بسهولة، أن الاطار التنظيمي الذي تفترضه هذه الوظائف المتنوعة كثيرا لا يحقق لوحده انسجام واكتمال الشخصيات التي يتكفل بمصالحها. ويمكننا أن نتوقع في هذه الظروف، أن يكون اختلال الشخصية، والانهيار العصبي، والانتحار، والانحراف، والجريمة، والرشوة، والفوضى أكثر انتشارا في المدينة منها في المجموعة القروية. ويتأكد لنا هذا، كلما أمكننا الحصول على مؤشرات قابلة للمقارنة؛ ولكن الميكانيزمات المولدة لهذه الظواهر تستدعي تحليلا أكثر عمقا.

وبالنسبة لأغلب أهداف المجموعة، يبدو من المستحيل بالنسبة للشخص في المدينة أن يستعين بصفة فردية بعدد كبير من الأشخاص المنعزلين والمتباينين، ولكن الناس عن طريق التنظيمات التي ينتمون إليها يمكنهم استعمال مصالحهم ومواردهم الخاصة في خدمة قضية جماعية ما. يمكننا إذن أن نستنتج من هذا أن الضبط الاجتماعي في المدينة يجب أن يتم أساسا من خلال الجماعات المنظمة رسميا. وينتج عن ذلك أيضا أن الجماهير الحضرية هي

موضوع استعمال من طرف رموز وقوالب محركة من طرف أفراد يعملون عن بعد، أو بطريقة غير مرئية في الكواليس عن طريق المراقبة التي يمارسونها على وسائل الاعلام. إن التقرير الذاتي للمصير، سواء في الميدان الاقتصادي، أو السياسي، أو الثقافي، يختزل في هذه الحالة في مجرد طريقة في الكلام، أو يخضع في أحسن الفروض للتوازن غير المستقر لجماعات الضغط. وفي غياب قوة علاقات قرابية حقة، فإن الناس يسعون لخلق جماعات قرابة وهمية. ولتعويض تلاشي دور الوحدة الترابية كأساس للتضامن الاجتماعي، يتم اللجوء إلى خلق وحدات للمصالح. وفي نفس الوقت فإن المدينة، باعتبارها مجموعة، تتحلل في شكل سلسلة من العلاقات التجزيئية الهشة، والمتقابلة مع قاعدة ترابية متمتعة بمركز محدد، لكن بدون ضاحية، وأيضا إلى تقسيم للعمل يتعدى كثيرا إطار البَلْدَة المباشرة ليبلغ مداه المستوى العالمي. وكلما كان هناك عدد أكبر من الناس في حالة تفاعل، كلما كان مستوى الاتصال بينهم ضعيفا، وكان النزوع لإبقاء الاتصال في مستواه الأبسط أقوى، أي قائما على أساس ما نعتبره مشتركا بين الجميع أو في مصلحة الجميع.

من الجلي إذن أنه ينبغي توجيه الاهتمام للنزعات التي تنبعث من نسق التواصل وتكنلوجيا الانتاج والتوزيع التي ظهرت مع الحضارة الحديثة، وذلك عند بحثنا عن الأعراض التي ستبين التطورات المقبلة المحتملة التي ستعرفها الظاهرة الحضرية باعتبارها نمطا للحياة الاجتماعية. إن اتجاه التغيرات الجارية في الحياة الحضرية سيُحول نحو الخير أو الشر، ليس المدينة فسحب، وإنما العالم. إن أكثر هذه العوامل والسيرورات أهمية، والامكانيات

المتاحة لتوجيهها والسيطرة عليها، تستدعي دراسة لاحقة أكثر تفصيلا.

لما يصبح لعالم الاجتماع تصور واضح عن المدينة كوحدة اجتماعية، ونظرية للظاهرة الحضرية قابلة للاستعمال، آنذاك فقط يمكنه أن يأمل في تطوير نسق موحد من المعارف الثابتة، وهذا ما لايوفره حاليا بكل تأكيد ما يتم تداوله على أنه «سوسيولوجيا حضرية». ولما ننطلق هكذا من نظرية للظاهرة الحضرية، كما حاولنا توضيحها في الصفحات السابقة، وذلك بغاية تهييئها، واختبارها ومراجعتها على ضوء تحليل أكثر عمقا وبحث امبريقي، فمن حقنا أن نأمل التمكن من تحديد معايير صدق وثبات المعطيات المبنية على وقائع. إن التشكيلة المتنوعة من المعلومات المتفرقة التي تم إدراجها لحد الآن في مطولات السوسيولوجيا عن المدينة يمكن أن تغربل وتدمج هكذا في إطار من المعارف المنسجمة. وبنظرية كهذه فقط يمكن لعالم الاجتماع أن يفلت عَرَضًا من تلك العادة العبثية المتمثلة في التعبير باسم العلم السوسيولوجي عن مجموعة من الأحكام، غير المقبولة في الغالب، والمتعلقة بمشاكل مثل الفقر، والسكن، والتخطيط الحضري، والحفاظ على الأمن، وتنظيم الأسواق، والنقل، وغيرها من المسائل التقنية. وبينما لا يمكن لعالم الاجتماع أن يحل أيا من هذه المشاكل العملية -بنفسه، على الأقل-، فإن بإمكانه، في حالة وعيه بوظيفته الخاصة، المساهمة بشكل كبير في فهمها وإيجاد حل لها. وآفاق النجاح بهذا الصدد، تبدو مشرقة من خلال المقاربة الشمولية والنظرية، أكثر مما لو تم الاقتصار فقط على مقاربة خاصة ومحدودة.

لويس وورث، (1938)

ترجمة ع. المالكي.

بيبليوغرافيا

A- Ouvrages et articles de sociologie générale

- **Aron (A),** *Les étapes de la pensée sociologique*, ed. Gallimard, Paris, 1967.
- **Aron (A),** *La sociologie allemande contemporaine*, ed. PUF, Paris, 1981.
- **Bastide (R),** *Anthropologie appliquée*, Ed. Payot, Paris, 1971, pp. 44-45.
- **Bazanger (I),** *Les chantiers d'un interactionnisme américain*, in: Introduction à «La trame de la négociation» d'A Strauss. Ed. l'harmattan, paris, 1992
- **Berthelot (J. M),** *La construction de la sociologie*, q.s.je ?, PUF, Paris, 1991.
- **Bourdieu (P)**, *La distinction*, Ed. de minuit, 1979.
- **Coenen- Huther**, «Le fonctionnalisme et après?», ed de l'université de Bruxelles, Bruxelles, 1984. *–(Préface à l'ouvrage*) de Janne (H),
- **Corcuff (P),** *Les nouvelles sociologies,* Ed. Nathan- université, (coll 128), 1995.
- **Durkheim (E),** *La science sociale et l'action*, col. Sup., ed. PUF, Paris, 1970.
- **Durkheim (E),** *De la division du travail social*, ed. PUF, (10ème édition), Paris 1978.
- **Duvignaud (J)** : *Introduction à la sociologie*, Ed. Gallimard, (col. Idées), Paris, 1966.
- **Freund (J),** Introduction à *: Sociologie et épistémologie de Georg Simmel*, ed. PUF, 1981, Paris.
- **Javau (C),** *Leçons de sociologie*, ed. Méridiens Klincksieck, Paris, 1988.
- **Lahire (B)** «Prolonger le travail de P. Bourdieu : des attitudes à la théorie», in numéro spécial de : *Sciences humaines* consacré à L'œuvre de P. Bourdieu, 2002.
- **Leroy (M),** *Histoire des idées sociales en France* (Tome 2), éd. Gallimard, Paris, 1962.
- **Passeron (J.C)** : *Le raisonnement sociologique*, éd. Nathan, Paris, 1991
- **Marx (K) &. Engels (F),** *L'idéologie allemande*, éd. Sociales, Paris, 1974.

- **Rivière (C)**, *L'objet social*, Librairie M. Rivière et Cie, Paris, 1969.
- **Sagnol (M)**, «Le statut de la sociologie Chez Simmel et Durkheim», in: *Revue Française de Sociologie*, N° de Janvier/Mars, 1987
- **Simon (J.P)**, *Histoire de la sociologie*, ed. Puf, Paris, 1991.
- **Strauss (A)**, *La trame de la négociation, sociologie qualitative et interactionnisme*, (Textes réunis et présentés par **I. Basanger**) ed. l'harmattan, paris, 1992. cf : l'introduction d'I Basanger, «Les chantiers d'un interactionnisme américain» pp 11- 63.
- **Weber (M)**, *Essai sur la théorie de la science*, (Traduit de l'Allemand par J. Freund) ed. Plon, Paris, 1965.
- **Xiberras (X)**, *Les théories de l'exclusion*, éd. Armand Colin, 1998, p. 82

B- Ouvrages et articles de sociologie urbaine

- **Aballéa (F)** : «Y' a- t- il crise de la sociologie urbaine», *Recherche sociale*, N° 86, Avril- Juin, 1985.
- **Aballéa (F)**, «Les grands courants de la sociologie urbaine», *Recherche sociale*, N° 101, Janvier- Mars, 1987.
- **Amphoux (P) & Ducret (A)**, «l'étranger de Simmel» in, *Georg Simmel: Ville et modernité,* (sous la direction de **J. Rémy**) ed. L'Harmattan, 1995, Paris, p.133.
- **Breslau (D)**, «l'Ecole de Chicago existe- elle?», in: *Actes de la recherche en sciences sociales*, N° 74, 1988.
- **Berselau (D)** «Robert Park et l'écologie humaine», in : *Actes de la recherche en sciences sociales,* N° 74, 1988.
- **Bressoux (P), Coustère (P), Leroy- Audouin (C)**,«Les modèles multiniveau dans l'analyse écologique», *Revue Française de sociologie*, XXXVIII, 1, 1997.
- **Burgess (E)**, «La croissance de la ville, introduction à un projet de recherche», in *L'école de Chicago*, pp.127- 162.
- **Castells** (M), *La question urbaine*, ed. Maspéro, 1977.
- **Castells (M)**, «Y a- t- il une sociologie urbaine?», *Sociologie de Travail*, N°1, 1968.
- **Chapoulie (J.M)**, *La tradition sociologique de Chicago,* ed. Seuil, Paris, 2001.
- **Chombart De Lauwe (- P. H)**, *Des hommes et des villes,* ed. Payot, Paris, 1965.
- **Chombart De Lauwe (P.H)**, *La fin des villes*, éd. Calman Lévy, Paris, 1982.
- **Chamberedon (J.C), Lemaire (M)**, «Proximité spatiale et dstance sociale : les grands ensembles et leur peuplement », in *Revue française de sociologie*, XL, I, 1970.
- **Coulon (A)**, *L'Ecole de Chicago*, ed. PUF, col. Q.s.je? N° 2639, 1992.
- **Deegan (M.G)**, «Robert Park et la sociologie de Chicago, Tapisserie théorique» in revue *Sociétés*, N° 52, (1996), ed. Dunod, Paris.

- **Dubriano (C),** L'espace rural existe- t- il encore? in : *http://pedagogie. ac- aix- marseille.fr.*
- **Freund (J)**, *Préface* de la traduction française,de *«La ville»* de Max Weber,ed. Aubier Montaigne, Paris, 1982.
- **Freund (J),** «La ville selon Max Weber», article dans,*Espace et Société*, N°16, Novembre 1975
- **Jonas (J)** : «LA métropolisation de la société dans l'œuvre de Georg Simmel» , contribution parue dans l'ouvrage collectif : *«Georg Simmel : Ville et Modernité»*.
- **Halbwachs (M):** « Des changements décisifs dans la notion d'espace», in : P. Rambaud (dir) *Sociologie rurale*, Ed. Mouton, Paris- Lahaye, 1976.
- **Hannerz** (H), *Explorer la ville* (Trad. Française et présentation par I. Joseph) ed. Minuit, Paris, 1983.
- **Grefmeyer (Y)**, *Sociologie urbaine*, Ed. Nathan, (Col. 128), Paris, 1994.
- **Grefmeyer (Y) et Joseph (I)** , *L'Ecole de Chicago (Naissance de l'écologie urbaine),* Ed. Aubier Montaigne, Paris, 1979
- **Genestier (P)**, «mode de vie normal et normalisation de l'espace», in : *Espaces et Sociétés*, N° 73 / 199' (n° spécial sur : Espaces et styles de vie).
- **Juan (S),** «Les niveaux d'analyse sociologiques des systèmes de représentations et de pratiques», in : *Espaces et sociétés*, (N° spécial, espaces et styles de vie), N° 73/ 1994.
- **Ledrut** (R), *l'espace social de la ville*, ed. Anthropos, Paris, 1968.
- **Ledrut (R)**, *La forme et le sens dans la société,* Ed. Librairie des Méridiens, Paris, 1984.
- **Lefebvre (H)**, *Le droit à la ville (espace et politique)*, Ed. Anthropos, Paris, 1972.
- **Lefebvre (H)**, *La révolution urbaine*, col. Idées, ed. Gallimard, 1970, (cf. notamment le chapitre premier : «De la ville à la société urbaine»).
- **Park,(R.E.)** «La ville , propositions de recherche sur le comportement humain en milieu urbain», in: Y.Grafmeyer et I. Joseph, *l'école de Chicago.*
- **Park (R.E)**, «La ville : propositions de recherche sur le comportement humain en milieu urbain» in : Y.Grafmeyer et I. Joseph, *l'école de Chicago*
- **Park (R.E)**, «La communauté urbaine, modèle spatial et ordre moral», in Y. Grafmeyer et I. Joseph, *l'école de Chicago.*
- **Park (R.E)**, «La ville comme laboratoire social», in Y. Grafmeyer et al. *L'Ecole de Chicago*.
- **Paschalis (N)**, «l'espace social comme lieu de lien social», *http:// www. Espritcritique.org*
- **Peneff (J)**, *La méthode biographique, de l'Ecole de Chicago à l'histoire orale*, ed. A. Colin, Paris, 1990.

- **Koseki (S)**, «pour une sociologie critique de la quotidienneté», in : *L'Homme et la Société*, N° 23, 1972.
- **Rémy (J) & Voyé (L),** *la ville et l'urbanisation*, ed. Duculot. Paris, 1978.
- **Simmel (G)**, «Les grandes villes et la vie de l'esprit», in: **F. Choay,** *L'ubanisme, Utopies et réalités,* col. Points, ed. Seuil, Paris, 1965.
- **Schemeyel (Y)**, «d'une sociologie naturaliste à une sociologie politique: Robert Park», *Revue Française de sociologie*, XXIV, 1983.
- **Sowa (K.Z)**, «L'environnement social et le processus d'urbanisation», *Cahiers internationaux de Sociologie*, Vol. LVIII, Janvier- Juin 1975.
- **Thomas (W.I) & Zaniecki(F)** , *Fondation de la sociologie américaine (morçeaux choisis)*, préface et coordination de la traduction par Suzie Guth, ed. L'Harmattan, Paris, 2000.
- **Tomasi (L)** «Actualité de l'élaboration théorique de R. E. Park», in revue *Sociétés* N° 52, ed. Dunod, Paris, 1996
- **Weber (M)**, *La ville,* Traduit de l'Allemand par Philippe Fritsch, ed. Aubier Montaigne, Paris, 1982.

C- Ouvrages et articles de sociologie des migrations

- **El- Maliki (A)**, «Migration, urbanisation et développement» (approche historico- théorique), in ***Cahiers du CREPS,*** N°1, Dec. 1997, (Faculté des Lettres et des sciences humaines, Dhar Mehraz, Fès).
- **Duchac (R)**, *Sociologie des migrations aux Etats- Unis*. Ed. Mouton, Paris, 1974.
- **Franqueville (A)**, «Réflexions méthodologiques sur l'étude des migrations actuelles en Afrique» , *Cahiers ORSTOM,* Vol X, n° 2- 3, 1973.
- **Gaudemar (P)**, *Mobilité du travail et accumulation du capital*, Ed. Maspéro, 1970.
- **Germani (G)**, Migration et intégration culturelle, in : *Manuel de recherche sociale dans les zones urbaines*, ed. Unesco, Paris, 1965.
- **Halbwacks (M)**, *Morphologie sociale*, Col. U, Paris, 1970.
- **Matéi (I)**, «Vers la suppression planifiée des différences entre village et ville» reproduit dans: **P. Rambaud**, *Sociologie rurale* .(recueil de textes) Ed. Mouton, Paris/Lahaye, 1976
- **Merlin (P),** *L'exode rural*, Ed. PUF, Paris, 1971.
- **Pitié (J)**, *L'exode rural*, Ed. PUF, coll. Q.s.je ?, Paris, 1979.
- **Roussel (L)** : «L'exode des jeunes dans les pays en voie de développement : Réflexions méthodologiques», *Revue Internationale de Travail,* Vol. 101, N°3, Mars 1970.
- **Vincienne (M),** *Du village à la ville, (système de mobilité des agriculteurs)*, Ed. Mouton, Paris, 1972.

الفهرس

القسم الرابع

تم الطبع بمطابع أفريقيا الشرق 2016
159مكرر، شارع يعقوب المنصور، الدار البيضاء
الهـاتـف :04 95 25 0522 / 13 98 25 0522
الفـاكـس :20 29 25 0522 / 80 00 44 0522
مكتب التصفيف الفني 39، زنقة علي بن أبي طالب
الهـاتـف : 54 / 53 67 29 0522
الفـاكـس : 72 38 48 22 05
البريد الإلكتروني :E.mail : africorient@yahoo.fr
www.afrique-orient.com

مدرسة شيكاغو

إذا كانت أوروبا هي مهد نشأة علم الاجتماع، فإن تطوره وازدهاره سيتم على الضفة الأخرى من المحيط الأطلسي، وهكذا وفي خضم التحولات الاجتماعية والسياسية والفكرية الهائلة التي عرفتها البشرية مع مطلع القرن العشرين سيترسخ علم الاجتماع في الولايات المتحدة الأمريكية كعلم مستقل له أساتذته وشعبه والتمويل الخاص لأبحاثه وذلك لأول مرة في التاريخ وفي جامعة شيكاغو بالضبط، الشيء الذي مكن رواد هذا العلم بهذه الجامعة من إنجاز سلسلة من الأبحاث والدراسات الحضرية المدهشة ذات المنحئ المنهجي الأمبريقي والتي حاولوا من خلالها تتبع وتحليل التحولات الاجتماعية العميقة والسريعة التي كان يعرفها المجتمع الأمريكي آنذاك وبالخصوص مدينة شيكاغو التي جعلوا منها «مختبرهم الاجتماعي» مساهمين من خلال كل ذلك في تدشين وتأصيل تقليد سوسيولوجي غني وملهم تواضع مؤرخو علم الاجتماع على تسميته «مدرسة شيكاغو».



عبد الرحمن المالكي، أستاذ التعليم العالي بشعبة علم الاجتماع، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، فاس، ومدير «مختبر سوسيولوجيا التنمية الاجتماعية» بنفس الكلية، له العديد من الأبحاث والدراسات حول ظاهرتي التحضر والهجرة بالمغرب.



Gregorio Prestopino
(1907 - 1984)



ISBN 9954-656-61-7

